Telegram:@mbooks90

بول أوستر

تباريخ العيش
سيرة الشباب

ترجمة: محمد الفحايم

سيرة

خطوط وظلال

للنشـــر والتـوزيـع

الأردن، عمّان، جبل الحسين، بناية (٢٠)

تلفون: 5746218 79 962+ - 4651846 6 962+

email: dar5otot@gmail.com

ص.ب: 11190، عمّـان 925220 الأردن

تباريخُ العيشِ - بول أوستر

سيرة الشباب - ترجمة : محمد الفحايم - الطبعة الأولى، ٢٠٢٢

جميع الحقوق محفوظة ©

تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي:

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the Publisher

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٦٣٧/ ٥/ ٢٠٢١)

٩٢٠،٧١

أوستر، بول

تباريخ العيش / بول اوستر؛ ترجمة محمد الفحايم .ـ عمان: خطوط وظلال للنشر والتوزيع ٢٠٢٢

(١٧٠) صفحة

ر.إ.: (٢٦٣٧/ ٥/ ٢٠٢١)

الواصفات: /السيرة الذاتية//رجال//السيرة المترجمة/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الرقم المعياري الدولي ISBN: 978-9923-40-274-7

عندما ناهزتُ سِنَّ الثلاثين، مَرَرتُ بفترة دامت سنين عديدة، كلّما باشرتُ فيها أمرا، كان مآلُه الفشلَ. صار زواجي إلى الطّلاق، وكانت كتابتي تتعثّرُ، وكانت الصعوباتُ الماليةُ تُضنيني. فأنا لا أتحدث فقط، عن حاجة ظرفية، ولا عن ضرورة محتملة أتقشف فيها أحيانا، بل عن حاجة إلى المال دائمةٍ، وساحقةٍ، أشبه بخناق، تُعكّرُ صفوَ رُوحي، وتجعلني أسِيرَ حالةٍ من الرُّغبِ لا ضفاف لها.

Telegram:@mbooks90

ليس أحدٌ غيري مسؤولاً عن هذه الضّائقة. لطالما كانت علاقتي بالمال خاطئةً، وغامضةً، ومُفعمة باندفاعات مُتناقضة. وكنت أؤدّي ثمنَ رفضي اعتمادَ نهجٍ قويمٍ في هذا الشأن. كانت الكتابةُ دوماً طُموحي الوحيدَ، وكنت أدرك هذا منذ عامي السّادس عشر، أو السّابع عشر، ولم أكن لأتوهّم، البتّة، أنّ بمقدوري العيشَ من الكتابة. لا يصير المرءُ كاتباً كما لو أنّ الأمر يتعلق «باتخاذ قرار مُزاولةِ مهنةٍ» كالطبّ، أو الشُّرطة. تختارنا الكتابةُ أكثر مِمّا نختارُها، وبمجرّد أن يُدرِك المرءُ بأنه لا يصلح لأيّ شيءٍ آخر، فعليه أن يشعر بأنه مشرف على اجتياز طريق طويل وشاقّ خلال ما تبقّى من عُمره، إلّا إذا اتّضح أنّ الآلهةَ تَفحَصُه الحُظوةَ (والويل لمن يُعَوّلُ على هذا). لن يحصُل المرءُ أبدا من عَمَله على ما يكفي من أجل عيشِه، وإذا ما كان يرغب في الحصول على سقف يأويه، وألّا يموت جوعا، فعليه أن ينقاد لمزاولة أعمال أخرى كيما يُسَدّد فواتيرَه. أُدرِكُ كلَّ هذه الأمورَ، وأنا جاهز لها، ولست متذمرا منها. كان لي، في هذا الصدد، حظٌّ وافرٌ، بحيث لم أكن أرغب في المنافع المادية، كما أن احتمالَ الفقرِ لم يكن ليُخيفني. كلّ ما أبغيه هو إمكان إنجازِ المهمّةِ التي كنت أستشعرها بداخلي .

جُلُّ الكُتّابِ يعيشون حياةً مزدوجةً، يحصلون على مال وفير بفضل ممارستهم لمهنٍ مشروعةٍ، ويدّخرون، ما وَسِعَهم الإدّخارُ، وقتا للكتابة، في

الصّباح الباكر، أو في المساء المتأخر، في نهاية الأسبوع، أو خلال العُطل. كان وليام كارلوس وليام(1) و لويس فرديناند سيلين(2) طبيبين، وكان والاس ستيفنز(3) يعمل في شركة للتأمينات، وكان ت. س. إليوت موظفا بنكيا، ثمّ ناشرا. ومِنْ بين مَنْ أرتبط بعلاقات معهم، ثمة الشاعر الفرنسي جاك دوبان(4) الذي يعمل مديرا مشاركا لرواق للفنّ بباريس، وأدار الشاعر الأمريكي ويليام برونك (5)، خلال أربعين سنة، مؤسسةَ عائلته للخشب والفحم الواقعة شمال نيويورك. واشتغل كلّ من دون دوليلو (6)، و بيتر كاري (7)، و سلمان رُشدي، و إلمور ليونارد(8) في الإشهار أثناء فترات طويلة. ومارس كتابٌ آخرون التدريسَ، و لا ريب أنّه الحلُّ الأكثر ذُيوعا اليوم. ومنذ أن اقترحت جامعاتٌ ومعاهدُ كبرى في الضاحية، دروسا في «الكتابة الإبداعية »، فإنّ العديد من الروائيين والشعراء يُجهدون أنفسهم، باستمرار، للحصول على منصب. ومَنْ ذا الذي يلومهم على هذا ؟ فالأجرة ليست مرتفعةً، لكنّ العملَ منتظمٌ، والتوقيتَ مناسبٌ .

كانت مشكلتي تكمن في أنّ عيشي حياةً مزدوجةً أمرٌ لا يُثير اهتمامي. فليس الأمر أني لا أرغب في العمل، وإنّما الحضور إلى عمل من الساعة التاسعة حتى الخامسة هو شأن لا يعني لي شيئا، ولا يبعث فيّ، إطلاقاً، أيّ حماسةٍ . كنت بالكاد أبلغ العشرين، وكنت أشعر أني أصغر جدا من أن أقرّ في مكان وأثبتَ فيه، وأظفَحُ جدا بمشاريع أخرى من أن أبدّد وقتي في كَسْبِ المزيد من المال أكثر مِمّا أردتُ أو أحتاج. كنت أبغي التخلّص من قضية المال، هذا ما في الأمر. لم تكن الحياة باهظة في ذلك الزمن، وليس لي من مسؤوليات إلّا ما يتعلق بي شخصيا، وبوسعي أن أتدبّر أمري بدخلٍ سنويّ يقارب ثلاثة آلاف دولار.

حاولت مدةَ عامٍ تحضيرَ إجازةٍ، ولكن فقط لأنّ جامعة كولومبيا منحت لي منحةً دراسيةً قدرها ألفا دولار، من دون أيّ التزامٍ بالتدريس، مِمّا يعني، في الواقع، أنها تدفع لي لِقاءَ الدراسة. وحتى في هذه الظروف المثالية سرعان ما أدركت أن ليس لي ما أقوم به هنا؛ بدا لي أني بلغت من المدرسة أقصى ما يمكن بلوغه، كان احتمالُ العيشِ لخمس أو ستّ سنوات أيضا، بوصفي طالبا، يبدو لي قَدَراً أسوَأ من الموت. لم أعد أرغب بتاتا في الحديث عن الكُتب، بل إنّ لديّ الرغبة في كتابتها. لا يبدو لي من اللائق، مبدئيا، أن يغتَصِمَ كاتبٌ بجامعة وهو يُحيط نفسَه بكثرة من البشر تُشبه أفكارُهم أفكارَه، ويَرتَع في راحةٍ عَميقَةٍ، هاهنا يُجابه الكاتبُ خطرَ الرِّضا عن الذّات، وبمجرد أن يستسلم له، فإنّ هذا يعني ضياعَه .

لا أريد أن أنافح عن الخيارات التي نَهَجتُها، وإذا ما كانت تفتقر إلى حِسٍّ عَمَليّ، فإنني، في الحقيقة، لم أكن أرغب في أن أكون عمليا. ما أريده هو أن أحيا تجارب جديدة، أريد خوضَ غمارِ الحياة ومعمعانها، واختبار نفسي، والإنتقال من شأن إلى آخر، واكتشاف كُلّ ما سوف يسنَحُ لي. وما دمت متبصّرا فإنّي أعتقد أن كلّ ما سيحدث لي، سيكون نافعا، سيُعلّمني أشياء كنت أجهلها. قد يبدو هذا المسعى متجاوزا، وقد كان كذلك بالفعل. كاتب شابّ يودّع أهله وأصدقاءه، ويتجه صوب وجهة مجهولة بعد أن يكتشف العناصر التي جُبِلَ عليها. في كُلّ الأحوال أعتقد أنّه لا يوجَد أيّ نهجٍ آخر كان يمكن أن يكون مُناسبا لي. كنت مفعما بالطاقة، تَغمُرُ الأفكارُ ذهني، وأرغب في الحلّ والترحال. العالم شاسعٌ: وأنا ما كنت أريد أن أتوقّى الخوفَ أو أتَحرّزَ منه .

لا يشقّ عليّ وصفُ كُلّ هذا، ولا تذكّرُ ما كنت أكابده وقتئذ. لا تنشأ الصعوبة إلّا حين أسأل نفسي كيف تصرّفتُ على هذا النحو، لماذا أحسست

بما كنت أحس به. كان الشعراءُ والكتابُ الشبابُ الآخرون من شريحتي يتخذون قراراتٍ معقولةً تخُصُّ مستقبلهم. لم نكن من هؤلاء الأولاد الذين ينتمون إلى أسرٍ غنية، الذين يعوّلون على سخاء أهلهم. فبمجرد أن نتخرّج من الجامعة، فإننا سنكون وحيدين إلى الأبد. لقد جابهنا، جميعا، الموقفَ ذاتَه، وكنّا نعلم، جميعا، ما ينتظرنا ؛ ومع ذلك فهم اختاروا سبيلا، وأنا اخترت سبيلا أخرى، وهذا ما أشعر بالعجز، دائما، عن تفسيره. لماذا بدا أصدقائي مُحترسين جدّا، بينما بدوت أنا مجازفا؟

لقد ترعرعت في عائلة بورجوازية، وعشت طفولةً ميسورةً، ولم أعان، أبدا، من أيّ نقص أو حرمان يُزهِقُ غالبيةَ البشرِ الذين يحيون على هذه الأرض. لم أقاس الجوع أبدا، ولم أكابد البرد أبدا، ولم أشعر بأني في خطر أبدا إذا ما أضعت ما أملكه. كان الأمانُ والسكينةُ أمرين بديهيين ؛ لكن بالرغم من اليُسر والهناءة اللذين يسودان بيئتنا، فإنّ المال كان فيه موضوعا لمناقشات وهموم لا تنقضي. لقد عاش والداي الأزمةَ معا، ولم يَنبَرِأ أيٌّ منهما من هذه الأزمنة العصيبة بصفة نهائية. لقد تركت تجربةُ العَوَزِ آثارَها فيهما، وكان كلُّ واحدٍ منهما يحمل جُرحَها على طريقته .

كان أبي مُقتَصِداً في نفقاته، وكانت أمّي مُسرفةً، كانت تُنفق، أمّا فهو فلا. ما انفكّت ذكرى الفقر تلازمه، وبالرغم من أنّ ظروفَ حياتِه قد تغيّرت، فإنه لم يُوَفَّق، أبدا، إلى الاقتناع بهذا التغيير تماما. أمّا هي فقد كانت تشعر بمتعة بالغة في هذا الوضع الذي تغيّر. كانت تعشق طقوس الاستهلاك، وكانت على غرار كثير من الأمريكيين، قبلها وبعدها، تمارس التسوُّق بوصفه وسيلة للتعبير، يسمو أحيانا إلى مستوى صورة للفنّ. كان ولوجُ محلٍّ عندها بمثابة الدخول في عملية كيميائية تُسند لماكينة النقودِ خصائصَ تحوُّل سحريةً. إنّها رغباتٌ يتعذّر بيانُها، وحاجاتٌ غيرُ ملموسةٍ، وحنينٌ مُبهَمٌ، بيد أنها حين

تجتاز صندوقَ المالِ تصبح حقائقَ وأشياء ملموسةً، يمكن للمرء أن يُمسك بها.

لا تملّ أمّي، بتاتا، من القيام بهذا الأمر العجيب، أمّا الفواتيرُ النّاجمةُ عن هذا، فكانت سببَ شقاقِ أمّي وأبي. كانت تحسب بأننا نملك أسباب هذا الإنفاق، أمّا، هو، فكان يرى العكس. أسلوبان ونظرتان للعالم، وفلسفتان أخلاقيتان، يصطدمان في صراع متواصل. وفي النهاية، تحطّم زواجهما جرّاء هذا. كان المالُ هو سببَ الصّدعِ، صار منبعا وحيدا لا يُقهَر للشّقاق بينهما، والمُفجعُ أنهما كانا معا شخصين يتّصفان بشمائل منها اليقظة والاستقامة والكدّ، وخارج ميدان المعركة هذا، الوحيد والضّاري، فقد كانا، بالحريّ، مُتفاهمين أشدّ التفاهم. لم أُفلِح، قطّ، في أن أفهم كيف لموضوع قليل الشأن، مع مراعاة الفرق، أن يسبّب العديدَ من المشاكل بينهما، غير أنّ المال، بالطّبع، ليس مُجرّد نُقودٍ، بل هو دائما شيء آخر، ودائما ما يكون شيئا آخر يُضاف، ولذا فإنّ الكلمة الفيصل تكون دائما له .

وجدتُ نفسي، وأنا يافعٌ، في خضمّ هذه الحرب الأيديولوجية. كانت أمّي تذهب بي لشراء الملابس تحملني في دوّامة حماستها وسخائها. وفي كلّ مرة كنت أحمل نفسي على الاقتناع بأنّي أرغب في ما تعرضُه عليّ - دائما أكثر ممّا كنت أتوقّع، ودائما أكثر مِمّا كنت أعتقد أنّني بحاجة إليه. كنت عاجزا عن المقاومة، ويتعذر عليّ ألّا ابتهج بالاهتمام الذي يمحضه المستخدمون لها، ومسارعتهم في خدمتها، ويستحيل ألّا يجرفني اندفاعُها. كانت سعادتي مشوبةً، دائما، بجُزعات كبيرة من القلق ؛ لأنّي كنت أعرف، بالضبط، ما سيقوله أبي عندما يتلقّى الفاتورة، وهو ما كان يقوله دائما بالفعل. ويحدث الانفجارُ المحتومُ، وينتهي بقرار لأبي لا رادّ له، حاصلُه أنّي إذا ما كنت أحتاج لشيء، في المرة المقبلة، فسيكون هو الذي سيصحبني لاقتناء أغراضي.

هكذا تحين المناسبة ليشتري لي بذلةَ شتاءٍ جديدةً، مثلا، أو حذاءً جديداً. وذات مساء قصدنا، بعد العشاء، محلّا للتخفيض يقع ناحية شارع كبير في مكان مّا من الأماكن المُعتمة في «نيوجرسي»، رأيتُ النورَ الباهت للإضاءات المُستَشِعّةِ في هذه الأمكنة، وأبصرتُ الحيطانَ من حجرٍ، وصفوفا لا تنتهي من ملابس الرجال رخيصةِ الثمن. مثلما كان الرّاديو يُرَدّدُ وقتئذٍ (*حدُّ الأسعار مُنخفِضٌ - تلكم هي حقيقة هذا الموسم التي سيخبِركم بها روبير هال*)، وعلى العُموم، فإنّ هذه الأغنيةَ تُشكّل جزءاً من طفولتي شأنها شأن قَسَمِ الولاءِ أو صلاةِ للرّبّ.

والحقّ أنّ مطاردة الفُرصِ المربحةِ مع أبي لتُفتِعُني، بقدر ما تُمتعني هذه النّزهات التبذيرية التي تنظمها امّي. كان وفائي لوالديّ بالقِسطاس، ولم أكن أبدا لأنحاز لأحدهما على حساب الآخر. ربّما كان موقف أمّي مُغريا أكثر بسبب ما كانت تُحدثه من تسلية وإثارة، لكنّ لِتَحفّظِ أبي جانباً يأسرني كذلك. يُشعِرُك بتجربته وبمعرفته التي اكتسبها بشدّة، توجد في صلب قناعاته، يتحلّى بعزم مستقيم يجعل منه رجلا لا يُضَعضَعُ له رُكنٌ أبدا، ولا يتقهقر مخافة أن يترك أثرا سيئا في نظر الناس، وإني لأجد هذا رائعا ؛ وبقدر ما أعشق أمّي الفاتنة ذاتَ سحرٍ بلا ضفاف، بطريقتها في إبهار الناس، بقدر ما أعشق أبي لقدرته على الصمود أمام الناس، فأن تراه في ممارسته يمكن أن يكون أمرا لا يُحتمَل، إذ يبدو أنه لا يكترث بتاتا لما يقال عنه، بيد أنه كان مفيدا أيضا. واعتقدت، مع مرور الوقت، أني أصغيت إلى دروسه التي لم أكن واعيا بها.

نشأت، وأنا طفل، على النموذج التقليديّ للشطارة وجوْدة التصرّف. كنت أخرج عندما يُنذِرُ الثلجُ بالتساقط، حاملا مكنستي وأنا أطرق الأبواب أسأل ساكنيها إذا ما كانوا يرغبون في تشغيلي لكنس الثلوج من عتباتهم وممرّاتهم.

وحين كانت الأوراق تتساقط في أكتوبر، كنت هناك حاملا مِفشاطي أطرق الأبواب ذاتها منقّبا في المروج. وفي أوقات أخرى حين لا يوجد شيء يُجمّع فوق الأرض، كنت أبحث عن « أعمال صغيرة »، أرتّبُ المِزآب، أو أنظّف القبوَ، أو أشذّب السّياج. وكيفما كان العمل فإنّي كنت رجلَ الساعة. كنت أبيع، في الصيف، شرابَ الليمون على الرصيف أمام منزلنا، وكنت أجمع القناني الفارغة خلف المطبخ، أضعها في عربتي الحمراء لبيعها في متجر. كان يفيدني ما أحصل عليه من مال، أساسا، في شراء صُوَر «البيسبول»، ومجّلات الرياضة، والمجلّات المُصوّرة، وما كان يَفْضُلُ من نقود لا أتردّد في وضعه داخل حقّة النقود التي كان لها شكلُ آلةِ النُّقود. لقد كنت سليلَ والديّ، ولم أشُكّ قطُّ في المبادئ التي كان عالمَهما يقوم عليها. كان المال يتحدث، وفي نطاق الإصغاء إليه والانصياع لحججه، فإننا نتعلّم التحدّث بلغة الحياة .

أتذكّر ذات يوم ألفيتُني فيه حائزاً قطعةً قَذرُها خمسون سِنتا، لا أتذكر كيف حصلت عليها – شيء نادر وقتئذ كاليوم أيضا- فإمّا أنها مُنِحت لي، وإمّا أنني ربحتها، أحتفظ بإحساس حيّ بما كانت تعنيه لي، وبما كانت تجسّده من مبلغ مهمّ. يمكن أن نشتري بها، في ذلك الزمن، عشر عُلب من صور البيسبول، وخمس جرائد مُصوّرة، وعشر عُلب من حلوى الشعير، وخمسين مُلبّسة صلبة، أو إذا شئنا يمكن اقتناء توليفة مُنوّعة من كُلّ هذا. وضعت نصف الدولار في جيبي، وقصدت المتجرَ وأنا أحسُب، بانفعال، كيف سأنفقُ ثروتي الصغيرة. في مكان ما من الطريق، ولأسباب مازلتُ أجهلها، ضاعت القطعة، كنت أدخلُ يدي في جيبي الخلفي حتى أحسّ بها، وذلك للتأكّد فقط – والتّيقُّن مِن أنها تستقرّ فيه – غير أن القطعة النقدية لم تعد بداخله، فهل كان جيبي مثقوبا؟ هل دسستُ القطعةَ، عرَضاً، خارج سروالي في المرّة الأخيرة التي لمستها فيها؟ لا علم لي، كان لي من العمر ستُّ أو سبع سنوات، ومازلت أتذكّر إلى أيّ

مدى كنت تعيسا، أجهدتُ نفسي على اتخاذ بالغ الحيطة، وانتهى بي المطاف إلى فقدان مالي، بالرغم من جميع احتياطاتي، كيف لي أن أجعل شيئا شبيها بهذا يحصل؟ قرّرت، في غياب تفسير منطقي، أنّ الرّبّ قد عاقبني. لم أكن أدري لماذا، بيد أنّي كنت متأكّدا أنّ العليّ القديرَ نفسَه كان قد انتشل القطعةَ من جيبي .

بدأتُ، شيئا فشيئا، أدِيرُ ظهري لوالديّ، لا لأنّ حُبي لهما بدأ يتضاءل، وإنّما لأنّ العالم الذي ينحدران منه لم يعد يشكّل لي مكانا جيدا للعيش. وإذْ بلغتُ العاشرَةَ، أو الحادية عشرة، أو الثانية عشرة، فإني أصبحت، منذ فترة، مهاجرا داخليا، منفيا في منزلي. يمكن إرجاعُ الكثيرِ من هذه التغيّرات إلى سنّ المراهقة، وإلى حدثِ نُضْجي وبداية تفكيري انطلاقا من ذاتي، لكنها ليست السبب كلّه ؛ إنّ قوى أخرى كانت تمارس عليّ تأثيرها في الوقت ذاته، وساهمتْ كلُّ واحدةٍ منها في دفعي إلى النّهج الذي سِرْتُ عليه فيما بعد. فليس ثمة فقط الإحساسُ بالكدر باعتباري أجْبِرْتُ على أن أكون شاهدا على انهيار زواجهما، وليس ثمة فقط الحرمان الذي كابدته وأنا أجد نفسي محشورا في مدينة صغيرة في الضاحية، وليس ثمة فقط المناخ الأمريكي لنهاية الخمسينيات، ولكن إذا جمعنا هذه الحصيلة كلّها، سنحصل على اتهام شديدٍ للنزعة المادية، واعتراضٍ على الاِعتقاد الأورثوذوكسي القائل بأنّ المال فضيلةٌ ينبغي التعلّقُ بها أكثر من أيّ فضيلة أخرى. كان أبواي يُعزّان المالَ ويتعلّقان به، فإلى أين قادهما هذا ؟ لقد بذلا جهودا مُضنية في سبيل اكتسابه، وجعلا منه عقيدةً، وكلّما حلّ المالُ مشكلاً، إلّا وانبثق مكانه مشكلٌ آخرُ. أوجدتِ الرأسماليةُ الأمريكيةُ واحدةً من أكثر الفترات رخاءً و ازدهارا في التاريخ الإنساني. أنتجتْ كمّاً خارقا من السّيارات، والخُضَر المُجمّدة، وأنواعا عجيبة من «الشامبو»، ومع ذلك كان إيزنهاور رئيسا، وحُوّلتِ البلادُ

بزمّتها إلى إشهارٍ ضخم مُتلفز، وإلى مناشدةٍ لا تتوقّف من أجل المزيد من الإقْتِناءِ والتصنيع والإنفاق، وإلى الرّقص حول شجرة الدولار حتّى السقوطِ جثةً هامدةً بسبب جنونِ صِرْفٍ، ومن فرط السّعي إلى الحفاظ على الوتيرة .

لم أتأخّر في تبيّن أني لم أكن الوحيد الذي يفكّر بهذه الطريقة. وقعتُ، مصادفة، وأنا في العاشرة، على عدد من Mad Magazine عند بائع مُلبّسات في إيرفنكتون بنيوجرسي، وأتذكرُ المتعةَ البالغة، والدهشة التي عَرَتْنِي وأنا أقرأ صفحاتها، علّمتني أنّ لي أرواحاً صِنْوَةً في هذا العالم، وأنّ آخرين سبق لهم أن فتحوا الأبواب التي كنت أسعى إلى فتحها. تُوَجّه نحو السُود في ولايات الجنوب قاذفاتٌ حارقةٌ. كان الروس قد أطلقوا أوّل قمر صناعيّ. وطَفِقْتُ أحترس، إذْ لسنا مُلزمين بتصديق كلّ ما يُلقى علينا من عقائد، بل يمكننا مقاومتها، والسخرية منها، وفضحها. لم تكن سلامةُ الحياة الأمريكية واستقامتُها الكئيبةُ سوى خُدعةٍ، وحملةٍ إشهارية مُقْنِعة جزئيًا. في اللحظة التي نبدأ فيها بفحص الوقائع، تَظْهَرُ التناقضاتُ جليّةً، والنفاقاتُ الزاحفةُ باديةً، وتصير طريقةٌ جديدةٌ لمقاربة الأمورِ ممكنةً. حملونا على الإعتقاد بأنّ «الحريةَ والعدالة للجميع»، إلّا أنّ الحرية والعدالة، في الحقيقة، تمّ إفسادهما في الغالب. إنّ اقتفاء أثر المال لا علاقة له بالإنصاف، لكون مُحرّكه يقوم على المبدأ الاجتماعيّ التالي (كُلّ فَرْدٍ لنفسه)، وهذا لتبيان لا إنسانية السوق الأساسية التي تكاد تمتح جميعَ استعاراتها من عالم الحيوان: تتصارع الذئابُ فيما بينها، الثيران والدّببة(9)، جماعة من الناس يحتالون ويُؤْذون بعضهم البعض، البقاء للأقوى. يُقَسِّمُ المالُ العالمَ إلى منتصرين ومنهزمين، إلى أثرياء ومُعْدَمين، إنها معاملة ممتازة للمنتصرين، لكن ماذا عن الأشخاص المنهزمين؟ أعتقد من خلال الحقائق التي كانت تبدو لي، أنّ عليهم، مع الأسف طبعا، أنْ يُقْصوا ويُنْسوا، لكن هذه هي قاعدة اللعب، فإذا

ما شيّدنا عالما بدائيا بما يكفي، ليصبح فيه داروين هو الفيلسوف الرئيس و إيسوب(10) هو الشاعر الأكبر، فماذا ننتظر؟ أليس هذا كلّه شريعةَ غابٍ؟ لا نتوقّع إلّا أنْ نرى فيه هذا الأسد دريفوس وهو يتنزّه وسط وول ستريت(11). هل يمكن أنْ تكون الرسالة أكثر وضوحا ؟ إمّا أنْ تُفترِسوا أو تُفترَسوا. هو ذا قانون الغاب يا رفيقي، وإذا لم تكن مقداما جسورا، فأجدى لك أنْ تنسحبَ من هنا، مادمتَ تستطيع ذلك .

لقد انسحبتُ من هذا العالم قبل الدُّخول إليه. فعندما كنت على مشارف المراهقة، كنت قد قرّرتُ من قبل أنّ عالَم الأغمال ينبغي أن يستغنيَ عنّي. لا شك في أنّني لم أكُن أبدا أسوأ من ذي قبلُ، وأكثر إزعاجا، وحيرةً. أتحرّقُ شوقا إلى نزعة مثالية اكتشفتها حديثا. وكانت مشاقُّ بلوغ الكمال الذي كنت أصبو إليه تجعل منّي طهرانيا صغيرا حديثَ الإنتماء. كنت أُلفي زينةَ الثراءِ الخارجية أمرا مُقرفا، وأزدري مظاهر التّباهي التي يُدخِلها والداي إلى المنزل. لم تكن الحياةُ عادلةً. ولمّا كانت هذه النتيجةُ التي خَلُصتُ إليها في النهاية من اكتشافي الشخصي، فإنّها أثّرت فيّ تأثيرَ وَخيٍ قويّ .وإذ تتالت الشهورُ فقد وجدتُ صُعوبةً، أكثر فأكثر، في التوفيق بين حظّي السعيد والحظ المنكود لآخرين كُثر. فماذا فعلت لأستأهل الرّغدَ والمغانمَ التي غمرتني؟ كان أبي، ببساطة، يملك أسبابَ هذا اليُسر، وإذا كانا يتنازعان، هو وأمّي، أو لا يتنازعان بسبب شؤون المال، فلم يكن هذا إلّا مجرّد أمرٍ ثانويٍّ بالمقارنة مع ما كان لديهم، في البداية، من أموال كانت موضوعَ نزاعهما. كنت أشعر بالعذاب في كلّ مرّة يتعيّن عليّ فيها الصعود إلى سيّارة العائلة، إنّ سيارة بهذا الجلاء لتدعو إلى إعجاب الناس وإكبارهم لرَفاهنا. وإنّي لأتعاطف كلّ التعاطف مع المُضطهدين والمحرومين والمنبوذين الذين نبذهم النظامُ الاجتماعيّ، وإنّ سيّارة كهذه لتملؤني خجلا- ليس بسببي أنا فقط – بل

بسبب عيش المرء في عالم يُبيحُ وجود مثل هذه الأشياء .

لم تكن لأشغالي الأولى أهميةٌ تُذكر، إذ كان والداي مازالا يرعَياني، ولا شيءَ يُرغمُني على أنْ أكفِيَ نفسي بنفسي، أوْ أنْ أساهمَ في نفقات العائلة. لا توجد عليّ، إذا، أيّ ضغوطات، ولا أيّ رهان هامّ. كنت مسرورا بالمال الذي أجنيه، ولم أكن لأنفقه أبدا على ضرورات الحياة، ولم أكن لأهتمّ أبدا بتجهيز المائدة، ولا بتسديد الكراء في موعده. سَيَجِيئُ أوانُ هذه المشاكلِ فيما بعد، وفي انتظارها لم أكن إلّا طالبا يسعى إلى الحصول على جناحين قادرين على أنْ يطيرا به بعيدا.

في السادسة عشرة، قضيتُ شهرين أعملُ نادلا في مُخيّم لِلْعُطلِ شمالَ ولاية نيويورك، وفي الصّيف التالي اشتغلتُ في متجر لآلات التجهيز المنزليّ يملكه خالي مو، في ويستفيلد، بنيوجرسي. كان هذان العَمَلان يتشابهان بحيث إنّ معظم المهامّ كانت بدنيّةً، ولا تتطلّب الكثيرَ من التفكير. فإذا كان حملُ الصُّحون وتنظيفُ الأواني أقلّ أهميةً بقليل من إنزال مُكيّفات أو تفريغ برّادات أسفل شاحنة، فإنّي لا أرغب في أنْ أقيم لهذا العمل وزنا كبيراً .ليس الأمرُ هنا أمرَ مقارنة بين عملين مختلفين، بل بين عملين شبيهين. ومهما كان العمل مُضجراً فإنّني نلتُ، مع ذلك، رضىً هائلاً من هذين العملين، حيث عرفتُ فيهما أشخاصا مُتفرّدين، وشهدت فيهما مفاجآت كثيرةً، وعدّة أفكار جديدة، أتمثّلُ بها حتى لا أشعر بالسّأم، ولم أكن أحسُّ قطُّ بأني أهدِرُ وقتي بغية الحصول على راتب هزيل، إنّما كان الأمر يتعلّق بمعرفة الكائن الذي كُنتُه، وكيف سأعثر على موقع لي في الدنيا .

وحتّى في المخيّم الذي كان فيه جميعُ رُفقائي في العمل تلاميذَ ثانويةٍ في السادسة عشرة أو في السابعة عشرة، فإنّ مساعدي الطّبّاخين كانوا ينحدرون من عوالم مختلفة جذريّا، كانوا أشخاصا ضائعين ومُشرّدين من

الأحياء الوضيعة، وأناسا ذوي ماضٍ مُريبٍ، التقطهم مالكُ المُخيّم من شوارع نيويورك، وأقنعهم بقَبول هذا العمل ذي التعويض الهزيل الذي يقتضي قَضاء شهرين في الهواء الطّلق مع توفير المطعم والمسكن. كان أغلبهم لا يمكث فترة طويلة، يختفون ذات يوم متوجهين صوب المدينة من دون أنْ يُجشّموا أنفسهم عَناءَ التّوديع، وبعد يوم أو يومين يُعَوّضُ الشخصُ الغائبُ بشخص آخر بائسٍ، قلّما يمكث بدوره. أتذكّر واحدا من غاسلي الصحون يُدعى فرانك، إنّه شخص مُغتمٌ وشرش، كان يعاني من خطر إدمانِ الكحول، جمعتنا آصرةُ الصّداقة بطريقة ما، وفي المساء، بعد أنْ نفرَغَ من العملِ، غالبا ما كنّا نجلس للحديث على الدّرج خلف المطبخ. أبانَ فرانك عن شخص كثيرِ الذكاء، جيّدِ المطالعة، كان يعمل وكيلا بالتأمينات في سبرينغفيلد بولاية ماساشوسيت، كان يعيش حياة مواطن مُثمر ومُساهم جيّد قبل أن تَذحَرَه الخمرةُ. أتذكر جيّدا أنّي لم أجسُز على أنْ أسأله عن الخطبِ الذي ألمّ به، ومع ذلك فإنّه روى لي قصّته ذات مساء، مختزلا ما يمكن أن يكون قصة مُعقّدة في تقرير مُختصَر وجافّ من الأحداث التي هزمته. قال لي: في مدّة مقدارها ستّة عشر شهراً، كان الأشخاصُ الذين يُشكلون سَنَداً لي قد رحلوا، كان يتحدّث عنهم بفلسفة ظاهرة تماما كما لو كان يتحدّث عن الغير، غير أنّ فيضاً من المرارة يَغرو صوتَه. تحدّث في البداية عن أبويه، فزوجته، ثمّ ابنيه، حصلث أمراضٌ فحوادثُ ثمّ دفنٌ، ولمّا أودوا جميعُهم، كان وَقْعُ ذلك عليه كما لو أنّ أحشاءه تتناثر. قال لي: (تخلّيتُ عن كلّ شيء، ولم آبهْ لكلّ ما يمكن أنْ يحدث لي بعد. على هذا النحو صرتُ مُشرّداً) .

في العام الموالي تعرّفتُ في ويستفيلد على أشخاص آخرين لا يمكن نسيانُهم، أذكر على سبيل المثال كارمن، القيّمة على الخزانة، الجَذِلَةِ، المفرطة في البدانة التي كانت، آنذاك، المرأة ذات اللحية الوحيدة التي صادفتها (لا

بُدّ أنها تَخلِقُ ذقنها)، و وجو مانسفيلد مُساعد- مُصلح الذي يشكو من فتق مُضاعَف في العمود الفقريّ، بسيّارته المُهدّمة التي دار عدّادُها ثلاثَ دورات، وبلغ رقمُه ثلاثمئة وستين ألف ميل. كان جو يُرسل ابنتيه إلى الإعدادية، وعلاوة على عمله نهارا في متجر التجهيز المنزليّ، كان يعمل ثماني ساعات ليلا بوصفه رئيسَ عُمّال في مخبزة صناعيّة، حيث كان يقرأ صُحُفا مُصوّرة بجانب أحواض كبيرة من العجين خشية ألّا يأخذه النومُ. لم يسبق لي أنْ صادفتُ شخصا مُنهكاً جدّا مثله، وكان أيضا واحدا من أكثر الناس طاقةً وحيويّةً، يصونُ هيئته وهو يدخّن سجائر مُمَنثَلةً، وكان يُفرغ في جوفه من اثنتي عشرة حتّى ستّ عشرة قنينةً من صودا الليمون يوميّاً. لكنّي لم يسبقْ لي أنْ رأيته يضع في فمه قطعة أكْل. كان يقول بأنّه إذا ما أكلَ في المنتصف فإنّ هذا يُرهقه كثيراً فينهَدُّ. ظهرعليه الفتقُ قبل عِدّة سنواتٍ، وقد حصل هذا الأمر ذات يوم كان فيه هو وشخصان آخران يرفعون برّادا ضخما في دَرَج ضيّق؛ فقد الشخصان الآخران السّيطرةَ تاركين جو ينوءُ وحده بالحفل، وبينما كان يُصارع، في هذه اللحظة بالذات، حتّى لا تسحقه مئاتُ الكيلوات التي يزنها البرّادُ، انشقّت الفقرتان من عمودهما. حكى أنّ الأولى بدأت في الإنبثاق، ثمّ تلتها الثانية، ولم يعدْ من اللازم أن يحمل أجساما ثقيلة، غير أنّه كان يهُبُّ لمساعدتنا متى نقلنا جهازا كبيراً، حتّى يطمئنّ على سلامتنا.

كانت جماعتي تشمل شخصاً في عامه التاسع عشر يُدعى ميك، أضهبَ، نحيفا، ضامرا، عصبيّ المزاج، فقد سبّابته، من أكثر الناس الذين صادفتهم ثرثرةً. كنتُ أُشكّلُ بمعيّة ميك فريقاً مُكلّفاً بوضع المُكيّفات، وكنّا نقضي وقتاً كثيراً في الذهاب والإيّاب داخل شاحنة المتجر. لم أكنْ لأمَلّ أبدا سَماعَ فيضِ استعاراته التي كانت غرابتُها في مثل مفاجأتها، ومن الآراء الشّاذة التي تنسربُ من فمه بمجرّد أنْ يفتحه، فإذا ما وجدَ أحدَ زُبنائنا كثيرَ الإدّعاءِ

والغُرور مثلاً، فإنه لا يقول: «هذا شخص مُغفّلٌ» (كما سيقول أغلبُ الناس) ولا «هذا شخص مُعقّدُ النّفس» (كما سيقول البعض)، ولكنّه يقول: «يتصرّفُ هذا الشخصُ كما لوْ أنّ غائطَه بلا رائحة». كان للشّابّ ميك موهبةٌ خاصّةٌ، وقد رأيتُ المنافعَ التي يَجْنيها منها في مناسباتٍ عديدةٍ خلال هذا الصّيف. كنّا باستمرار ندخل منزلا من أجل وضْع مُكيف، أوْ بينما كنّا مُنهمكين في العمل (نكون بصدد إحْكام لوْلب، أوْ قياس اللّبادات التي تسُدُّ شُقوقَ النّوافذ) إذا بفتاة تغشى الغرفةَ، وكان هذا يحدث دائما، كانت الفتاةُ في السابعة عشرة، على الدوام جميلة وبطّالة ومُتراخية. وما إنْ تلوحُ الفتاةُ حتّى يشرع ميك في نَفْث سِحْرِه، كما لو أنّه كان يعلم بغشيانها الغرفةَ، أو كما لو سبق له أنْ كرّر ردودَه، وأحسّ أنّه جاهزٌ في الختام، أمّا أنا، فإنّي، بالعكس، كنتُ دائما مأخوذا على حين غرّة. وبينما كان ميك ينطلق في غزْضه (المؤلّف من مجموع حماقات يتلفّظُ بها، وذَرّ للرّماد في العيون، ووقاحات خالصة)، كنتُ أنا أُواصلُ العمل في صمت. كان ميك يتحدّث، والفتاة تضحك، وخلال دقيقتين صارا صديقين قديمين، وفي اللحظة التي كنت أفرغ فيها من العمل، كانا يتبادلان رقمي هاتفهما ويتواعدان على اللّقاء مساء السبت. كان هذا أمرا عجيبا و جليلا، ووقفتُ فاغر الفم إعجاباً، فلو لم يحدث هذا سوى مرّة أو حتّى مرّتين، فما كنتُ لأرى فيه إلّا حدثا مفاجئاً غير مُتوقّع، بيْدَ أنّ هذا المشهد كان قد حصل مرات عديدة، لا تقلّ عن خمس أو ستّ مرّات في أثناء الصيف. في آخر المطاف، شئتُ أمْ أبيتُ، أدركتُ كلّ الإدراك أنّ ميك كان له شيءٌ أكثرُ من الحظّ، كان شخصا يجترحُ حظّه الخاصّ .

ولجتُ في شهر سبتمبر القسمَ النّهائيّ من المدرسة الثانوية، كانت السنة الأخيرة التي أقضيها في المنزل، وكانت أيضاً السنة الأخيرة لزواج والديّ. كان انفصالُهما بطيءَ الوقوعِ، بحيث إنّي لمّا علمت بالنّبأ، نهاية عطلة رأس

السنة، شعرت بارتياح أكبر، وبحزن أقلّ .

لم يكن زواجُهما منذ البداية متجانسا، وإذا ما ظلّا مجتمعين لفترة طويلة، فإنّما حصل هذا «من أجل الأبناء»، لا من أجلهما هُما. لا أدّعي أيّ جواب، غير أنّ اللحظة الحاسمة كانت تلك التي تكلّف فيها أبي بتموين المنزل، سنتين أو ثلاث قبل الإنفصال. ستظلُّ المعركةُ الكبرى التي شنّها والداي فيما يخصُّ المالَ ثاويةً في ذاكرتي كآخر قظرة من ماءٍ رمزيّ، إنّها الحدثُ الذي هزمهما في النهاية. كانت أُمّي، حقّاً، تُحبُّ أنْ تملأ عربةَ التّسوُّقِ الخاصّة بها في سوبر ماركت الحيّ حتّى ليكادُ يَغسُرُ دفعُها جرّاءَ زِنَتها الثقيلة، وكانت، حقّاً، تُحبُّ شراءَ الحلْوى التي كنّا نطلبها منها، أنا وأُختي، والحق يقال إنّ الطعامَ كان جيّداً في بيتنا، وأنّ الادّخارَ كان وفيراً، غير أنّ من الحقّ القول أيضاً إنّنا كنّا نملكُ أسباب هذا، وبأنّ المبالغ التي كانت تصرفها أُمّي، لم تكن لتُهدّد ميزانيّة العائلة في شيء. ومع ذلك فإنّ أبي كان يخالُها تُسيءُ نفقاتها على المعيشة. وحين يتدخّلُ أخيرا في هذا الشأن، يكون الخطأ قد وقعَ، إذْ يتصرّف بما لا يتصرّفُ به أيُّ رجل نحو زوجته ؛ إنّه يُخرِمُها، في الواقع، من وظيفتها. وابتداءً من هذه اللحظة يصيرُ هو مَنْ يتحمّلُ مسؤوليةَ جلْب ما يؤكلُ إلى المنزل. كان يتوقّف، بعد أوْبته من العمل، في مكان مّا، مرّةً أو مرتين أو ثلاث في الأسبوع (كما لو لم يكفه، منْ قبلُ، ما قام به منْ عمل)، فيملأ خَزْنَةَ سيّارته مؤونةً. عُوّضت اللحومُ الممتازةُ التي كانت أُمي تصطفيها بِقِطَعٍ رخيصة، وعُوّضت المنتوجاتُ الرفيعةُ بمنتوجات لا قيمة لها، لم نعُد نتناولُ اللُّفجَةَ بعد مغادرة المدرسة، ولا أتذكّرُ أنّي سمعتُ أُمّي تتذمّرُ، غير أن هذا الوضع كان، بالنسبة إليها، هزيمةً نكراءَ. لم تعُد مسؤولةً عن منزلها، وكانت دلالةُ امتناعها عن الإحتجاج وعن الذّيادِ عن نفسها، تشي بوضْع حدٍّ لزواجها سلفاً. وما هي إلّا سنواتٌ حتّى أزفتْ النهايةُ. حصل هذا من دون فاجعة،

وبدون تصفية حسابات صارخة، وبدون نَدَمٍ يحدُثُ في الدقائق الأخيرة. تفرّقَ شملُ العائلةِ في هدوء، انتقلت أمّي إلى شقّة في ويكاهيك وهو حيٌ يقع في نيوارك، (حملتنا معها أنا وأختي)، ومكث أبي وحيدا في الدّارة الكبرى التي عاش فيها حتّى آخرِ يومٍ من عمره .

أشعرتني هذه الأحداثُ بسعادة عارمة، وربّما قد يكون هذا الشعورُ ضرباً من الإنحراف، كُنتُ جذلاً لِأنّ الحقيقةَ قد سَطعت في وضح النهارِ، واستقبلتُ هذه الاضطرابات والتّغيّرات الناجمة عنها بوصفها مُحصّلةً لهذه الحقيقة، كان هذا بمثابة تَحرُّر وابتهاج، بكون الصفحة قد طُويت أخيراً، وبكون مرحلة كاملة من حياتي قد اكتملت. وبينما كنتُ أواصلُ المهامّ اللازمة لإتمام دروسي الثانوية، ومُساعدة أمّي على الاستقرار في شقّتها الجديدة، فإنّ فكري كان قد سبق له أنْ تغيّرَ فجأةً، ليس لأنّي سأرحلُ عن المنزل فقط، بل لأنّ المنزل ذاته كان قد توارى. لم يعد ثمّة مكانٌ يمكن العودةُ إليه. لا مكان نؤوبُ إليه سوى المُنتأى الشاسعِ .

لم أتجشّم عناءَ الحُضورِ لحفل نهاية الدروس، وإنّ هذا لإشارةٌ ودليلٌ على الاهتمام القليل الذي أمنَحه لها، ففي الوقت الذي كان فيه رفاقُ الدراسة يتجمّلون بلباسهم وقُبّعاتهم للحصول على ديبلوماتهم، كنتُ أجدُ نفسي، قبلا، في الضّفة الأخرى من الأطلسي. كانت المدرسة قد منحتني إعفاءً خاصّاً، فابتغتُ تذكرةَ الرّحلةِ البحريةِ على متن باخرة خاصّة بالطُّلّاب الذين ينطلقون من نيويورك بدايةَ شهر يونيو (حزيران). خصّصتُ جميع مُدّخراتي لهذا السفر، هدايا أعياد الميلاد، وهديّة نهاية الدروس، وهدايا البازميتسفا (12)، وبعض النقود التي جمعتُها بفضل أعمالي الصيفيّة وعددها ألف وخمس مئة دولار تقريبا. لم أعُد أتذكّرُ المبلغ بالضبط، كانت الفترةُ فترةَ (أوربا بخمسة دولارات في اليوم)، وإذا ما صان المرءُ مالَه، فبوُسعه بلوغُ

الهدفِ حقاً. قضيتُ في باريس ما يزيدُ على الشّهر، حيثُ اكتريتُ فندقا بسبعة فرنكات للّيلة (ما يُعادل دولاراً وأربعين)، سافرتُ إلى إيطاليا واسبانيا وإيرلندا، وفقدت، خلال شهرين ونصف، أكثر من عشَرة كيلوغرامات، وكنتُ أغمَلُ، أينما حلَلْتُ، على الرّواية التي كنتُ قد أنشأتُ أكتبها في الرّبيع. وبفضل الله فُقدَ المخطوطُ، لكنّ القصة التي كنت أحملها هذا الضّيفَ في رأسي، من مكان إلى آخر، ، لم تكنْ لتبدُوَ لي أقلّ واقعيّةً من الأماكن التي اختلفْتُ إليها، أو الأشخاص الذين صادفتهم في الشارع. قُمتُ ببعض اللقاءات الرّائعة بباريس، إلّا أنّني كنتُ وحيداً في مُعظم الأوقات، وأحيانا أُفرِطُ في الوحدة. كنت وحيداً إلى الحدّ الذي أسمع فيه أصواتاً، يعلم اللّه ماذا سيُقَدّرُ الآن، لهذا الفتى في الثامنة عشرةَ. أرى نفسي لُغزاً، مكاناً لِصخبٍ يتعذّرُ تفسيرهُ، مخلوقا لا وزن له، عيناه زائغتان، لا شكّ أنّه مُضطربٌ بعضَ الإضْطِراب، يميلُ إلى الإندفاعات الحميمة اليائسة، وإلى المنعطفات المفاجئة، إلى الإغماء، و إلى الأفكار المُتدفّقة. وإذا ما نُظرَ إليّ من جوانبي الإيجابيّة، فإنّني يمكن أنْ أبدوَ مُنفَتحاً ورائعاً وذا نزعة جماعية تماما، وإلّا فإنّي مُنغلقٌ وصموتٌ قليلُ الحضور، لي الثقة في نفسي، وفي ذات الوقت لا ثقة لي فيها. كُنتُ جسورا وخجولاً، طائشاً وأزعَنَ، مهجوساً ومُندَفِعاً، نُضباً حَيّاً مَيّالاً إلى المُناقضة. كانت حياتي قد بدأتْ للتّوّ، وكنتُ، منذ فترة، أسيرُ في اتجاهين في نفس الوقت. لم أكن أعرف ذلك حتّى الآن، غيرَ أنّي لكي أبلغَ هدفاً ما، كان عليّ أن أبذُلَ جهداً مُضاعَفا مثل أيّ شخصٍ آخر.

كان الأسبوعان الأخيران من السّفر أكثرَ الأسابيع غرابةً، سافرتُ إلى دبلن لأسباب كانت لها علاقة بجيمس جويس، و روايته ***عوليس***. لم يكن لي أيُّ مشروع، وكان هدفي الوحيد أنْ أوجَدَ هناك، وحسبتُ أنّ البقيّةَ ستأتي من تلقاء ذاتها. وجّهني مكتبُ السياحة إلى *مَبيتٍ وإفطارٍ* يقع في دونيبروك،

ويبعُدُ ربع ساعة بالحافلة من وسط المدينة. وماعدا الزّوجين المُسنّين اللّذين يُديران المنزل، وشخصين أو ثلاثة من المقيمين، لم أكن أتحدّثُ، بالفعل، مع أيّ شخص خلال هذا الوقت كلّه، ولم أكن حتّى لأجْرُؤَ على الذهاب إلى حانة. في أثناء أسفاري أصاب ظُفْري غَرَزٌ في مكان مّا، ومهما استطاع هذا الألم أنْ يبدُوَ تافهاً، فإنّه لم يكن كذلك بالنسبة لي أبداً. كنت أشعر كما لو أنّ نصْلَ سكّين ينْغرزُ في إبهام قدمي، أضحى المشيُ عندي عذاباً. ومع ذلك، لم أكن أقوم بشيء آخر غير المشي، منذ بداية الصّباح حتى آخر النهار، وأنا أغرُجُ في **دبلن** بحذائي المشدود جدّاً الذي كان يتآكلُ. اعتقدتُ أنّ بمقدوري التعايشَ مع هذا الألم، ويبدو أنّ الجهدَ الذي كان يتطلّبه هذا الأمر يجعلني مُنْزويا أكثر على نفسي، مُلْغيا كياني بوصفي فردا اجتماعيا. كان عجوزٌ أمريكيٌ مُزعجٌ يقيم باستمرار بالبنسيون- وهو متقاعدٌ في عامه السّبعين ينْحدرُ من ولاية أنديانا أو من إلينوا- و ما إنْ علم بحالتي حتّى طفقَ يزوي لي، مُحاولا إقناعي بكلامه الفارغ، كيف أنّ أمّهُ كانت قد تركث ظُفْراً غارزاً من دون علاج خلال سنوات، وهي تعالجه علاجا معروفا – مُستعملةً غسيلاً مُطهّراً وسدّادات قُطن صغيرة – لكن من دون أنْ تُجابهَ المُشكلَ أبداً بحزْم ؛ وصدّقْ أنّها أُصيبث بالسّرطان في إصبعها الذي انتشرَ في قدمِها فساقِها ثمّ امتدّ إلى سائر جسدها، ليفتك بها في النهاية. كان يتلذّذُ وهو يستفيض في الحديث عن التفاصيل الدقيقة المُزعبة لموْت أمّه (ومن المُسلّم به أنّ حديثه هذا كان لصالحي). وعندما أيْقنَ بمدى إغجابي بحديثه، لم يمَلّ ابداً من مُعاودته، ولنْ أنْكرَ أنّ هذا كان يؤلمني. كان ألمٌ خفيفٌ مُزعجٌ قد تحوّل إلى آفة تُهدّدُ حياتي، وكُلّما أخّرتُ التصرُّفَ أكثر، صارت آفاقي قاتمةً أكثر، وكُلّما كانت الحافلةُ التي تتوجّه بي إلى المدينة، تمُرُّ أمام مَشْفى الميؤوسِ من شفائهم، كنتُ أُشيحُ بنظري، وكنت عاجزا عن إبعاد أحاديث العجوز الأمريكيّ من ذهني. كان القدَرُ يقتفي أثري، وكنتُ أرى نُذُرَ موتٍ وشيكِ الوقوعِ في

كلّ مكان. رافقتني في نُزهاتي، مرّة أو مرّتين، مُمَرّضةً في عامها السادس والعشرين، تنحدر من **تورونتو**، تُسمّى *بات غراي*، كانت قد أقامت بالبنسيون في المساء ذاته الذي حللتُ فيه به ، عشقتُها حدّ الوَلَهِ، غير أن هذا العشقَ لم يكن إلّا حُبّاً عابراً، بلا أمَل، كان قضيّةً خاسرةً منذ البداية، ليس لأنّني كنتُ فقط أضغرَ سنّاً منها بكثير، ولا لأنّني كنتُ شديدَ الخجل بحيث لا أستطيعُ البَوْحَ لها بِمشاعري، بل لأنّها أيضاً كانت كَلِفَةً بشخصٍ إيرلنديٍّ، وكان هو، طبعاً، العِلّةَ الرّئيسَةَ في قدومها إلى **دبلن** . أتذكّرُ ليلةً عادت فيها زهاء الثانية عشرة والنصف ليلاً من لقاء ضمّها بعشيقها. كنتُ مازلتُ مُستيقظاً، مُنكبّاً على تسويد صفحات من روايتي، ولمّا لاح لها الضوءُ أسفلَ بابي، قرعتُ مُستأذنةً للدُّخول، كنتُ مازلتُ في السّرير، وأنا أكتبُ في دفتر موضوع على رُكْبَتيّ. انفجرتْ ضاحكةً وقد تَوَرّدَ خدّاها من الشُّرب، والحماسة تغمُرُها، ومن دون أنْ تتركَ لي الوقتَ للتّفوّه بكلمة، طَوّقَتْ عُنقي بذراعيها وقبّلتني ؛ واعتقدتُ أنّ معجزةَ المُعجزات قد وقعتْ، وأنّ حُلْميَ قد تحقّقَ. لكن، ياحسرةً، لم يكنْ هذا إلّا إخطارا كاذباً، إذْ لم أحظَ حتّى بمُبادلة قُبلتها قبل أنْ تنزاحَ عنّي، لتكشفَ لي أنّ عاشقها الإيرلنديّ كان قد طلب الزواج بها، وبأنّها كانت أسعدَ فتاة في الكون، ولا يمكن إلّا أنْ أغتبط من أجلها، فهذه المرأة الحسناء، العفوية، بشَعَرها القصير، وعينيها البريئتين، الكنديّة ذات الصوت الرّصين، اِضطَفَتْنِي لكي تُشاطرني النّبأ السعيدَ. سأبذلُ قصارى جهدي حتى أباركَ لها، وحتى أدَارِيَ خيبتي بعد نفحةِ الأملِ هذه غيرِ المُبرَّرَةِ تماماً، غير أن قُبلتها كانت قد هدّتني وحطّمتْ عظامي، و كان خير ما بوسعي القيامُ به، هو أنْ أجتنبَ الزّلّةَ السّيئةَ. وإذا ما وُفّقتُ إلى تمالُك نفسي، فلأنّي استحلْتُ إلى كُتلة صمّاءَ، ولا يشُكُّ أحدٌ في أنّ للكتلةِ الصّمّاءِ عاداتٍ حسنةً، لكنّها ليست الرّفيقَ المُرتَجى للاِختفال .

قضيتُ الأيّامَ المتبقيةَ في عُزلة، وصمتٍ، ومشيٍ، كنتُ أقرأ في حديقة فونيكس، وكنت أذرعُ الشاطئَ حتى بُرج *مارسيلو* لجويس(13)، عبرْتُ نهر *الليفي*، وأعذتُ عبوره مرّات عديدة يتعذّر عليّ عَدُّها. وقعتْ في هذه الفترة مُظاهرات حيّ *واتس* (14)Watts ، أتذكّرُ أنّي قرأت عناوين الصُحف في كشك يقع في شارع *أوكونيل*، مثلما أتذكّرُ، أيضا، فتاةً صغيرةً كانت تُغنّي ذات مساء مع جوْق جيشِ الخلاص، فيما كان الرجالُ المُتعَبون يعودون من العمل – تُغنّي أُغنيةً حزينةً نائحةً موضوعها البؤس الإنسانيّ وعجائبُ الرّبّ. ما يزال صوتها يَرنُّ بداخلي، صوتٌ شفّافٌ يُبكي أقسى الرجال ويجعله يجثو على رُكبتيه. والجديرُ بالملاحظة أنْ لا أحدَ يُعيرهُ أدنى اهتمام، تتدافع من حولها حشودُ ساعات الذُروة، وهي مُنتصبةٌ في زاويتها من الشارع، تُغنّي أغنيّتها في هذا النُور الشماليّ الغسقيّ الغريبِ، لا تأبَهُ للعابرين مثلما لا يأبَهون لها، عصفورٌ في أسماله يُرتّلُ أغنيتَهُ المأسويّةَ من أجل القلوب المُحطّمة .

ليست **دبلن** بالمدينة الكبيرة، ولم يستغرق الأمرُ وقتا طويلاً حتى اهتديْتُ إلى أمكنتها. كان للنّزهات التي قُمتُ بها في **دبلن** جانبٌ استحواذيٌّ، ظمَأٌ للتّيه لا يُزوى، للسّير على غير هُدى كشَبَح وسط مجهولين. وفي غضون أسبوعين أضحت الشوارعُ عندي شأناً شخصياً تماماً، خريطةً لمجالي الداخليّ، وبعد هذا، وخلال سنوات، كلّما أغمضْتُ عينيّ قبل النوم، كنتُ أعودُ إلى **دبلن**، وبينما أغفُو و تأخُذُني سِنَةٌ، كنتُ أجدني هناك، أذْرعُ الشّوارعَ ذاتَها، ولا تفسيرَ عندي لهذا الأمر. لقد حدث لي هناك شيءٌ مُهمٌّ، بيْدَ أنّي لم أُفلح أبداً في تحديد ماهيته بدقّة، شيءٌ رهيبٌ لا ريبَ، لقاءٌ بأغوار الذات فاتنٌ، كما لو أنّني في عُزلة تلك الأيّام جُسْتُ الغياهبَ، ورأيتُ نفسي فيها للمرّة الأولى .

التحقتُ بكلية كولومبيا شهر سبتمبر، وخلال أربع سنوات، كانت مسألةُ المالِ أقلّ ما يشغلُ بالي، زاولتُ أعمالا مُتنوعةً بطريقة متقطّعة، وفي أثناء

هذه السنوات لم أكن مَعنياً برسم خُطَط، ولا بتهيئة مُستقبلي المالي. كنتُ مغنياً بالكُتُب، وبالحزب الدائرة في الفيتنام، وبالجهد الذي أبذله في تصَوّر طريقة إنجاز ما كنت أنوي إنجازه. وإذا ما كنت فكّرتُ أقلّ في كَسب قوتي، فإنّما كان ذلك بطريقة عابرة وعارضة. كنتُ، على الأكثر، أراني أخيا نوعا من الحياة الهامشيّة وأنا ألتقطُ الفتاتَ عند انتهاء العمل، أعيشُ عيشةَ شاعر مَسلوب .

ومع ذلك كانت الأعمالُ التي زاولتُها، عندما كنت طالبا، مفيدةً، ولم تكن كذلك إلّا لكونها علّمتني أنّ اختياري للأعمال اليدويّة بالمقارنة مع الأعمال الإدارية، كان اختيارا مُبرّراً. في غُضون سنتي الجامعيّة الثانية، مثلاً، اشتغلتُ في قسم شركة إشهاريّة قصد تحرير نصوص لأفلام تربويّة. كنتُ قد عانيتُ خلال طفولتي من تخدير وإفساد «المُلحقات السمعيّة البصريّة»، وأتذكّرُ ما كانت تسبّبه لي ولرفاقي، على الدّوام، من غَمّ كبير. كانت مغادرة الفصل والجلوسُ في الظلام لعشرين دقيقةً (كما لو كنّا نذهب إلى السينما) متعةً دائمةً، بيدَ أنّ الصُّورَ المتقطّعة على الشّاشَة، والصّوتَ الرّتيبَ للرّاوي والصّوتَ المتقطّع الذي كان يُخبر أُستاذَنا متى يضغطُ على الزّرّ للانتقال إلى الصورة الموالية، شزعان ما كانت تتغلّبُ علينا. قبل وقت طويل كانت الحُجرةُ تَطنُّ بالأحاديث المهموسة، وبالضحك العصبيّ المتواصل الذي يصعُبُ كَبحُهُ، وماهي إلّا دقيقة أو دقيقتان حتّى تبدأ كُرَيّاتُ الورق المفضوغ في الطّيران .

لم أكن أحبّذُ فرضَ عمل مُملّ كهذا على جيل جديد من الأطفال، لكنّي قلت لنفسي بما أنّي أبذُلُ ما بوسعي فسأرى حقّاً ما إذا كنت أستطيع أنْ أبعثَ فيه قليلاً من الرّوح. أمرني المديرُ، في اليوم الأوّل، بمشاهدة بعض الأفلام القديمة للشّركة كيما أتعوّد على صورتها. اختَرتُ منها واحداً مُصادفةً، وكان

عنوانه « حُكومة» أو «مدخل إلى الحكومة»، أو شيء من هذا القبيل. وضَعَ الرّجلُ المكبّ على آلة، وتركني أشاهدُ الفيلمَ وحيداً. وقَفتُ، بعد صورة أو صورتين، على حديث أزعجني ؛ يقول النّصُ إنّ قدماء اليونان ابتكروا الديموقراطيّةَ، تُصاحبه لوحةٌ تُجسّدُ حلقة من الرّجال المُلتحين يرتدون جُبّات، كان الأمرُ حسناً جدّاً، غير أنّ النصّ تابع قائلا («صوتٌ»: ظهور مشهد للكابيتول): إنّ أمريكا ديموقراطيةٌ. أوقَفتُ الآلةَ، واجتَزتُ الرواق، ثمّ طرقتُ بابَ المدير، وأنا أُعلنُ أنّ ثمّةَ خطأً في هذا الفيلم، ليست أمريكا ديموقراطيةً، بل إنها جمهوريّةٌ، وثمّةَ بَونٌ شاسعٌ بينهما .

نظر إليّ كما لو كنتُ قد جئتُ لأُخبرَهُ بأنّي حفيدُ *ستالين*، قال لي بأنّ الفيلم مُوَجّهٌ إلى أطفال صغار، وليس إلى طلبة جامعيّين، لا يَحقُّ لنا الخوضُ في التفاصيل .

عَقّبتُ بأنّ هذا ليس تفصيلاً، بل هو تمييزٌ مُهمٌّ. في ديموقراطيّة حقّة يُصَوّتُ كلُّ شخص قبل كلّ قرار، إنّنا ننتخبُ مُمثّلين يقومون بهذا من أجلنا، ولا أقول بأنّ هذا الأمر سيّءٌ، قد تكون الديموقراطيةُ الحقّةُ خطيرةً، ينبغي أنْ تُصانَ حقوقُ الأقليّات، وهذا ما تفعله الجمهوريّة من أجلنا، وكلُّ هذا تمّ شرحُهُ في الوثيقة المُؤسّسة للدُستور الأمريكيّ، على الحكومةِ أنْ تحذَرَ من استبداد الأغلبيّة، وعلى الأطفال أنْ يعرفوا هذا .

احتَدمَ النقاشُ، وكنتُ قد عقدتُ العزْمَ على فرض وجهة نظري، وعلى البَرهنة على أنّ نصّ الشّريط كان خاطئاً، لكنّه أبى أنْ يتقبّلَ الأمرَ، لقد سَخرَ منّي، واعتبرني شخصاً مُزعجاً منذ اللّحظة التي تفوّهتُ فيها، وقُضيَ الأمرُ، إذ ألفَيتُني مطروداً بعد عشرين دقيقةً من شروعي في العمل .

في الصّيف الذي كان قد أعقبَ سَنتي الأولى بجامعة كولومبيا، كنت أفضّلُ

كثيراً عملي بُستانياً في فندق كومودور الذي يقعُ في جبال الكاتسكيل. تمّ تشغيلي بواسطة وكالة التشغيل لولاية نيويورك بمانهاتن، وهي مكتبٌ حكوميّ ضخمٌ يجدُ العملَ لغير المُؤهّلين، ولسيّئي الحظّ ولحُثالة المجتمع، ومَهما كان هذا العملُ مُتواضعاً، وأجرُهُ قليلاً، فإنّه يُوفّرُ،على الأقلّ، فُرصةً للهجرة من المدينة، والاحتماء من القيظ. كنتُ قد وَقّعتُ العقدَ أنا وصديقي بوب بيرلمان في الوقت ذاته، و تمّ إيفادُنا، في الغداة، إلى مدينة *مونتسيلو* بولاية نيويورك عبر شركة الحافلات للخطوط القصيرة، وهي المُنظمة ذاتها التي رأيتها تعمل قبل ثلاث سنوات، وكان رُفقاؤنا في الرحلة هم المتشرّدين والمتضوّرين جوعاً، الذين يشبهون أولئك الذين عاشرتهم عندما اشتغلتُ نادلاً في مُخيّم للعُطل. وكان الفرقُ الوحيدُ يكمنُ في أنّي أصبحتُ منذ الآن واحداً منهم، خُصِمَ ثمنُ الرّحلة، وأُتعابُ مكتب التشغيل أيضا من الأجرة الأولى، ولن يخصُلَ المرءُ على فلْس واحد إذا لم يمكث في مكان العمل لبعض الوقت، ثمّة أشخاصٌ كان العمل لا يستهويهم، فكانوا ينصرفُون خلال أيّام قليلة، وكانوا يُلفونَ أنفسهم بلا شيء، بجُيوبٍ فارغةٍ، وعلى مبعُدة مئة ميل من ذويهم، يَنتابُهم الشّعورُ بأنّهم لم يَجنوا شيئا من هذا العمل، وإنّما خُدعوا .

كان *الكومودور* بنايةً صغيرةً بئيسةً من سلسلة بورشت، لا يقوى على المنافسة المحليّة *للكونكورد* و *لكروسنجر*، ترينُ عليه نوستالجيا حزينةٌ، وذكرى الأيّام الحافلة بالسّعادة. وصلنا أنا و بوب قبل أسابيع عديدة من حلول فصل الصيف، وكُلّفنا بجعْل الحدائق قادرة على استقبال وفود الزائرين في شهر يوليوز وغشت. ثمّة مروجٌ للقَصّ، وأشجارٌ للتّشذيب، وبقايا للجفع، وجُذران للطّلاء، وناموسيات للإصلاح. تمّ إيواؤنا في كوخ صغير عبارة عن مسكن محطّم، أمتاره المُرَبّعةُ أقلُّ من أمتار غرفة شاطئيّة،

ملأنا، تدريجيا، حيطانَ غرفتنا بالقصائد قوامها أبياتٌ رديئة، ومقاطعُ شعريّةٌ خليعةٌ، ورباعيّاتٌ مُزخرفةٌ، نضحك كمجنونين ونحن نشرب دفعةً واحدةً عدداً لا يُحصى من قناني *البودفايزر*، كنّا نحتسي البيرة لأنّ ليس ثمّة شيءٌ فعله أفضل من هذا الشّراب، كما أنّ الرغوةَ صارت أيضا عُنصرا ضروريا لنظامنا الغذائيّ، وذلك بالنظر إلى نوع الطعام الذي كان يُقَدَّمُ لنا. كنّا في هذه الفترة نُقاربُ اثنيْ عشَر عاملا في عين المكان، وكان الطّعامُ الذي يُقَدَمُ لنا سيّئاً، كانت قائمةُ الطّعام هي نفسها في كلّ وجبة، غداءً وعَشاءً: (طبقٌ مُعلّبٌ من الدّجاج والخُضر بالمكرونة). لقد مضت ثلاثون عاماً على هذا، ومازلت أوثِرُ الامتناعَ عن الأكل على أنْ أضَعَ في فمي قِطعةً من هذا الطّعام .

لاشيء من هذا يستحقُّ الذّكرَ لولا وجودُ *كاسي* و *تيدي*، الرّجلين المُكلّفين بالصّيانة الداخليّة للفندق. كان *كاسي* و *تيدي* صديقين لعشر سنوات ونيّف، وكانا صديقين متلازمين، فريقا لا تُفصمُ عُراهُ، وحدةً جدليّةً، وكلُّ ما كانا يقومان به، يقومان به بوصفهما شريكين، يتنقّلان من مكان إلى آخر، ومن عمل إلى آخر كما لو كانا ذاتاً واحدةً. كانا شريكين متواطئين إلى الأبد، إصبعين ليد واحدة، رفيقين ليسا مِثليّين، ولم يُغْر الواحدُ منهما الآخرَ مُطلقاً بالجنس. إنّهما رفيقان. كان *كاسي* و *تيدي* نموذجين مألوفين لمُتسكّعين أمريكيين، كانا سِككيّين من زماننا يبدُوان طالعين مباشرةً من رواية لشتاينبك، ومع ذلك كانا طريفين كلّ الطرافة، وظريفين كُلّ الظُّرف، ومُفعَمين بالنّشوة العارمة، ذوا مِزاج رائقٍ بحيثُ إنّ رُفْقَتهما لا سبيل إلى مُغالبتِها، كانا يُذكّراني، أحياناً، بثُنائيّ كوميديّ مَنْسيّ، وبمُهرّجين من زمن مسرح المُنوّعات والسينما الصامتة. تحيا فيهما روح *لوريل* و*هاردي*، بيدَ أنّ هذين الأخيرين(*كاسي* و *تيدي*)، لم يكونا خاضعين لإكْراهات صناعةِ الإستغراضِ المسرحيّ، كانا مُنتمين للعالم الواقعيّ، وكانا يُمثّلان في مسرح الحياة .

كان *كاسي* يُجسّدُ النّموذجَ الجادّ، و *تيدي* النّموذج النّزويّ، كان *كاسي* نحيفا، و *تيدي* بديناً، كان *كاسي* أبيَضَ، و *تيدي* أسوَدَ، كانا يذهبان سويّةً إلى المدينة يوم عُطلتهما، يَتمَلان ثُمّ يعودان لتناول عشائهما (طبق الدجاج والخضر بالمكرونة)، وهما مزهُوان بتسريحتيهما المتشابهتين، أو قميصيهما المُتطابقين. وكان رأيُهما أنْ يُنفقا دائماً جميعَ مالِهما في نُزهة واحدة مجنونة، وأنْ يُنفقاه، بالضبط، بالطريقة ذاتها، بالتّساوي، فلساً فلساً. تظلُّ القُفصانُ في ذاكرتي حدثا صارخاً بوجه خاصّ. وإذ يضحكان كمجنونين فإنّهما يبدُوان في بذلتيهما المتشابهتين، يُسرفان في الضحك، وينعتُ الواحدُ منهما الآخرَ بالإصبع، كما لو جاءا ليُؤدّيا للنّاس المُزحةَ الأكثرَ إثارةً. كانت القُفصانُ الأكثر فقاعةً، والأشدّ شناعةً التي يمكن تصوُّرُها، كانت إهانةً مُضاعفةً للذّوق الرّفيع، كان *كاسي* و *تيدي*، وهما مُنتَشيان بهذا المرح الصّاخب، يحملاننا ، أنا و بوب ، على الإعجاب بهما. بعد ذلك يذلُفُ *تيدي* إلى صالة الرّقص الفارغة في الدور الأرضيّ من البناية الرّئيسة، يجلس قبالة البيانو ويمضي في عَزْف ما كان يُسمّيه *كونشرتو خمر بورتو*، خلال ساعة ونصف كانت هذه الألحان المُزتجلةُ المُتنافرةُ تبعثُ في الصّالة عاصفةً من الحماسة والصّخب. كان نيدي رجلاً ذا مواهب عديدةٌ، ليست الموسيقى في عِدَادِها. ومع ذلك كان يَثوي هناك سعيداً كمَلِكٍ في خريفه، مايسترو مهووس في وئامٍ مع نفسه ومع العالم .

روى لي بأنّ ولادته كانت بجامايكا، وكان قد عمل في البحريّة البريطانيّة إبّانَ الحرب العالمية الثانية. وفي لحظة مَا كانت سفينتُه قد غرقتْ جرّاء نسيفة، ولستُ أدري كم انصرم من الوقت قبل ان يُغثَرَ عليها (بضع دقائق! بضع ساعات !أيّام عدّة !)، لكنّ سفينةً أمريكيةً هي التي انتشلتها على أيّة حال. ومنذ ذلك الوقت كان قد التحقَ بالبحريّة الأمريكيّة على حدّ قوله،

وصار مُواطناً أمريكيا حين وضعت الحربُ أوزارَها. إلّا أنّ هذا الحكيَ كان يبدو لي واهِياً، بيدَ أنّ هذه هي الحكاية التي كان يرويها، ومَنْ أنا لأشُكَّ فيها ؟ ومنذ عشرين عاماً يبدو أنّه قام بما يستطيع امرؤٌ القيامَ به؛ زاول كلّ أنواع المهن، فاشتغل بائعاً، وفنّانَ شارعٍ في قرية غرينيتش، وساقياً في حانة، وسِكّيرَ الأحياءِ الحقيرة، وليستْ لهذه الأعمال جمِيعها أهمّيةٌ في نظره. كُلُّ طُرفَة كان يرويها، كان يصاحبُها ضحكٌ مُدَوٍّ صاخبٌ، ويبدو أنّ هذا الضحكَ كان تحِيّةً دائمةً لِهُزْأته الشخصيّة، علامةً تُذكّرُ بأنّ مقصده الوحيدَ الذي يتوخّاه من هذه الحكايات، هو أن يهْزَأ بنفسه. كان يعْرِضُ مشاهدَه في الأماكن العامّة، يتصرّفُ كولَدٍ سيّءِ التربيّة، ويُنفقُ وقتَه في استفزازِ الناس. يمكنُ أنْ تكونَ صُحبتُه أمراً مُضنِياً، لكنْ لطريقته في إثارة البلبلة جانباً رائعاً، كانت له خاصيّةٌ شبهُ علميّةٍ، كما لو كان يقوم بتجاربَ، كما لو كان يَرُجُّ الأشياءَ ليرى، من أجل مُتعةٍ صرْفٍ، أيْن ستوضَع عندما يكسوها الغبارُ. كان نيدي فوضَوياً، وبما أنّ الطّموح كان يُعوزُه أيضا، فلأنّه لا يرغبُ في ما يرغبُ الآخرون فيه. إنّه لم يكن أبداً في حاجةٍ إلى مُراعاة أصول أخرى، إلّا مُراعاته لأصوله الخاصّة به .

لا علم عندي، لا بظروف، ولا بمكان لقائه بكاسي، كان شريكُه شخصاً أقلَّ توَهُّجاً منه، وما أتذكّرُه جيّداً عنه أنّه كان يَعْدَمُ حاسّة الذّوق والشمّ، فقبل سنواتٍ خَلَت، ألفَى نفسه يتشاجرُ في مَحلٍّ تجاريّ، فتلقّى ضرْبةً في رأسه، ومنذ ذلك الحين فقدَ وظائفه الشميّةَ، ما نجم عنه أنّ كُلّ شيء عنده كان له طَعْمُ الكارتون، فلا يستطيعُ تمييزَ ما يأكله وهو معصوب العينين، أكان طبقَ الدّجاجِ والخضرِ بالمكرونة أم كافياراً، بطاطسَ أمْ حلوى، لا يشعر بأيّ فرق بينها، وعدا هذه الآفة كان كاسي يبدو

في أحسن حالٍ، ذا وزنٍ معتدل مُؤاتٍ، بلكنته الإيرلنديّة من نيويورك

يُصَوّرانه في صورة فتى قادمٍ من حضيض المجتمع. تتحدّدُ مهمته في الضّحك عند سماع مُزحات *تيدي*، ومُراقبة زميله كي لا يَغْلُوَ فيُزَجَّ به في السّجن. وكاد *تيدي* يجدُ نفسه في السّجن ذات مساءٍ من هذا الصّيفِ، عندما كان، وهو واقف في مطعم *مونتيسيلو*، يخُضُّ الوجبةَ صارخاً: لن أتناولَ هذا الأكلَ المُعَدَّ لكلبٍ يابانيٍّ، غير أنّ *كاسي* أخْمَدَ غضبَه، وتمكّنّا جميعاً من إنهاء طعامنا، ومن دون أنْ نتوقّفَ طويلاً عند هذه النقطة، أفترِضُ أنّ من التافل القول بأنّنا لم نكن في مطعمٍ يابانيٍّ .

وكيفما كانت معاييرُ التّقييم موضوعيّةً، فقد كان *كاسي* و *تيدي* شخصين بلا منفعة، أبلَهين مُتلازمين غريبين، إلّا أنهما تركا فيّ انطباعاً لا يُنسى، ولمْ أصادفْ البتّة مثيلَيهما. وفي اعتقادي أنّ بسببِ هذا ذهبتُ للعمل في أماكنَ شبيهةٍ بفندق كومودور، لا لأنّني كنتُ أرغبُ في أنْ أخوضَ فيها تجربةً ناجحةً، بلْ لأنّ هذه الجولاتِ القصيرةَ في المسارب والثّقوب الضائعةِ لهذا العالم، لا تبخلُ عليّ أبداً باكتشافٍ هامٍّ، ولا باكتِمالِ تزبيتي على نحوٍ غيرِ مُنتظرٍ، وإنّ *كاسي* و *تيدي* لَيَعُدّان مثالاً مُمتازاً في هذا الشّأنِ. حين صادفتُهما كان لي من العُمرِ تسعةَ عشرَ عاماً، ومازالت مآثرُهما وسلوكُهما لهذا الصّيفِ تُغذّي خيالي .

تسجّلتُ عام 1967 في Junior Year Abroad Program لجامعة كولومبيا، بباريس. إنّ الأسابيع التي كنت أمضيتها فيها عند نهاية دروسي الثانوية، جعلتني أشتهي هذه المدينة، فاغتنمتُ فرصةَ العودة إليها .

كانت باريس دائماً هي باريس، بيْد أنّي لم أغْدُ أبداً ذلك الشّخصَ الذي كنته خلال مُقامي الأول بها .

قضيتُ عامين وأنا أحيا في جنون القراءات، وكانت عوالمُ جديدة قد

انسكبَتْ في رأسي، وكانت نقلاتٌ قادرة على تغييرِ الحياة قد أعادتْ تشكيلَ دمي. إنّ كلّ ما يسترعي انتباهي حتى الآن، تقريباً، في مجال الأدب والفلسفة قد اكتشفته في غُضون هاتين السنتين. وإذا ما تأمّلتُ اليوم هذه الفترةَ، فإنّه يكاد يستحيلُ عليّ تمثُّلُ عدد الكتب التي قرأتُ، لقد التهمتها بكمّياتٍ مُذهلةٍ، قرأتُ دُوَلاً وقارّاتٍ كاملةً من الكتب، ولمْ أشعُرْ بالملل منها أبداً. قرأت مؤلّفين من العصر الإليزابيثي، وفلاسفة ما قبل سُقراط وروائيين روساً، وشُعراء سورّياليين. كنت أقرأ كما لو أن ذهني أخذته الحماسةُ والشّدّةُ، كما لو أنّ بقائي نفسَه كان على المِحكّ، عملٌ أدبيٌ يُفضي إلى آخر، وفكرةٌ تؤدّي إلى أخرى، ومن شهرٍ لآخر كنتُ أغيّر في كلّ لحظةٍ الأفكارَ.

انكشفَ المُقرّرُ فكان مُخيّباً للآمالِ كلّ الخيبة، كان مُرادي من الذّهاب إلى باريس تحقيقَ كلّ أنواع المشاريع الكبيرةِ، اعتقدتُ أنّ بوسعي حُضورَ المحاضرات والدّروس التي كنت أرغبُ فيها، (على سبيل المثال، رولان بارث في الكوليج دو فرانس)، غير أنّي لمّا شرعْتُ في مناقشة هذه الإمكانات مع مدير البرنامج، قال لي بمنتهى الصّراحة: لا تعُدْ إلى هذا الأمر، فهو خارجٌ عن الموضوع، يُنتظَرُ منكم أنْ تتعلّموا اللّغة الفرنسيةَ، أنْ تجتازوا امتحاناتٍ معيّنةً، أنْ تحصلوا على عددٍ من الدّبلومات، بأنْ تحضُروا مقداراً من ساعات درْس كذا، ومقداراً من درس كذا آخر. كان الأمرُ قد بدا لي عبثياً، إنّه بمثابة جدولٍ زمنيٍ حقيقيٍ للأطفالِ. وقلتُ له بأنّي قد تجاوزتُ كلّ هذا، فأنا أتحدّثُ الفرنسيةَ سلفاً، فلماذا أعودُ القهقرى؟ وردّ عليّ بأنّ القانون هو القانون .

كان يبدو شديدَ العِنادِ، بالِغَ الزّرايةِ بي، مُتأهّباً كُلَّ التأهُّبِ لاعتبار حماستي نوْعاً من الغَطرَسةِ، والظّنّ بأنّي كنت أرغبُ في إهانته، إلى حدّ أنّ المواجهةَ حدثتْ على الفور. لمْ أكنْ أضمِرُ له شيئا بوصفه فرداً، غير أنّه كان يبدو عازماً على تحويلِ خلافنا إلى صراعٍ شخصِيٍ. كان يَنوي إذلالي واستخدامَ سلْطته

لِسَخقي، وكلّما كانت المناقشةُ تطولُ، كنتُ أشعُرُ أني أضمُدُ في وجههِ. وأخيراً أزفَت اللحظةُ التي سَيُفتُ فيها هذه المناقشة. قلتُ في نفسي حسناً، إذا كان الأمر هكذا، سأهجر، سأهجُرُ البرنامجَ، سأهجُر المؤسّسَةَ، سأهجُرُ كُلَّ هذا الشيء السّيِّءِ، عند ذلك قفتُ من مقعدي، وصافحته، ثمّ غادرتُ مكتبه .

كان التصرُّفُ على هذا النّحو جنوناً، إنّ احتمالَ عدم حُصولي على الإجازة لا يُقلِقُني البتّةَ، بيدَ أنّ إدارةَ ظهري لِلمؤسّسةِ كان يعني أنّي فقدتُ، تِلقائيا، مُدّة التوقُّف الخاصة بي بوصفي طالباً، وبينما كان يزدادُ إرسالُ الجنود إلى الفيتنام بأحجامٍ مُخيفةٍ، كنت قد وضعتُ نفسي، فجأةً، في حالة تعبئةٍ، لن يكُون الأمرُ سيئا للغاية لو أنّي كنتُ من أنصار الحرب، لكنّني لم أكُن من أنصارها، كنتُ ضدّ المشاركة في الحرب، ولاشيء يُجبِرُني أبداً على خوض غمارها، وإذا ما سعوا إلى إلحاقي بالجيش، كنتُ سأرفضُ الإلتحاقَ به، وإذا ما أسِرتُ فسأقتادُ إلى السّجن، كان قراراً حاسماً، وحلاً جازماً، راسخاً، لن أشاركَ في الحرب، حتّى لو اقتضى هذا خرابَ حياتي، فإنّي لن أشاركَ .

ومع ذلك فإنّي تركتُ المؤسّسَةَ تماماً. لم أشعُر بأيّ قلقٍ، ولا بأدنى ارتجافِ جرّاء حَيرَةٍ أو تَرَدُّدٍ. إنسحبتُ وأنا مُستعدٌ لجميع الاحتمالات، كنتُ أتوقّعُ أنْ يكونَ السّقوطُ مريعاً، غير أنّ شيئاً من هذا لم يحدث، بل على العكس من ذلك، وجدتُ نفسي أحلّق كريشةٍ في الهواء، وخلال بضعة أشهُرٍ شعرتُ بأنّي أكثرُ تحرُّراً وحُبوراً من ذي قبلُ .

كنت أقيمُ في فندق صغيرٍ بشارع *كليمونت*، يوجد، بالضبط، قبالةَ سوق سان جرمان، وهو سوق مُغطّى مهجورٌ منذ زمن طويل. إنه منشأةٌ رخيصةٌ إلّا أنها نظيفة، أزقى بدرجات كثيرة من الفندق القذر الذي سكنتُه لعامين على الأصحّ. وكان الزوجان الشّابّان المُشرفان عليه، يُظهران لي لُطفاً شديداً. كان الرجلُ يُدعى *غاستون* (قصير وسمين، ذو شارب صغير، قميصه أبيض،

ووزرَةٌ سوداء لا تبرحُه). كان يُنفقُ جُلّ وقته في خدمة الزبائن في مقهى الدور الأرضيّ، عبارة عن ثُقبٍ صغير جدا، يُشكّلُ غرفةً يلتقي فيها أناسُ الحيّ، ومكتبَ استقبالٍ للفندق في آنٍ واحدٍ. كان هذا هو المكان الذي كنت أحتسي فيه قهوةَ الصّباح، وأطالعُ فيه الصُّحفَ، وصرتُ فيه هاوِياً للبليار الكهربائيّ. تمشّيتُ كثيراً في هذه الأشهر كما كنتُ أتمشّى في **دبلن**، لكنّني أمضيتُ ساعاتٍ لا تُحصى في الأعلى، في غُرفتي، أقرأُ وأكتبُ. ولقد ضاع القسمُ الأكبرُ من العمل الذي أنجزته وقتئذٍ، غير أنّي أتذكّر أني كنت أكتب قصائدَ وأترجمها، كما ألّفتُ سيناريو لفيلم صامتٍ، طويلاً مُتعباً من فرط تعقُّدِه (يتألّفُ من جُزأين، الأول على طريقة الممثّل بوستركيتن (15)، والثاني عبارة عن رقصةٍ كلاكيت فلسفيةٍ(16)). وبالإضافة إلى جميع قراءاتي لهاتين السّنتين المنصرمتين، فقد كنت أختلفُ كثيراً إلى السّينما، في *طاليا* و *نيويوركر* على الخصوص، اللتين كانتا توجدان في *برودواي* على مقربة كافية من مورنينغ *سايد هايت* حتى يُستطاعَ قصدُها مشياً على الأقدام. كانت *طاليا* تُوفّرُ برنامجاً مُزدَوَجاً ومختلفاً كلّ يومٍ، ولم تكن تعريفةُ الطُّلّاب سوى خمسين *سنتا*، وكنت قد عزمتُ على أنّ أُمضي فيها من الوقت مقدارَ ما كنت أمضيه في قاعات الدّرس بجامعة كولومبيا، واكتشفتُ أنّ باريس كانت أفضلَ أيضاً من نيويورك في مجال السينما. صرتُ معتاداً على الخزانة السينمائيّة اعتيادي على صالات ريبرتوار الضّفة اليُسرى، وبعد مُضِي بعض الوقت اجتاحني هذا الشّغَفُ إلى الحدّ الذي بدأتُ تداعبني فيه فكرةُ أنْ أصيرَ مُخرجاً، بلْ إنّني انشَغلَفتُ عن إمكانية التحاقي بمعهد الدّراسات السينمائية العُليا، لكنّ وثائق التّسجيل بدت كثيفةً ومُثبّطَةً جدّاً، بحيث إنّي لم أتجشّمْ عناءَ مَلْئِها أبداً.

عندما لم أكنْ في غُرفتي، ولا أجلس في صالةٍ سينمائيّة، كنت أتسكّعُ في

المكتبات، آكلُ في مطاعمَ رخيصةٍ، و ألتقي بجميع أصناف البشر، عانيتُ من داءِ السّيلان(17) (المرير جدًا). وفي الجملة كنت مبتهجاً بالخيار الذي اخترته، سيكون من الصعب المبالغةُ في تذكّر سعادتي خلال هذه الأشهر، لقد كنت أشعُرُ أنّي نشيطٌ، وفي وئامٍ مع نفسي، ومع أنّي واعٍ بأنّ جنّتي الصغيرةَ ينبغي أنّ تكونَ لها نهايةٌ، فإنّي كنت أبذُلُ ما بوسعي من أجل أنْ تدومَ، ومن أجل تأجيلِ اللّحظة المحتومة إلى أطول وقتٍ مُمكنٍ .

أفلحتُ في البقاء حتّى منتصف نوفمبر، ولمّا عُدتُ إلى نيويورك كان قد انصرم أسدُس الخريف في كولومبيا. لقد ظننتُ بأنّي عَدِمتُ حُظوظي في الرُّجوع إلى الجامعة بوصفي طالباً، غير أنّي عاهدتُ والديّ بأن أعودَ إلى مناقشتها مع الجامعة، لقد اهتمّا بي على كلّ حال، وشعُرتُ أنّني مدينٌ لهما بذلك على الأقلّ. أمّا وقد أُنجز هذا العملُ المرهقُ فإنّي كنت قد نويتُ السفر من جديد إلى باريس والشُّروعَ في البحث عن عملٍ فيها. قلتُ في نفسي: شحقاً للتّجنيدِ، وإذا ما كنت سأُصبحُ «هارباً من القانون»، فليَكُنْ هذا .

لم يحضُلْ من توقّعاتي شيءٌ. ضربتُ موعداً للقاء أحدِ عُمداء كولومبيا، لقد بدا الرّجلُ شديدَ اللُّطفِ، مُناصراً لوجهة نظري كُلّ المُناصرة إلى الحدّ الذي كشف فيه سريعاً عن مُدافعتي في هذا الشّأنِ. قال لي: لا، إنّك لا تتصرّفُ تصرُّفَ أبله، وكان يتفهّمُ ما كنتُ أقوم به، ويُعجَبُ بعقليتي المُغامِرةِ. وتابَع قائلا: من جهة أخرى هناك قضيّة الحرب، إنّ جامعة كولومبيا لا ترغبُ في أنْ تراني جنديّاً إذا كان هذا الأمر ضدّ مشيئتي، كما لا ينبَغي أنّ يُزَجّ بي أيضاً في السّجن بسببِ رفضي أنّ أكون جُندياً، فإذا ما كنت أرومُ استئنافَ الدّراسة فعلى الرّحب والسّعة، إذ بمقدوري أنّ أعاودَ الحضورَ للدروس منذ الغد، وسيكون الأمر بصفةٍ رسميّةٍ كما لو أنّني لم أتغيّبْ أبداً يوما واحداً .

كيف أتحدّثُ مع رجل كهذا؟ فهو ليس موظفاً يكتفي بأداء عمله، كان

يتكلّم بهدوء بالغٍ، ومن أجل ذلك كان يُصغي بانتباه شديدٍ إلى ما كنتُ أقوله، وسرعان ما أدركتُ أنّ لاشيء يحدوه سوى الرّغبةِ الصّادقةِ في منْع فتىً في الحادية والعشرين من ارتكاب حماقةٍ، وفي إقْناعِ إنسانٍ بأنّ لا يجعلَ حياته تذهبُ سُدىً بلا داعٍ. وقد يجيء يومٌ يحدثُ فيه هذا، أليس كذلك؟ لم يكن كبيرَ السّنّ، ربّما يبلغ الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، ومازلتُ أتذكّر اسمَه بالرّغم من أنّي لم أرَه ثانية أبداً، العميد *بلات*. وعندما أُغْلِقَتْ الجامعةُ هذا الرّبيع بسبب إضراب الطُّلاّب، فإنّه قدّم استقالته دليلاً على احتجاجه على الطّريقة التي عالجتْ الإدارةُ بها القضيّةَ، وبلغني أنّه كان قد ذهب للعمل في الأمم المتّحدة .

دامت الاضطراباتُ في كولومبيا من بداية 1968 حتى تسليمِ شهادات قِسمي في يونيو من السنة المُوالية. لقد توقّفَ النّشاطُ العادي عملياً خلال هذه الفترة. صار الحرمُ الجامعيُّ مسرحاً للتظاهرات، واحتلالِ الجماعات لأمكنته العامّة للاحتجاج وتعطيل الدّراسةِ. جَرَتْ فيه هيجاناتُ الطّلبة وإنْزالاتُ الشّرطةِ، و حصَلَ فيه قفعٌ وعُنفٌ وخصوماتٌ بين الفصائل. كان الإسرافُ في الخُطب غزيراً، ورُسِمَتْ خطوطٌ إيديولوجية، وطفَتْ الأهواءُ، وكثُرت في كلّ صوْبٍ، وكلّما كان يسود هدوءٌ مُؤَقّتٌ، كان موضوعٌ جديدٌ للنّقاش يلوحُ، فيبدأُ التّحريضُ من جديدٍ. وفي النتيجة، لم يُنْجَزْ شيءٌ في غاية الأهميّة. تَمّ تغييرُ المؤضِعِ المُقْتَرَحِ لمعهدٍ رياضيٍّ جامعيٍّ للجمباز، وتمّ التّخلّي عن عددٍ معيّن من المُواصفات الأكاديميّة، واستقلّ الرئيسُ، وعُوّضَ برئيس جديدٍ. هذا كلُّ ما حدث. لم يسقُط البُرجُ العاجيُّ بالرغم مِمّا بذله آلافُ البشر من مجهودات، لكنّه اهتزّ لبعض الوقت بعد كلّ هذا العَناء، وانهارتْ بعضُ أحجارِه، وسقطتْ أرضاً .

شاركتُ في بعض الأمور، ونأيتُ بنفسي عن أخرى. ساعدتُ على احتلال

مؤسسةٍ في الحرم الجامعيّ، عنّفني رجالُ الشرطة وقضيتُ ليلةً في السّجن، لكنّني بقيتُ مُتفرّجاً على الخصوص، رفيقاً مُتعاطفاً مع نهجِ فِكريّ. ومهما كان شوقي للمُشاركة كبيراً، اكتشفتُ أنّ لي مِزاجاً ينفُرُ من الأنشطة الجماعية. كان ميلي الغريزيُّ لِلوحدة راسخاً للغاية وثابتا جدّاً. وفي الحقّ إنّي لم أوفّق أبداً إلى ركوبِ السّفينة المُسمّاة **تضامن**. واصلتُ التجذيفَ في زورقي الصّغير، في السّرّاء أوالضّرّاء ـ أكثر يأسا إلى حدّ ما من دون شكّ، وأقلّ تيقُّنا إلى حدّ ما من معرفة الطريقِ الذي أمضي فيه، غير أنّي أعاندُ مغادَرَته بِشِدّةٍ. وعلى أيّ حال، لم يكن الوقت سانحا لي بالتأكيد. كنتُ أُبحِرُ وسط لُجّة مياهٍ مُضطربةٍ هائجةٍ، وبالكاد كانت قُوَتي مُجتَمِعةً تكفيني لِأُتشبّثَ بالمجذاف، ولو كنت تراجعت لكان من المُرجّحِ جدّاً أن أُغرَقَ .

كان هذا هو حال البعض، فمنهم من أودَتْ به شجاعتُه الخاصّة، ومقاصِدُهُ النّبيلةُ ؛ *تيد غولد* الذي كان في قِسمٍ يوجد فوق قسمي، تشظّى جسدُهُ ألْفَ شظيّةٍ في عمارةٍ ذاتِ حجارةٍ بُنّيةٍ تقع ب West Village، حين انفجرَتْ القنبلةُ التي كان يصنعها. *مارك رود* وهو صديقُ الطفولة، وجاري في الإقامة الجامعيّة، انخرط في (المجموعة الأمريكية لليسار الرّاديكالي)Weather Underground (18)، وعاش في السّرّية خلال عشر سنوات ونيّف. *داف جيلبر* النّاطق الرّسميّ باسم S D S (19)، الذي كانت خُطَبُه تسحرُني بوصفها نماذجَ لتوقُّدِ الذّهن والذّكاء، هو اليوم مسجونٌ، ومُدانٌ بخمسة وسبعين عاماً حبساً جرّاء توزُطِه في سرقة برينكس. في أثناء صيف 1969، دلفتُ إلى مكتبٍ للبريد يقع غرب ماساشوسيت بزُفقة صديقة كانت تودُّ إرسالَ رسالةٍ، ولمّا كانت تقف في الصّفّ، تصفّحتُ الصُّورَ المُلْصَقةَ على الحائط لِعَشَرَة أشخاص من أكثر المطلوبين من قِبَل مكتب التّحقيقات الفديراليّ، فوجدتني أتعرّفُ على سبعةٍ منهم .

كان هذا هو الوسطُ الذي قضيتُ فيه سَنَتَيّ الأخيرتين في المعهد الجامعيّ، وبالرّغم من الاضطرابات والغليان الذي لا يتوقّفُ، فإنّي أفلحتُ في كتابة عدد كبيرٍ من الصّفحات، لكنّ أيّ جهد من جهودي المبذولة لم يبلغ نتيجةً ذاتَ شأنٍ. بدأتُ كتابة روايتين فتركتهما، وكتبتُ مسرحيّاتٍ عديدةً لم تُرُقْني، نظمتُ القصيدةَ تلو الأخرى، وكانت النتائجُ مُخيّبةً على العموم. كانت طُموحاتي، في هذه الفترة، تفوق جدّاً قُدراتي، وكنتُ أُكابدُ غالباً الشّعورَ بالحرمان، وأقاسي إحساساً بالفشلِ مُضْنِياً. وكان الإنجازُ الوحيدُ الذي كنت أشعُرُ بالفخر به، هو ترجماتي لِلشّعر الفرنسيّ، غير أنّها كانت تمثّل مشروعاً ثانويّاً بعيداً أكثر مِمّا كان يوجد في ذهني، ومع ذلك ينبغي لي ألّا أستَسْلِمَ تماماً. واصلتُ الكتابة بعد كل شيء، وحين طَفِقْتُ أنشر بعض المقالات عن كُتُبٍ وأفلامٍ في Columbia Daily Spectator، فإنّي كثيراً ما رأيتُ كتاباتي تُنشَرُ بالفعل. أعتقد أنّ المرء ينبغي له أنْ يبدأ عمله في مجالٍ مّا، ولا شكّ أنّي لا أتقدّمُ سريعاً مثلما كنت أرغبُ في ذلك، غير أنّي أتقدّمُ على الأقلّ. كنت أشُدُّ مِن أزْرِي، وأتقدّم خُطوةً خُطوةً، وأنا أترنّحُ، لأنّني لم أتعلّم الجريَ بعدُ.

حين أعود إلى هذه الفترةِ، أرى نفسي، الآن، عبارةً عن شظايا، كانت معارك عديدةً قد حدثت مُتزامنةً، وأجزاءً من ذاتي منثورة على ميدانٍ شاسعٍ، كلّ جزءٍ منها كان يكافح بواسطة ملاك مختلف، واتّجاه مختلف، وفكرة مختلفة عمّا كنت عليه. كان هذا الأمرُ يقودني، أحياناً، إلى نهْجِ تصرُّفاتٍ لم تكن من طبعي على الإطلاق، كنتُ أتحوّلُ إلى كائنٍ لم أكُنْه، كنتُ أحاوِلُ، خلال زمنٍ مُعيّن، حفلَ أفكارٍ أخرى، وكنتُ أخالُ أنّي أبتكر ذاتي من جديدٍ، كان المغرور الكئيبُ المُتأمّلُ يتحوّلُ إلى وَقِحٍ ذَلِقِ اللسان، وكان المثقف المُجِدُّ ذو الحماسة المُفرطةِ، وهو يتغيّر تغييراً مفاجئاً، يختار *هاربو ماركس* (20)

باعتباره أباً روحياً. وبوسعي أن أزوِيَ العديد من أمثلة هذه الدّلدَنات الغريبة، غير أنّ تلك التي تُعبّرُ بصورةٍ أفضلَ عن روح تلك الفترة، هي خُدعةٌ صغيرةٌ نشرتها في مجلّة *كولومبيا*، مجلّة الكلية الأدبيّة. بادرتُ، لأسبابٍ تغيبُ عنّي الآن تماماً، بالإعلان عن أولّ « جائزة سنويّة تحملُ اسم *كريستوفر- سمارت* (21). كنت، آنذاك، في سنتي النهائيّةِ، ونُشِرَتْ قواعدُ المسابقة في الصفحة الأخيرة من عدد الخريف. أقتطِفُ بعض الجُمَل، مُصادفة، من النّص: (إنّ هدفَ هذه المُسابقة هو التّعريف بكبار كارهي الإنسان في عصرنا ... إنهم رجالٌ موهوبون زَهِدوا في المطامع الدُنيويّةِ، وأعرَضوا عن ولائم الأغنياء ...لقد اخترنا *كريستوفر سمارت* مثالاً...هذا الإنجليزيّ من القرن 18، اِزْدَرى المجد الذي كان ينتظره بوصفه مُبدعاً لِلأغاني المُقفّاة ...من أجْل حياةِ ابتهاجٍ غامِرٍ، وجنونٍ، وتَشَدُّدٍ دينيٍ، وكتابات تَنَبُّئِيةٍ. عثر في المُغالاة على طريقه الصَحيح، و اجْتَرَحَ رِفْعتهُ و شفوْه الخاصّين في رفضه لِلوعود التي وُعِدَ بها في بداياته، و وُعِدَ بها الشعراء الأكاديميّون الإنجليز، مُشَنَّعٌ عليه ومهزوءٌ به منذ قرنين...أمْعَنُوا في شتم شفعته والزّراية بها...كان *كريستوفر سمارت* قد طواه النسيانُ. إنّنا اليوم نسعى إلى بعْثِ اسمه في عصرنا هذا الذي يعْدَمُ أبطالاً.)

كان هدفُ المُسابقةِ هو مُكافأة الفشل، ليس مكافأة المساوئ والتقلّبات اليوميّة العادية، بل الاِنهيارات المُذهلة، وأفعال التخريبِ الذّاتيَ الهائلة. وبعبارة أخرى كنت أبْغي اختيار الشّخص الذي لم يُظهِرْ إلّا النّزرَ القليل بالرّغم من مُؤهّلاته ومزاياه، الشّخص الذي كان طرفاً يتمتّعُ بكلّ الحظوظ وبكل المواهب وكلّ طموحات التفوّق في نظر النّاس، والذي لم يُحقّق أيّ نجاحٍ. كان قد طُلِبَ من المشاركين تحريرُ نصّ من خمسين كلمةً أو أكثر، يصفون فيه فشلَهم أو فشلَ شخصٍ آخر كانوا يعرفونه. سيحصل الفائزُ في

المباراة على صندوق مزخرف يحوي الأعمال الكاملة *لكريستوفر سمارت* في مُجلّدين. لم يتفاجأ أحدٌ من الناس، غيري أنا، بإحجام الجميع عن ترشيح نفسه .

طبعاً كانت هذه مزحةً، وتمرينَ خداعٍ أدبيٍّ، غير أنّ شيئاً مَا مُقلِقاً وليس مُسلّياً أبداً، كان يثوي وراء مقاصدي الهزليّة. لماذا نتوخّى، إذاً، تقديسَ الفشل ؟ لماذا هذه النّبرةُ السّاخرة المُتعجرفةُ ؟ هذا الإدّعاءُ بمعرفة كلّ شيء ؟ يُمكن أنّ أخطئَ، غير أنّ كلّ هذا يبدو لي، الآن، بأنّه كان يُعبّر عن الخوف والخَشية من مُستقبلٍ غامضٍ كنت مُهَيّأً له، وبأنّ الحافز الحقيقيّ الذي حفّزني على تنظيم هذه المباراة، هو أنْ أعلنَ فيها عن فوزي الشخصيّ. كان هذا الحلُّ الغريبُ والمجنونُ طريقةً لِدَرْءِ المخاطر عنّي، ولِتَحامي النّوائب التي كانت الحياةُ تُخَبّئُها لي. تُصبحُ الخسارةُ ربحاً، والربحُ خسارةً، ومن ثَمّ إذا ما وقعَ الأسوأ يُمكنني أنْ أدّعِيَ النّصرَ الأخلاقيّ. إنّه لعزاءٌ تافهٌ لاريب، غير أنّه من الجلِيّ أنّني كنت أتشبّثُ سلفاً بِتُرّهاتٍ. فبدلاً من أنْ أعبّرَ عن خوفي علانيَةً، كنتُ أواريه تحت رُكامٍ من الدُّعابات والتّهكُّمات، ولم يكن أيّ شيءٍ من هذا مُدرَكاً. حاولتُ سلفاً أنْ أتعايشَ مع الإخفاقات القادمة، وأن أتصلّبَ في سبيل المعارك التي كانت تنتظرني .

إتّفقَ أنّي عثرتُ، حقيقةً، على *كريستوفر سمارت*، لامِراءَ في أنّ الأمرَ لا يتعلّقُ *بكريستوفر سمارت* الحقيقيّ، بل بواحدٍ مِمّنْ يُجسّدونه، وهو كائنٌ حيٌّ مِثالٌ لِلآمالِ الذّاويَة، والحظّ الأدبيّ العاثرِ. كان ذلك في ربيع سنتي النهائيّة في الجامعة، في أسابيع قليلة قبل تسليم الشهادات، لا يُعلَمُ من أين هبط هذا الرّجلُ الذي جاءَ إلى الحرم الجامعيّ لكولومبيا، وطفِقَ يُثيرُ هيجانَ الجمهورِ. كنت في البداية أشعُرُ بالكاد بحضوره، إلّا أنّ نُتَفاً صغيرةً من القصص التي كانت تشيعُ حوله، كانت تتناهى إليّ أحياناً. بلغني، مثلاً،

أنّه يُلقّبُ نفسه *دوك*، وأنّه كان يُوزّعُ المالَ على أشخاصٍ مجهولين من دون مُقابل، وذلك لأسبابٍ غامضةٍ كانت لها صلةٌ بالنظام الإقتصاديّ الأمريكيّ، وبِمستقبل البشريّة. لم أُعِز هذا الأمرَ أيّ بالٍ مع ما كان يسود هذه الفترةَ من تصرّفات سيّئةٍ خرقاءَ .

ذات مساء أقنعني صديقاي بمُرافقتهما إلى *التايمز سكوار* لرؤيةِ شريط Western Spaghetti، ل *سيرجيو ليوني* (22). قرّرنا، بعد نهاية الفيلم، أنْ نختمَ الأمسيّةَ بما تيسّرَ من المُجون، فقصدنا مقهى *الميتروبول*، عند زاوية برودواي والشارع 48. كانت *الميتروبول*، فيما مضى، نادياً مُتميّزاً للجاز، غير أنّها صارت حانةً للرّاقصات العاريات بكلّ ما يلزم: جُدُرٌ تكسوها المرايا، وأضواء متكرّرةٌ سريعةٌ، وثلّة من فتياتٍ بِثيابٍ كاشفةٍ(23) متلألئةٍ يرقُصن على منصّة عالية الإرتفاع. إختَرنا طاولةً في رُكنٍ مُنزوٍ، وشرعنا في الشُّرب. ولمّا استأنستْ أعيُننا بالظلام، إستدلّ أحدُ الصديقين على *دوك*، وهو يجلس وحيداً في الرّكن المُقابل من الصّالة، وعندما جلس بجانبي هذا الرّجلُ الغريبُ، الطّيبُ القلب، المُلتحي، الأشعثُ قليلاً، وهو يُهمهِمُ كلاماً بصددِ جين كروبس (24) و « ماذا نفعل في هذا المكان »، أشَحتُ نظري، لحظةً، عن الرّاقصات كي أُصافِحَ الرّوائي الأسطوري والمنسي **ه. ل. هومز**(25) .

كان أحدَ مُؤسّسي المجلة الأدبية (Paris Review) في الخمسينيات، وكان قد وُفّقَ إلى نشرِ كتابين أوّلَين (*مدينة تحت الأرض*) ، و(*رجالٌ يموتون*) ، ولمّا أنشأ يُكوّن لنفسه موطئ قدم، كان قد اختفى من دنيا الأدب وانقطعتْ أخبارُه .

لا أعرفُ الحكايةَ بأسرها، بيد أنّ التُّفَ والأجزاءَ التي سمعته يرويها، تُفصِحُ عن سلسلة من الضّربات الموجعة، وسيلٍ طويلٍ من العذابات

والمآسي. خَضَعَ لعلاج بالصّدمات، وآلَ زواجُه إلى الفشل، وأقام مرّاتٍ عديدةً بمُستشفيات الطّبّ النّفسيّ، وبحسب ما قاله فإنّه لم يختز التّوَقّفَ عن الكتابة، بل أُجْبِرَ على ذلك لأسبابٍ عُضويّةٍ، كان العلاجُ بالصّدمات الكهربائيّة قد قوّضَ أعضاءه كما يقول، وكلّما كان يُمسِكُ قلماً، كانت ساقاه تأخذان في التّوَرّم، وهو ما كان يُسبّبُ له ألماً لا يُطاقُ، لم يعد يقوى على تدوين كلامه، فأضحى منذ الآن يتّكلُ على الخطاب الشّفَويّ لِيُبَلّغَ «رسالته» إلى النّاس. لقد قدّمَ، في هذا المساء، بَرْهنةً كاملة على الإتقان التّامّ الذي كان اكتسبه بخصوص هذه الوسيلة التّواصُليّة الجديدةِ، في حانة الرّاقصات العاريات أوّلاً، ثمّ بينما كنّا نصعد ثانيةً *برودواي* انطلاقاً مِمّا يقاربُ سبعين شارعاً حتّى حيّ *مورنينغ سايد هايت* ، لم يتوقّف عن الكلام. مِهذارٌ يُطْنِبُ ويَهذي مُحدِثاً ضجيجاً بالغاً، بمونولوغٍ لم يكن يُشبه في شيءٍ ما كنت سمعته من قبلُ. كان كلاماً مُنمّقاً لِنَبِيٍّ هيبيٍّ رائيٍّ جديدٍ، سَيلاً لا ينضُبُ من البارانويا والذّكاءِ، إبحاراً ذهنياً مجنوناً يثِبُ من الحقيقة إلى المجاز، ثمّ إلى التّأمّل، بمقدارٍ من السّرعة، وبطريقةٍ طارئةٍ جدّاً يندهش لها المرءُ، ويعجز عن التّفَوّه بكلمة. أخبرنا بأنه كان قَدِمَ من نيويورك في مُهمّة. كان بحوزته خمسة عشر ألف دولار، وإذا ما كانت نظرياته المُتعلّقةُ بالمال والبِنيات الرّأسمالية صحيحةً، فإنّ بمقدوره استخدامَ هذا المال لمُصارعة الحكومة الأمريكيّة .

كان الأمرُ، في الحقيقة، بسيطاً جدّاً، إذ قضى أبوه نحبه تاركاً لِ *دوك* ميراثاً قدْره المبلغ المُشار إليه أعلاه، وعوض أنْ يُبَدّدَ هذا المالَ على نفسه، اِرْتأى صديقنا أنْ يَهبَه لا دفعةً واحدة، أو لعملٍ خيْرِيٍّ، أو لشخصٍ خاصّ، وإنّما لجميع النّاس، لِلْعالم كلّه في الوقت نفسه. لأجل هذا كان قصد البنك، فحصّلَ الشيك، ثمّ حوّله إلى حُزْمةِ أوراقٍ من فئة خمسين دولاراً، بهذه الأوراق البنكية الثلاثمائة التي تحمل صُورَ الرّئيس *يوليسيس جرانت* (26)، الشبيهة

ببطاقات دعوةٍ، كان قد راح يُعلِن عن نفسه ضمن زُمرةِ إخوته المُتآمرين، ويُطلِق أكبرَ ثورة اقتصاديّة في التاريخ. إنّ المالَ وهمٌ في آخر المطاف، والمالُ ورقٌ لا قيمة له، وهو لا يكتسب هذه القيمةَ إلّا في النطاق الذي يُقرّرُ فيه عددٌ كبيرٌ من النّاس إسنادها إليه. ينبني النظامُ على الإعتقاد، لا على الحقيقة أو الواقع، بل ينبني على الإعتقاد الجمعِيّ. وماذا سيحصل إذا ما تَمّ تقويضُ هذا الإيمان، إذا ما طَفِقَتْ جموع غفيرةٌ من البشر تزتابُ، بغتة، في هذا النظام ؟ نظريّاً، سينهارُ النظامُ، وباختصار كان هذا هو هدف تجربة دوك. لم تكن الأوراقُ من فئة خمسين دولاراً التي كان يهَبُها لِمجهولين، لم تكن هدايا، بل كانت أسلِحةً في معركته من أجل تشييدِ عالم أفضل، كان يريد أنْ يجعلَ من سخائه مثالاً يُحتذى، ويُقيمَ الدليلَ على أنّ بالإمكان إزالةَ سِحرِ المال، وتحريرَ الذّهن من سُلطانه، وفي كلّ مرّة كان يُنفِقُ فيها حُزمةً جديدةً من النقود، كان يوصي الحاصلين عليها بالإسراع في إنفاقها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. أنفِقوه، وامنَحوه، وتداولوه من يد إلى أخرى، على هذا النحو كان يأمُر، وأخبِرُوا اللّاحقين بأنْ يَحذوا حَذوَكُم. بين ليلةٍ وضُحاها ينشأ تفاعُلٌ، وكانت الأوراق من فئة الخمسين، قبل أنْ نتمكّن من رُؤيتها، تطيرُ في الهواء بتلك الكمّية إلى درجة يُصابُ فيها النظامُ بالجنون، ستنشأ موجاتٌ، وستَثِبُ شحنات من النترونات النابعة من آلاف، بل ملايين الينابيع المُختلفة في أرجاء الغرفة كرصاصات صغيرة من الكاوتشوك، وما إنْ يصيرَ وثبُها وسرعتُها كافيين، حتى تحوزَ قوّةَ القنابلِ، فتُنسَفُ الحيطانُ .

لا أستطيع الحديث عن مدى اعتقاده بهذا الأمر فعلا، إنّ رجلا في مثل ذكائه، حتّى ولو كان مُضطرباً، لا يمكنه أنْ لا يتحقّقَ من فكرةٍ سخيفةٍ عندما يتلقّاها، فهو لن يمضي أبداً إلى حدّ التعبير عنها علانيّة، غير أنّي أعتقدُ بأنّه كان واعياً بهذياناته، ولم يكن هذا ليَمنعه من أنْ يتلذّذَ بها بالطّبع، ولا أنْ

يَخطُبَ بإطنابٍ بصدد مشروعه كلمّا سنحت له الفرصةُ بذلك، لكنّ مقصده لم يكن يتعلّقُ بأداء مَلْهاةٍ مُمتازةٍ، وإنّما بأداء موقفٍ سيّاسيّ حقيقيّ. لم يكن ه. ل. **هومز** شخصاً فُصامياً يتلقّى الأوامرَ من مركز قيادةٍ في المرّيخ، بل كان كاتباً مُحَطّماً ومُنهَكاً، فجَنَحَ إلى المرتفعات المغمورة لوعيه الخاصّ، وعوضاً عن أنْ يهْجُرَ الحياةَ ويتخلّى عنها، كان قد اصطنع هذه التمثيليّةَ المُضحكةَ بُغيةَ رفْع المعنويّات، كان المالُ قد أعاد إليه جُمهوراً، ومادام النّاس يُشاهدونه، فإنّه يصيرُ مُلهَماً، ومجنوناً، وسيّدَ جوقةٍ حقيقيّاً. كان يقفزُ كمهرّجٍ، مُتقلّبا، ويَثِبُ في النّيران، ثمّ يُطلِقُ النّار من المدفع. وكان يهْوَى هذا الدّوْرَ على الأرجح .

في هذا المساء ونحن نصعد *برودواي*، أنا وصديقاي، كان يُؤدّي لعبةً مُثيرةً، فبَيْنَ شلّالاتٍ من الكلمات، وقَهقهاتِ ضحكٍ صاخبةٍ، ونفحاتِ موسيقى كونيّةٍ، كان يُحدثُ تغييراً مُفاجئاً في مَسلكِه، فيَشرعُ في مساءلة مجهولين، كان يتوقّفُ في غمرة حديثه كي يُسقطَ أيضاً ورقةً من خمسين دولاراً في راحة عابرِ سبيلٍ يحُضُّهُ على إنفاقِها، وألّا يشغَلَ باله بالمستقبلِ. سادَ الشّارعَ هيجانٌ وجَلَبَةٌ هذه اللّيلةَ، وكان *دوك* محطّ جاذبيّة كبيرةٍ فيه. إنّه عازفُ ناي العدمِ. كان من الصّعب ألّا يستسلمَ المرءُ فيُؤخَذَ بهذا. وعليّ أنْ أعترِفَ بأنّي كنت أجدُ إنجازه مُسلّياً. مع ذلك بينما كُنّا ندنو من نهاية المسيرِ، وكنت على وشك الوصول، اقترفتُ حماقةً كبيرةً. كان الوقت، في هذه اللّحظة، الواحدةَ أو الثانيةَ صباحاً، في مكان ما على يميني، سمعتُ *دوك* يُهَمْهِمُ كما لو يتحدث إلى نفسه: (هل سيكون لدى واحدٍ منكم مكانٌ للمبيت ؟) تلفّظَ بهذا الكلام بكثيرٍ من التجرُّد واللّامبالاة وباستخفافٍ بالغٍ بأشياء هذا العالم التي لم أفكّرْ فيها بانتباهٍ ورَوِيّةٍ، (أجبتُ: طبعاً، بوسعك النّومُ على أريكتي إذا ما شئتَ). ومن النّافل القولُ إنّه لَبّى دعوتي، ومن النافل القولُ إنّي لم أكنْ أرتابُ في ما

أنا مُقبِلٌ عليه من مُغامرةٍ .

ليس الأمرُ أنّي لم أكُنْ أكِنُّ له وُدّاً، ولا أنّنا لم نكن نتجاوبُ، والحقّ يُقال إنّ الأمور مرّتْ بسلاسةٍ ويُسرٍ. كان دوك، خلال اليومين الأوّلين، قد استقرّ على الأريكة، ولم يتململْ منها إلّا نادراً، وقلّ ما كان يضعُ أخمَصَ قدميه على الأرض، وماعدا ذهابَه المُحتملَ إلى الحمّام، لم يكن يفعل شيئاً سوى المكوثِ جالساً، أو تناولِ البيتزا، أو تدخين الماريخوانا والتّحدث. كنت أشتري له البيتزا (من ماله)، وبعد أنْ كرّرتُ له خمس أو ستّ مرّات بأنّ تدخين العُشب لا يُغريني، إقتنعَ في النّهاية فكفّ عن عرضه عليّ. كان حديثه متواصلاً، قائمة الإزتجال الصّاخب ذاتها التي كان عَرَضَها في المساء الأول، غير أنّه أضاف حُجَجاً أكثر إسهاباً، وأكثر كثافةً، وأكثر مُلاءَمَةً. كانت السّاعات تنصرِم وشفتاه لا تتوقّفان عن الحركة، وإذا ما نهضْتُ وغادرتُ الغرفةَ، فإنّه كان يُواصلُ الحديثَ عارضاً أفكارَه على الحائطِ والسّقفِ والمصابيح، يكادُ لا يلْحَظُ أنّي لم أعُد هنا .

لو أنّ الشُّقةَ كانت كبيرةً بقليلٍ، لَمَا كانت المشاكلُ ستحدُث، لكنّها لم تكن تتكوّن إلّا من غُرفتين ومطبخ، وكانت غُرفتي صغيرةً جدّاً بحيث لا تتّسِعُ لشيء آخر غيرِ سريرٍ. كانت طاولةُ العمل تستقِرُّ في الصّالون حيث كانت توجدُ الأريكةُ أيضاً. وبِصُحبةِ دوك الذي كان يستغرِقُ في هذه الأريكة المُريحة بلا انقطاع، فقد كان يتعذّرُ عليّ، عملياً، القيامُ بأدنى مُهِمّة بصورةٍ جيّدة. كان أسدُس الربيع يوشك على الإنتهاء، وكان عليّ تحريرُ سلسلةٍ من النّصوص حتّى أكمِلَ دروسي، وأحصُلَ على شهادتي. لم أستطع حتّى إنجاز شيءٍ مّا خلال اليومين الأوّلين، كنتُ أقولُ بأنّ لديّ مُتّسعاً قليلاً، ولهذا السّبب عليّ ألّا أنزعِجَ، سينصرِفُ دوك عاجلاً، وما إنْ أستعيدَ مكتبي، فسيكون بمقدوري أنْ أشرَعَ في العمل. أذركتُ، أثناء اليوم الثالث، أنّ ضيفي

لم تكن له أيّ نيّة في الإنصراف، ليس لأنّه كان يستغلّ طوعا كَرَمَ ضيافتي له، وإنّما لأنّ فكرةَ الإنصراف لم تخطُرْ ببساطةٍ، على رَوْعِه. فما الذي كان ينبغي عليّ عمله ؟ لم أكنْ لأجسُرَ على إخراجه، إذْ كنت كثيرَ الشّفقة عليه من قبلُ، ولن تُطاوعني الشجاعةُ أبداً لكي أتصرّفَ بصرامةٍ كهذه .

كانت الأيّامُ القليلةُ التي أعقَبَتْ صعبةً للغايةِ. كنت أبذلُ قُصارى جهدي لِلتّعايشِ مع هذا الوضع، لِأرى إذا ما كان بِوُسعِ بعض التّسوِيات الصغيرةِ أنْ تُحسّنَ الوضعيّةَ. لا أدري إذا كانت الأمور ستَنْتَظِمُ في النهاية، بيدَ أنّ المُصيبةَ حلّتْ بعد ثلاثة أو أربعة أيّامٍ مِن تزكي غرفتي *لدوك*، والإقامة في الصّالون، لقد حدث هذا في واحدٍ من أجمل أيّام الأحد التي أتذكّرها، ولا أحد يتحمّلُ هذا الخطأ سِوايَ أنا. جاء صديقٌ يدعوني لِلَعِب مقابلةٍ في كرة السّلّة في الهواء الطّلْق، وبَدَلَ أن أترك *دوك* وحيداً في الغرفة، اصطحبته معي. مَرّ كُلُّ شيء على ما يُرامُ، كنت أشارك في المُقابلة، بينما، وهو جالس جنْبَ الملعب، كان يستمعُ إلى الرّاديو ويُثرثرُ لوحده أو مع مَنْ كان مِنْ أصدقائي بِجَنْبِه، و فيما نحن عائدان مساءً، إذا بشخصٍ يلْمَحُنا، صاح هذا الشخص: (هناك كان يختفي). كان إنساناً لم أكن أبداً لأحبّه بوجه خاصّ، وعندما طلبت منه أن يكْتمَ عنوان *دوك*، اقتنعتُ أنّي كنت أتحدّث أيضاً مع شخصٍ يُفشي ويُذيعُ. وبالفعل فإنّ جَرَسَ شُقّتي طَفِقَ يَرِنُّ بدءاً من صباح الغد، وعُثِرَ من جديدٍ على شخصيّة الحرم الجامعيّ الشهيرة، ولم يكن **ه. ل. هومز**، بعد غيابه الغامض مدّة أسبوعٍ، إلّا لِيَشعُرَ بسروره العارمِ وهو يُزضي تلامذته. وطَوالَ اليوم كانت مجموعاتٌ من الشّباب ذوي التاسعة عشرة والعشرين سنةً تقتحِمُ شُقّتي، وهي تقتعِد الأرض وتُصغي إلى *دوك*، يُرَسّخُ في أذهانها حِكمتَه المجنونة. كان فيلسوفا مَلِكاً، وزعيما ميتافيزيقياً، وقِدّيساً بوهيميّاً. كان مُهَيّأً لِتَبديدِ الأراجيف التي لَقّنها أساتذتُهم لهم، ولم يكونوا لِيشعُروا

بالضجر من هذا الأمر .

كنت أستشيطُ غضباً، لقد صارت شُقّتي قاعةً لإجتماعٍ مُتواصلٍ. وكيفما كانت رغبتي في اعتبار *دوك* مسؤولاً عن هذا، فإنّي كنت أذرك بأنّه لم يكن يتحمّل الخطأ. لقد جاء أتباعُه من تلقاء أنفسهم، بلا دعوةٍ أو موعدٍ. وما إنْ كانت الحشودُ تشرَع في الإختشاد حتى بِتُّ غيرَ قادرٍ أبداً أنْ أظلبَ منه أمرَهُم بالإنصرافِ، ولم يبقَ لي سوى أنْ أتضَرّعَ إلى الشمس كي تَكُفّ عن السُطوعِ. كان الحديثُ عِلّةَ وجوده، كان مُقاومتُه الأخيرةَ ضِدّ النّسيان. وإذْ إنّ هؤلاء الشّباب كانوا يتحلّقون حوله، ويجلسون بالقرب منه، مُتعلّقين بأقلّ ما كان ينطقُ به، فذلك لأنّه كان يستطيعُ أنْ يتوهّمَ، مُؤقّتاً، بأنْ لا شيء قد ضاع منه، ولم أكن أرى ضَيراً في ذلك. إنّ ما كان يعنيني هو أنّه كان قادراً على الحديث، بلا توقف، حتّى القرنِ القادم، وأنا، ببساطةٍ، لم أكنْ لِأرغبَ في أنْ يقوم بهذا في منزلي .

عثرتُ على تسويةٍ جبانةٍ وأنا مُمَزّقٌ بين الشفقة والقَرَفِ، كان ذلك أثناء إحدى فترات الهدوء النّادرة لهذه المرحلة، في لحظةٍ لم يكن فيها أيُّ زائرٍ طارئٍ بالشّقّةِ. قلتُ *لدوك* بأنّ بمقدوره أنْ يفكّكَ، وبأنّي أنا مَنْ سيرحلُ. شرحتُ له بأنّ لديّ عملاً مُتراكماً سأنجزه، وعِوَضَ أنْ ألقي به إلى الشارع قبل أنْ يعثُرَ على مكان يقيم به، فإنّي سأذهب عند أمّي في *نيوارك* لكي أحرّرَ مقالاتي، سأعود خلال أسبوع بالضبط، وكنت أقدّرُ أنه سينصرف حين أرجع. أصغى إليّ *دوك* بانتباهٍ وأنا أغرِضُ عليه خُطّتي، ولمّا فرَغتُ سألته إذا ما كان قد فهِمَ، فردّ عليّ بصوته الهادئ جداً، والأبَحّ جداً كصوت مغنّي جازٍ: (فاهِمٌ يا عزيزي ومُرتاحٌ)، هذا ما في الأمر. انتقلنا إلى الحديث في مواضيع أخرى، وفي ثنايا حديثه هذه اللّيلة، روى لي أنّه قبل سنوات عديدة، عندما كان شابّاً، كان قد حدث له في باريس أنْ لَعِبَ الشّطرنج مع

نريستان تزارا (27)، وهذا واحد من الأحداث النّادرة الملموسة التي أحتفظُ بذكراها. و يكاد يزول ، مع مرور الوقت، كلّ ما سمعته من فم ه. ل. هومز. أتذكّرُ جَرْسَ صوته، لكنّني لا أتذكّرُ إلّا قليلاً مِمّا كان يزويه، لقد تلاشت كلُّ هذه الماراثونات اللّفظية الهائلة، هذا السّيْرُ الحثيثُ في المناطق الخلفية للعقل، هذه السّاعات التي لا تُحصى، التي أنفقْتُ في الإصغاء إليه وهو يروي بإسهابٍ مكائدَه، ومُؤامراته، ورسائلَه السّرّيّة. لم تَعُد الكلماتُ، من الآن فصاعداً، سوى طنينٍ ودنْدنةٍ في ذهني، مجموعةِ سديمٍ مُبهمةٍ .

في صباح الغد، بينما كنت أهيّئُ حقيبتي وأستعدُّ للرّحيلِ، سعى إلى منحي مالاً. رفضتُ عَرْضَه، غير أنّه ألحّ وهو ينتزعُ حُزمته من أوراق الخمسين دولاراً. ومِثْلَ لاعبٍ في ميدانٍ لِلسّباق كَرّرَ عليّ بأنْ آخُذها، وكان يقول بأنّي فتىً طيّبٌ، وبأنّ علينا أنْ « نتقاسمَ الثّروةَ »، أذْعَنْتُ، أخيرا،لإلْحاحه، فقبلْتُ أخذَ ثلاثمائة دولارٍ، وَلَشَدّ ما ابتغيْتُها وقتئذٍ، ومازلت أبتغيها اليوم، كنت وَدِدْتُ لو ترفّعتُ عن هذا كلّه، وقاومتُ إغراءَ مشاركته في اللعبة المُحزنة التي كان يلعبها، ومع ذلك فبمجرّد أن امتحنتُ مبادئي، استسْلَمْتُ وتركتُ نفسي فريسةَ الطّمعِ. كانت ثلاثمائة دولار تشكّل مبلغاً كبيراً عام 1969، وبدتْ جاذبيّةُ هذا المال أقوى منّي بكثيرٍ. وضعتُ الأوراق في جيبي، وصافحتُ دوك وأنا أودّعه، ثُمّ انسحبتُ بسرعة. وحين عُدت بعد أسبوعٍ، كانت الشُّقّةُ نظيفةً تلمعُ كقطعةٍ نقديّة وهّاجةٍ، ولم يكنْ يُرَى فيها أيُّ أثرٍ لدوك . كان قد رحل كما وعد .

ولم أره، بعد هذا، سوى مرّةٍ واحدةٍ. حصَل ذلك بعد مُضِيّ عامٍ واحدٍ تقريبا. امتطيتُ الحافلةَ رقم 4 من وسط المدينة، وفي اللحظة التي انعطفنا فيها نحو الشارع 110، رأيته من النافذة واقفاً في زاويةِ الجادّةِ الخامسةِ بالجانب الشّمالي لِ *السنترال بارك* . كانت هيئتُهُ حزينةً، وملابسُه مَذعوكةً

مُتغضِّنةً، ومظهرُهُ وَسِخاً، وكانت عيناهُ تَشِيان بالتيه والخواءِ، ولم يكنْ على هذه الحالِ من قبلُ، قلتُ في قرارتي: لَعلّه قد تعاطى المُخدّراتِ الصّلبةَ، ثُمّ مضت الحافلةُ ولم أعد أراه. توقّعت، خلال أيّامٍ وأسابيعَ، أنْ أراه من جديدٍ، غير أنّ هذا لم يحدث البتّة. مرّت خمسةٌ وعشرون عاماً، ثم ما هي إلّا خمسة أو ستّة أشهرٍ تقريباً، بينما أتصفّح *النيويورك تايمز*، إذا بي أقَعُ في أخبار الوفيات على مقالةٍ صغيرةٍ تنعاهُ.

تعلّمتُ، شيئا فشيئا، مُباشرةَ الأمورِ بلا استعدادٍ أو تحضيرٍ مُسبقَين، وتَهَيّأتُ لاحتمال الخُطوب التي تنزلُ بي. في أثناء سنتيَ الأخيرتين بجامعة كولومبيا، قبلتُ كلَّ أنواع المهن الحُرّة والمُستقلّة، وبدأتُ أميلُ، بالتّدريج، إلى نوع الأعمال الأدبيّة الوضيعة التي ستحفظُني من كلّ شرٍّ ماديٍّ حتى سِنّ الثلاثين، والتي ستنتهي بالتّسبُّبِ في خرابي. كان هناك إغراءٌ خياليٌّ، على ما أعتقد، رغبةٌ في إثبات ذاتي على أنّي مُنافسٌ قليلُ الحظّ، وللبرهنةِ على أنّي كنت أستطيعُ تَدَبُّرَ أمري لِوَحْدي، من دون أنْ تُغرِيَني الفكرةُ التي يتصوّرُها الآخرون عمّا كان يجعلُ من العيشِ عيشاً كريماً. ستكون حياتي كريمةً إذا ما – وإذا ما فقط – كنتُ أحافظُ فيها على أسلِحتي، وأرفُضُ التنازلَ والتخلّي عنها. كان الفنُّ مُقدّساً، وكانت تلبيةُ ندائه تعني القَبولَ بجميع التّضحيات الواجبةِ، وصيانةَ نقاءِ مقاصِده حتّى آخرِ رمَقٍ.

كانت معرفتي باللّغة الفرنسيّة حُظْوةً وامتيازاً، ولم تكن موهبةً نادرةً جداً، بل كنتُ أُتقِنُها بما فيه الكفاية كيما تُوكَلَ إليّ بعضُ الأعمالِ الصغيرة للتّرجمةِ، نُصوص حول الفنّ على سبيلِ المثال، ووثيقة للسفارة الفرنسيّة مُمِلّة بصفة خاصّة، تتعلّق بإعادة تنظيمِ مُوظّفيها، وثيقة رتيبة تزبو على المائة صفحةٍ. قدّمتُ أيضاً دروساً خصوصيّةً لِتلميذةٍ في الصّف الثانويّ، وخلال ربيعٍ كاملٍ عبَرْتُ المدينةَ كُلَّ صباحِ سبتٍ من أجل أنْ أحدّثها عن الشِّعرِ. وفي مرّة أخرى

شغَلني صديقٌ (بلا مُكافأةٍ) لِلمكوث في مِنَصّةٍ نُصِبَت في الهواء الطّلقِ بِصُحبةِ *جان جوني* (28)، وترجمةِ خطابه الذي ألقاهُ لفائدةِ *الفهودِ السّود* .
كان جوني يتنزّه وقد ثبّتَ وردةً حمراءَ خلف أذنِه، ولم يتوقّف، بالفعل، عن الإبتسام طوال الوقت الذي قضاه في حرم كولومبيا الجامعي، وتصرّفَ بكثيرٍ من الإتّزانِ والتّعقّلِ بالنظرِ إلى الإهتمامِ الذي خُصّ به هذا اليوم. ذات مساءٍ بعد مُضيّ زمنٍ قليلٍ، صادفتُ شخصاً كنت أعرفه في *الويست- إيند* المَشرَبة الطّلابية العتيقة الواقعة زاوية *برودواي* والشارع رقم 114، روى لي بأنّه كان قد شرع لِلتّوّ في العملِ لدى ناشرٍ للأدبِ الإباحيّ (البورنوغرافيا)، وإذا ما كنت أبغي تجريبَ كتابة عمَلٍ إباحيّ، فجزاءُ هذا هو ألف و خفس مائة دولار عن رواية واحدة. شعُرتُ بأنّي مُهَيأٌ لِخَوضِ التجربة، غير أنّ قريحتي وَهَنَت بعد عشرين أو ثلاثين صفحةً، واكتشفتُ أن ليس هناك سوى عددٍ مُعيّنٍ من الطُّرُقِ لوصف هذا الشيء الوحيد، وسُرعانَ ما نفدتْ ذخيرتي من المُترادفات، وانْصَبّ اهتمامي، بالأحرى، على إنشاءِ كتاباتٍ نقديةٍ عن الكُتُبِ، تَخُصّ نشرةً تُنجَزُ كيفما اتّفق لفائدةِ الطُّلابِ. وعندما شعُرتُ أنّ حظّ هذه المجلّةَ من المُستقبلَ قليلٌ، كنت أُوَقّعُ مقالاتي فيها باسمٍ مُستعارٍ من أجل مصلحتها البسيطة. كان *كين* هو الإسم الذي اخترته لِنفسي، *بول كين* ، وأتذكّرُ أنّ المُكافآت كانت خمسةً وعشرين دولاراً لِلمقالة .

عندما أُعلِنَتْ نتائجُ قُرْعَةِ الجيش نهاية عام 1969، كان الحظّ قد منحني الرّقمَ 297، وكانت تَوْزيعةٌ عمياءُ قد أنقذتْ حياتي، وفجأةً زال الكابوسُ الذي كنتُ أوَطّنُ النّفسَ عليه منذ أعوام، فمَن سأشكرُ على هذه النّعمةَ التي لم تكن في الحُسبانِ؟ لقد صِرتُ بِمَنأى عن كَمّ هائلٍ من العذابِ والغَمّ، وبِتُّ من جديدٍ سيّدَ نفسي تماماً، ولم يعُد السّجنُ يتهدّدُني. كان الأفقُ قد صار نَيّراً و مُضيئاً من كلّ صوْبٍ، وكنت أشعُرُ بالحريّةِ في السّير في أيّ وجهةٍ

سأختارُها، وطالما كنت أسافرُ خفيفَ القناعِ، فلا شيء يمنعني من أنْ أمعِنَ في الرّحيلِ، وأنأى ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا .

إنّ واقعةَ اشتغالي لِشهورٍ عديدةٍ على مَتْنِ ناقلةٍ بتروليةٍ، كان إلى حدٍّ كبيرٍ مسألة حظّ، بحيث لا يستطيع المرءُ أنْ يعملَ في باخرةٍ من دون توفُّرِه على بطاقةٍ لِلبحرية التّجاريّة، ولا يمكنه الحصولُ على بطاقة البحريّة التّجاريّة إذا لم يعمل على متن باخرةٍ، إلّا إذا كان يعرف شخصاً بوسعه أنْ يُخرجه من هذه المتاهةِ، ومن دون هذا يستحيلُ عليه الولوجُ. كان الزّوجُ الثاني لأمّي ويُدعى *نورمان شيف*، هو الشخص الذي قام بهذا من أجلي، كانت أمّي قد تزوجت ثانية بعد زُهاء سنةٍ من طلاقها من أبي، وفي 1970 كنّا أنا وزوج أمّي صديقين ودودين ما يقرب من خمس سنوات. كان هذا الرّجلُ الفاضلُ، والنّبيلُ، والشّهمُ، قد آزرني بإخلاصٍ في طموحاتي المُبهمةِ والوهميّةِ. لقد ظلّ موتُه المُبكّرُ عام 1982 (كان له خمسةٌ وخمسون عاماً) واحداً من الأحزان العظيمة في حياتي، غير أنّه في هذه الفترة بالذات، وبينما كنت أُنهي سنتي الأخيرةَ من الإجازةِ، وأتهيأ لمُغادرة المُؤسّسةِ، كانت صِحّته ما تزال جيّدةً كما ينبغي، كان رجُلَ قانونٍ، مُختصّاً في قانون الشُّغلِ، ومن بين زُبنائه العديدين في هذه الفترةِ، كانت توجد نقابة بحّارةِ إيسّو ESSO التي كان يعمل مستشاراً قانونياً لها. على هذا النحو وُلِدت الفكرةُ في ذهني، فطلبتُ منه إذا كان بمقدوره أنْ يحصّلَ لي على عملٍ على متن ناقلةِ بترولٍ من سُفُن *إيسّو*، وأجابني بأنّه سيتدبّرُ الأمرَ، وهو ما قام به ببساطةٍ .

كان ثمّة ركامٌ من الوثائق يجب ملؤه، والقيام برحلات إلى مقرّ النّقابة *بيلفيل* ، في *النيوجرسي*، و إجراء فحوصٍ طبيّة بمانهاتن، تليها فترة انتظارٍ غير مُحدّدة حتّى يوجدَ مكانٌ شاغرٌ ترسو فيه إحدى السّفنِ التي تَلِجُ منطقة نيويورك. في غضون ذلك كنت قد وجدتُ عملاً مُؤقّتا في مكتب الولايات

المتحدة للإحصاء، حيث كنت أجمَعُ المُعطياتِ المتعلّقة بإحصاء عام 1970 في *هارلم*. كان عملي يتحدّدُ في الصّعود والنّزول من سلالِمِ عماراتٍ مُضاءةٍ بشكلٍ سيّءٍ، وفي طَرْقِ أبواب الشُّققِ، ومساعدة الناس على تعبئة الإستمارات الحكوميّة. كان الجميعُ لا يبغي المساعدة بالطّبع، وكان العديدُ من الناس يتوجّسون من هذا الطّالب الأبيضِ الذي يجوس الأروقة، لكنّ كثْرةً كاثِرَةً منهم كانت تستقبلني في منازلها لتوحي لي بأنّ وقتي لم يَضِعْ سُدى. قمتُ بهذا العمل قُرابة شهرٍ، ثُمّ إذا بالسفينة ترسو خلافا لِما كنت أتوقّعه.

إتّفق أنّي كنت في هذه اللحظة جالساً على كُرسيّ طبيبِ أسنانٍ يكاد يوشك أنْ يَقْلَعَ ناجذةً لي. منذ ظهور اسمي في اللّائحة، كنت أتّصِلُ بزوج أمّي، كلّ صباحٍ، لِأخبِره أين يمكن الإتصال بي خلال اليوم، وكان هو مَنْ عثر عليّ في عيادة الطّبيبِ. لا يُمكن للتّزامُن أنْ يكون أكثرَ هَزْلاً. سبق أنْ حُقِنَتْ لَثّتي بالمُخدّرِ، وعندما طفق الطبيبُ يُمسِكُ مِلْقَطَهُ ويتهيّأُ لِلإنْقضاضِ على ضِرْسي النّخِرِ، إذا بِمُمَرّضةِ الإستقبال تذلُفُ مُعلنةً أنّي مطلوبٌ على الهاتف. وبأقصى سرعة نهضتُ من الكرسيّ والمِنديلُ ما يزال مُحاطاً بِعُنُقي، وفي اللحظة الموالية كان *نورمان* قد أخبرني بأنّ أمامي ثلاثَ ساعاتٍ لِأحْزِمَ حقائبي وأحْضُرَ إلى سفينة *س س إيسّو فلورانس* بإيليزابيث في النيوجرسي. تفَتْفتُ باعتذاراتٍ للطّبيبِ ثمّ انسحبتُ بسرعة .

ظلّ الضِّرْسُ في فمي أسبوعاً آخر، وحين سقط كنتُ في *بايتون* بالتكساس .

كانت *الإيسّو فلورانس* واحدةً من أقدم سُفن الأسطولِ، بقايا زمن ولّى، تبعثُ على السّخريّةِ، ضَعُوا سيّارةَ *شوفروليه* ذات بابين بجانبِ *ليموزين ستريتش*، وستدركون بِما فيه الكفاية أوْجُهَ البَوْنِ بينها وبين ما يُشيَّدُ، اليوم، من ناقلاتِ البترول ذات السّعَةِ الهائلةِ. كانت تعملُ من قبلُ طَوالَ الحرب

العالميّة الثانية، كانت سفينتي، في الفترة التي كنت على مَتنها، قد نقَلَت أُلوفاً مُؤلّفةً لا تُعَدّ ولا تُحصى من البخارةِ. كان على متنها ثمّة ما يكفي من الأسِرّةِ لإيواءِ مائة نَفَرٍ، بيد أنّ ثلاثةً وثلاثين نفراً يكفون لِأداءِ العمل الذي ينبغي القيامُ به، ويعني هذا أنّ كلّ شخص كان يتوفّرُ على حُجرته الخاصّة، ويُعَدُّ هذا بمثابةِ امتيازٍ هائلٍ إذا ما أخذنا بعين الإعتبارِ الوقتَ الذي كان يتوجّب علينا قضاؤه معاً. في مِهَنٍ أخرى يمكن للمرء أنْ يعود إلى بيته مساءً، أمّا نحن فكنّا محبوسين في قفصٍ أربعَ وعشرين ساعةً على أربعٍ وعشرين، فكلّما شَخَصتَ بناظرك كنتَ تُلفي الوجوهَ ذاتَها. كنّا نعيشُ ونأكلُ معاً، ولولا هذا النّزرُ القليلُ من الحميميّةِ لَصارت العيشةُ شأناً لا يُحتملُ .

كنّا نُقبِلُ ونُدبِرُ بين السّاحل الأطلسيّ وخليج المكسيك، ونحن نشحنُ ونُفرِغُ وَقودَ الطّائرات في مختلف المِصَفّات التي نُصادفها في طريقنا: شارلستون، كارولاينا الجنوبيّة، تامبا، فلوريدا، كالفستن، تاكساس. كانت مهامّي، في البداية، تتحدّدُ في مسحِ الأرضية وإعدادِ الأسِرّةِ، وكان المصطلحُ التّقنيُ الذي يُعيّنُ هذه الوظيفةَ هو (شخصٌ للقيامِ بكلّ شيء)، غير أنّه كان يعني، في التعبير الشائع، تركيبةً تجمع بين عملِ البوّابِ، ومُفرِغِ صندوق القُمامة، وخادمة الفندق. لا أدّعي بأنّ تنظيفَ المراحيضِ أو جمعَ الجواربِ الوسخةِ عملٌ يستهويني، غير أنّي لمّا استَلَمتُ هذه المهمّةَ، اكتشفتُ أنّ سهولةَ هذا العملِ كانت لا تُصَدّقُ، كنت قد أتقنتُ كلّ الإتقان أعمالي في التّدبيرِ حدّ أنّي لم أكنْ أحتاج لِأكثرَ من ساعتين أو ساعتين ونصف لإتمام مَهامّي اليوميةِ. وكان هذا يترك لي وقتاً حُرّاً وفيراً، كنتُ أنفِقُ منه القسمَ الأكبرَ في حُجرتي وأنا أُطالِعُ، وأكتبُ، وأقوم بجميعِ ما كنت أقوم به من قبلُ، لكن رُبّما بطريقة مُثمِرةٍ أكثر، مع قدرةٍ كبيرةٍ جدا على التّركيزِ. أمّا الآن فأشياء قليلةٌ جدّا يمكنها أنْ تُسلّيني. كانت هذه العيشةُ تكاد تبدو لي مثاليةً،

مع كثيرٍ من الفراغاة، تكاد تكون حياةً مُمتازةً .

ثمّ بعد انصرام شهرٍ أو شهرين من هذا الأسلوب السّعيدِ في العيش، ثمّ الإستغناء عنّي. نادراً ما كانت السّفينةُ تُبحِرُ لِأكثرَ من خمسةِ أيامٍ بين ميناءين. وأينما كانت ترسو سفينتنا تقريباً، كان أفرادٌ من طاقمها يُغادرونها، وآخرون يُبحرون على متنها، وكانت المَهَامُ تُسنَدُ إلى البحّارةِ الجُدُدِ بحسبِ أقدميتهم. كان التراتبُ الإجتماعيُّ صارماً، فكلّما اشتغلَ المرءُ في الشّركة مُدّةً طويلةً، سُمِحَ له بإبداء رأيه، أمّا أنا الذي كنت أحتلُّ أسفلَ السُّلّمِ فلم يكن لي شيءٌ أبديه، وإذا كان بحّارٌ قديمٌ يرغبُ في مُزاولةِ عملي، فما عليه إلّا أنْ يطلبَه فيحصُلَ عليه. وبعد خُطْوَتي هذه التي طالت حيناً من الزمن، أزِفَتْ ساعةُ زوالها في مكانٍ ما من *تكساس*، كان بديلي شخصاً أعزبَ، ومُتزّمتا، وبلا مهارةٍ، يُدعى *إلمز*، أقدم وأشهر « شخص يمكنه القيام بكلّ شيء »، فما كنت أنجحُ في إتمامه خلال ساعتين، كان *إلمز* يُنهيه، من الآن فصاعداً، خلال سِتّ ساعاتٍ. كان أبطَأَ المتباطئين، شخصا بسيطَ العقل، ساذجَ الذهنِ، صموتاً، يترنّحُ من مقدّمةِ السفينة إلى كَوْثَلِها وهو يحيا في عالمٍ خاصٍ به، يتجاهله باقي أفرادِ الطاقم كلّ التجاهلِ، ولم أرَ فيما عشتُ، شخصاً يأكلُ مثله. يستطيع *إلمز* أنْ يلتهمَ جبالاً من الأكلِ، وكان يتزوّدُ، خلال كلّ وجبةٍ، مرّتين أو ثلاث مرّاتٍ، فليست شراهةُ شهيّتهِ هي ما يجعل من مُراقبته أمراً مُثيراً، بل طريقته في إشباعِ نَهَمِهِ: يحدث هذا برهافةٍ وتدقيقٍ مُفرطٍ وبحِسٍّ سامٍ في اللّباقةِ، وكانت عمليّةُ التنظيفِ، في الختام، أفضلَ لحظةٍ. كان *إلمز* حين يشبعُ، يبسُطُ منديلَه على المائدة أمامه، ويشرع في الطّبطبةِ على الورقِ الهشّ وتفليسهِ، وكان يُحوّله، بأناةٍ، إلى مُربّعٍ مُنبسطٍ، ثمّ يَطويهِ على أقسامٍ طُولية مُحدّدة، وهو يُقسّمُ السّطحَ، منهجياً، إلى قسمين، إلى أنْ ينقسمَ إلى ثمانية. كان المُربّعُ يصيرُ، في النّهاية، شريطاً طويلاً مُستقيماً ذا حَوافٍ أزيَعٍ

مصفوفةٍ بإحكامٍ. عندئذٍ كان *إلمر* يُمسكُ الجوانبَ باحتراسٍ، ويحمل المنديلَ إلى شفتيه، ويبدأ في المسح. كلّ هذا الفعلِ كان ينبُع من رأسه: حركة دائبة طويلة ودائرية كانت تدوم عشرين أو ثلاثين ثانية، كانت يَدا إلمر، من البداية إلى النهاية، ثابتتين، تظلان مرفوعتين، جامدتين، بينما كان يُديرُ رأسَه الضَّخمَ يَسرَةً ويَمنةً ثمّ يَسرَةً أيضاً، وخلال هذه المدّة لم تكن عيناه تَشِيانِ بأدنى فكرةٍ، ولا أدنى انفعالٍ. كان تنظيفُ الشفتين عمليّةً آليّةً مستمرّةً، سلوكَ تطهيرٍ شعائريّ. باحَ لي ذات يومٍ بأنّ الطّهارةَ صِنوةُ القداسةِ. يُدركُ المرءُ، وهو يراه بهذا المنديلِ، أنّه كان يُنجِزُ مُهِمّةَ الرّبّ .

وإذا ما سَنَحَتْ لي فُرصةُ مُراقبة عاداتِ مائدةِ *إلمر* عنْ قُرْبٍ، فلأنّني وُظِّفتُ من جديدٍ في غُرفةِ الخِدمةِ، كان العملُ بقاعةِ الطّعام يُضاعِفُ أوقاتي أربعَ مرّاتٍ، ويجعلُ حياتي كثيرةَ الحركةِ على العمومِ. تحدّدث مسؤولياتي، منذ الآن، في تقديمِ ثلاثِ وجباتٍ في اليومِ لأفراد الطّاقمِ (عشرون نفراً)، وغسلِ الأواني يدويا، وتنظيفِ قاعةِ الطّعامِ، وكتابةِ قائمةِ الطّعام لرئيسِ الخدَمِ الذي غالباً ما كان ثَمِلاً جدّاً بحيث لا يَتَجشّمُ عناءَ كتابتِها بنفسه. كانت أوقاتُ فراغي قصيرةً، ليس أكثر من ساعةٍ أو ساعتين بين الوجبات. وبالرّغم من أنّي كنتُ أعملُ أكثرَ من ذي قبلُ، فإنّ أجرتي قد تضاءلت حقّاً. كان لي مُتّسَعٌ من الوقتِ في عملي السّابقِ لِأعملَ ساعةً أو ساعتين إضافيتين مساءً، على سبيلِ المثالِ أكشِطُ، وأصبغُ في قاعات الآلاتِ، أو أزيلُ بُقَعَ الصّدأ من على الجِسرِ. وكانت هذه الأعمالُ التّطوّعيةُ تزيدُ، بسرورٍ، من راتبي. وبعد كلّ شيء، وبالرّغم من المساوئ، كنتُ أجدُ العملَ بقاعةِ الطّعام أكثرَ نشاطاً من مسحِ الأرضيةِ. كان عملاً شائعاً تقريباً. وفضلاً عنِ الانهماكِ في الشُّغلِ الذي صار يُطْلَبُ منّي منذ الآنَ فصاعداً، كان يتحَتّمُ عليّ أن أظَلّ في حالة تأهُّبٍ إزاءَ أفرادِ الطّاقمِ. كانت هذه، أخيراً، هي مُهِمّتي الأكثر أهمّيةً: أن أتعلّمَ

مُجابهةَ الاحتجاجاتِ والاعتراضات العُدوانيّةِ ومقاومةَ الإهانات، وردَّ الصّاعِ صاعاً .

كان الطّاقمُ على الأصَحّ، باستثناء *إلمر* غُضبةً من عناصرَ قذرين وأفظاظٍ، كان أكثرُهم يعيشون في *تكساس*، أو *لويزيانا* . وما عدا رهطاً من *التشيكانوس* (29)، و أسودَ أو أسودَيْن، وشخصاً غريباً بين الفينة والأخرى، فإنّ العنصرَ المُهيمنَ على متن السّفينةِ كان أبيضَ، مُزارعاً وعاملاً يدويّاً. كان الجوُّ جَوَّ فُكاهةٍ، مُترعاً بِقصصٍ طريفةٍ، وبِدُعاباتٍ بذيئةٍ، وأحاديثَ عن السّيّارات والأسلحةِ، غير أنّ زخماً هائلاً من العُنصريّةِ يقبَعُ بداخلِ العديدِ من هؤلاء الأشخاصِ، وكنتُ شديدَ الاحتِراسِ في اصطِفاءِ أصدقائي. فأنْ تسمعَ واحداً من رُفقائك في العملِ، خلال تناولك كأسَ قهوةٍ معه، يُنافِحُ عن الأبارتايد في إفريقيا الجنوبيّةِ (« هؤلاء القوم يعرفون كيف يُعاملون الزُّنوجَ »)، فإنّ هذا الكلامَ لا يَسُرُّك البتّة. وإذا ما كنتُ أوجدَ، في الغالب، بِصُحبةِ أولئك الذين كان لونهم داكناً، أو يتحدّثون بالإسبانيّة، فلأنّ ثمّة حكمةً صائبةً وراء هذا. كنتُ عيّنةً من صِنفٍ مجهولٍ على متن هذه السّفينةِ بوصفي يهوديّاً من نيويورك، مُزوّداً بشهادةٍ جامعيّةٍ، ساكناً من كوكبِ المِرّيخِ. كان يسهُلُ عليّ اختلاقُ القصصِ، غير أنّ هذا لم يكن يُغريني، فإذا ما كان شخصٌ يسألني عن ديانتي، أو مَنشئِي، فسأخبره بالأمرِ، وإذا لم يرُقه هذا، فأظُنُّ أنّ المشكلةَ مُشكلته. لن أُخفِيَ أصولي، ولنْ أتظاهرَ بأنّيَ كائنٌ آخرُ من أجلِ اجتنابِ المشاكلِ. وفي الواقعِ لم أشهدْ خلال كلّ هذا الوقتِ الذي أنفقْته هناك سوى مُواجهةٍ بغيضةٍ. كان أحدُ الأشخاصِ يأخُذُ في المُناداةِ عليّ ب *سامي* كلّما مرزتُ. كان يبدو أنّه يجِدُ الأمرَ طريفاً، وبما أنّني لم أستسِغْ دُعابةَ هذا اللّقبِ، طلبتُ منه الكفَّ عن هذا. ولمّا كان يُعاوِدُ في الغدِ، أدركتُ أنّ الكلامَ المُهذّبَ لا يكفي، فأمسكته من قميصهِ، وأسندته إلى الحائطِ، وخاطبْته بهدوءٍ

شديدٍ أنّه إذا ما واصلَ مناداتي على هذا النّحوِ، فإنّي سأقتُلُه. لقد صُدِمتُ وأنا أسمعني أتحدّثُ بهذه الطّريقةِ، فأنا لم أكنْ إنساناً عنيفاً، ولم يسبقْ لي، أبداً، أنْ وجّهتُ تهديداتٍ من هذا القبيلِ لأيٍّ كان، غير أنّ شرْيراً تملّكني خلال هذه النّزهةِ، ولِحُسنِ الحظّ فإنّ عزْمي على التّعاركِ استطاع نزْعَ فتيلِ التّشاجُرِ. رفعَ مُزعِجي يديه دليلاً على الصُّلْحِ، وقال: (لم تكنْ إلّا مُزحة، لا شيء غير مُزْحةٍ)، ولم نذهبْ أبعدَ من ذلك، بل أصبحنا صديقين فيما بعد .

أعشقُ أنْ أكون على الماءِ، محفوفاً بالسّماءِ والنّورِ فقط، في شساعةِ الجوِّ الخالي. أينما توجّهنا كانت النّوارسُ تُرافقنا، وهي تُحلّقُ عبر دوائرَ فوق رؤوسِنا، مُنتظرةً سِلالَ القُماماتِ التي كنّا نُفرِغُها من على جانبِ السّفينةِ. كانت تحوم عموديّاً على السّفينة بصبرٍ، خلال ساعاتٍ، تخفِقُ أجنحتُها بِوَهَنٍ حتى اللحظةِ التي تُتبَدّدُ فيها البقايا، وكانت، حينئذٍ، تغْطِسُ في الزّبدِ بشدّةٍ، وهي تصيح صياحاً حادّا يشبه صراخَ سكارى في مقابلةٍ لكرةِ القدم. قليلةٌ هي المُتعُ التي يُمكنها أنْ تُضاهي مشهدَ هذا الزّبَدِ حين يستقِرُّ المرءُ على كَوْثَلِ السفينةِ، (30)وهو يتأمّلُ، في الأسفل، جيشانَ هذا الزّبدِ الأبيضِ الصّاخبِ لِمُخورِ السفينةِ. ثمّة شيءٌ مُنوِّمٌ في هذا المكانِ. وبعد يومٍ هادئٍ يمكن للشّعورِ بالهناءةِ الذي يغْمُرك أنّ يكون مُسكِراً، ومن جهةٍ فإنّ لِلْجوِّ الرّديء سِحرَه أيضاً. وبينما كان الصّيفُ ينأى، والخريفُ يدنو، كثُرَتْ تقلُّباتُ الجوّ تُنذِرُ بِهُبوبِ رياحٍ عاتيةٍ، وأمطارٍ طوفانيةٍ، حينها لم تكن السفينةُ تمنحنا، البتّة، شُعوراً بالأمانِ، أوْ بالصّلابةِ مَثلُها كمَثلِ مركبِ طفلٍ من ورقٍ. ويكفي أنْ يكونَ الموجُ عَتِيّاً لِيَرى المرءُ ناقلاتٍ بِترولٍ تنشطرُ إلى شطرين. لقد حدثت أسوأ رحلة بحريّةٍ عندما كنّا بساحلِ *كاب هاتيراس* نهاية سبتمبر أو بداية أكتوبر، إذْ عشنا اثنتي عشرة، أوْ خمس عشرةَ ساعةً من اهتزاز السفينة وتَرَنُّحِها من أمامٍ ومن خلْفٍ وسطَ إعْصارٍ استوائيٍّ. لقد قضى القُبطانُ اللّيلَ

في القيادةِ، وحتى بعد جَلاءِ الشّكّ، وعندما كلّفني رئيس الخَدَم، صباح الغدِ، بإحضار الفطورِ إليه، كِدْتُ أطيرُ من على المشيِ عندما خرجتُ حاملاً الطَّبَقَ على ظهر السفينةِ. لاشكَ أنّ المطرَ كان قد توقّف، بيد أنّ الرّيحَ كانت ما تزالُ تعصِفُ بعُنْفٍ وقد صارت ريحاً زُغزعاً .

وبالرّغم من كلّ هذا، فإنّ العملَ على متن *إسّو فلورنسا* لم تكن له علاقةٌ كبيرةٌ بالمغامرةِ في أعالي البحارِ. كانت النّاقلةُ البتروليّةُ، أساسا، معمَلاً عائماً، وعِوض أن يجعلني أكتشفُ عيشةً غريبةً ومُغامِرةً، فإنّه علّمني أن أعتبرَ نفسي عاملاً في الصّناعةِ، كنت واحداً من بين ملايين، وصِرْتُ، منذ الآن، حشرةً مُتعلّقةً بمهمّتِها إلى جانب حشراتٍ أخرى لا تُعَدُّ ولا تُحصى. وكلُّ واحدةٍ من المهامّ التي كنت أنجزها، كانت تنتمي إلى مشروعِ الرّأسماليّةِ الأمريكيةِ الهائلِ والسّاحقِ. كان البترولُ المَورِدَ الأوّلَ لِلثراءِ، والمادّةَ الأوليّةَ التي تُغَذّي آلةَ الرّبحِ، وتضْمَن اشتغالَها. وكنتُ أشعُرُ بالسّعادة في المكانِ الذي كنت فيه، مُفتتناً لأنّي رسوْتُ في بطن الوحش. كانت المِصَفّاتُ التي كنّا نشحَنُ منها ونُفرِغُ فيها حمولَتنا، كانت بِنياتٍ ضخمةً جهَنّمِيةً، شبكاتٍ مَتاهيةً من أنابيبَ صافرةٍ، وأبراجٍ من النّارِ، وحين نتجوّلُ ليلاً في واحدةٍ منها، يَنتابُنا إحساسٌ بأنّنا نعيشُ في قلبِ أسوإِ أحلامنا. ولن أنسى أبداً، بوجه خاصّ، المئاتِ من الأسماكِ النّافِقةِ تقزُّحاً التي كانت تطفو على الماء الزَّنِخِ المُترَعِ بالزّيتِ الذي يكْتَنِفُ أرصِفَةَ المصفّات. كانت لجنةَ الاستقبالِ الثابتةَ، والمشهدَ الذي كان يُرحّبُ بنا كلّما كانت سفُنُ القَطْرِ تجرُّنا في مَرْفَإٍ. كانت القذارةُ من الشّمولِ، ومن الارْتباطِ العميقِ بالنّشاطِ الرّبحِيّ، وبالسّلْطةِ التي يهبُها المالُ لِلّذين يحصلون عليه - إلى الحدّ الذي تُشَوّه فيه المناظرَ الطبيعِية، وتُخرّبُ فيه العالمَ كلّ التّخريبِ – لدرجة أنّها شرعت، على الرّغم منّي، توحي إليّ بنوع من الاحترام. قلت في نفسي، إذا ما نظرنا إلى الأشياء في كُنْهِها،

فسنجدُ العالمَ والقذارةَ مُتشابهين، وكيفما كان تصوُّرنا عنها، فهذه القذارةُ هي الحقيقة .

كلّما كنّا على رصيفِ بحرٍ في ناحية ما، كنتُ شديد الحِرصِ على مُغادرة السفينة وقضاءِ وقتٍ مُعيّنٍ على اليابسةِ. لم تكن قدماي قد وَطِئتا أبداً جنوب خَطّ *ماسون ديكسون* (31). قادتني هذه النُّزهاتُ القصيرةُ في اليابسةِ إلى أماكنَ أقلّ ألفةً ووضوحاً بكثيرٍ من كلّ ما كنتُ أستطيع مصادفتَه في *باريس* أو *دبلن*. كان الجنوبُ موطناً آخرَ، عالَماً أمريكياً يختلفُ عمّا كنت عرفته في الشّمالِ. كنتُ أُنقادُ، في غالب الأحيان، لِمَشيئةِ صديقٍ أو صديقين من زُملائي. وكنتُ أُضحِكُهما في جولةِ ملاجِئِهما المُعتادةِ. وإذا ما كنت أُبصِرُ ثانية *بايثون* و *تكساس* بوضوحٍ خاصّ، فلأنّنا أمضينا فيهما وقتاً أكثر من أيّ مكانٍ آخر. كانت بَلْدةٌ صغيرةٌ تلوحُ لي حزينةً وقد زال المِلاطُ عن جُدُرِها. على طول الشارعِ الرّئيسِ كانت سِلْسلةٌ من دورِ السينما التي كانت أنيقةً في ما مضى، قد تحوّلَتْ إلى كنائسَ مَغمدانيّةٍ، وبَدَلَ من إغلانها عن العناوين الأخيرةِ لِأفلامِ هوليود، فإنّ أظنافَها كانت تغرِضُ ، من الآنِ فصاعداً، نُصوصاً توراتيّةً وَهّاجَةً. كنّا، في غالبِ الوقتِ، نبلُغُ حاناتٍ يَغشاها بحّارَةٌ في مُؤَخّرِ أزقّةِ أحياء وضيعةٍ. كانت جميعُها متشابهةً إلى حدّ كبير، إنّها حاناتٌ مشبوهةٌ قذِرَةٌ، يزتادُها أصحابُ السّوء، دورٌ مُغتِمّةٌ، زوايا الإهمالِ مُشبعَةٌ بالرُّطوبةِ، كان كلُّ شيءٍ في داخلها فارغاً دائماً، ليس على الحيطان صورةٌ واحدةٌ، تَغدَمُ أقلّ لفسَةٍ من لَمساتِ حرارةِ الإستقبالِ. وفي أحسن الأحوالِ كان ثمّة بِلْيارْ سيّءٌ، وآلةٌ مَخشُوّةٌ بموسيقى الكونتري، وبطاقة لا يظْهرُ فيها إلّا مشروبٌ وحيدٌ: البيرة .

ذات يومٍ كانت فيه السفينةُ في حَوْضِ تزميمِ السُّفنِ من أجلِ إصلاحاتٍ بسيطة، قضيتُ الظهيرةَ في إحدى هذه الحاناتِ رُفْقةَ ملّاحٍ دنماركيٍّ يُدعى

نيدي، مجنون كان يضحك لِأتفهِ إثارةٍ، وكان يتحدث الإنجليزيَة بلَكْنةٍ حادَةٍ جداً، بحيث إنّي بالكاد أتبيّنُ ما كان يقوله، وفيما كنّا نمشي في الشارعِ تحت شمسِ *تكساس* المُبهرةِ، التقينا زوجين ثمِلَين. كان النهار ما يزال قائماً، غير أنَ هذا الرَجُلَ وهذه المرأةَ كانا قد أفرطا جدّاً في شُرْبِ الخمرةِ منذ فترة، والإعتصام بسُكرِهما، بحيث يلزم أنْ يكونا قد طفِقا يشربان منذ الفجر، كانا يتَرنّحانِ على الرَصيفِ، وكانت ذراعاهما مُتشابكتين، و رأساهما مُرتَجّين، ومفاصلُهما رَخْوةً، يتمايلان هنا وهناك. ومع ذلك كان كلُّ واحدٍ منهما يجد في نفسه فضلاً من الطّاقةِ والجهدِ لِلتورُّطِ في شجارٍ شَرِسٍ وبذيءٍ. قدّرتُ من خلال نبرةِ صوتيهما أنّ سنينَ قد مضت عليهما، وهما على هذه الحالِ. هذان الزّوجان المُتشرّدان يتعثّران بحثاً عن كأسٍ أخرى، يتشاجران باستمرارٍ، وهما يُرَدّدان الأجوبةَ ذاتَها، يلعبان دائماً الملهاةَ نفسها الدّاعيةَ لِلشفقةِ. شاءت المُصادفةُ أنْ يَغْشَيَا البارَ الذي كنت عَزَمتُ أنا و تيدي أنْ نُنفِقا فيه الظهيرةَ، وبما أنَ أمتاراً قليلةً كانت تفصِلُني عنهما، فإنّي كنت في وضْعٍ جيّدٍ لِمُتابعةِ المأساة الخفيفة التاليةِ :

مال الرّجلُ صوب المرأةِ الجالسةِ قُبالته:(صاح الرّجلُ بصوتٍ فاترٍ مخبولٍ: ألاَ هُبّي واطلُبي لي جُعَةً).

كانت *دارلين* قد شرعت تَغفو لِلتوِّ، ويَلْزمُها بعضُ الوقتِ لِتفتحَ عينيها، وتُحدِّقَ بنظرها في الرّجلِ. مرَّ أيضاً وقتٌ آخرُ ثُمَ قالت: (ماذا ؟).

(كرّرَ الرجلُ: اُطلُبي لي بيرةً، وأسرِعي في ذلك).

كانت دارلين قد أفاقت الآن، وبغتةً أوْمَضَ في وجهها شفَةَ عجيبٌ – وأنا أدوِّنُ هذا على بطاقةٍ – ولم تكن تشعُر بنفسها، عَلَناً، أنّها مُستعدّةٌ للإستسلامِ لِمَنْ يَنكّدُ عليها .

(رشقته قائلة: إذهَبْ بنفسك يا *شارلي*، ألا تعلَم بأنّي لستُ أمَتَك)

(أجاب *شارلي*: باسم الرّبّ يا عزيزتي، ألستِ زوجتي؟ لماذا تزوجتكِ ؟ هيّا اطلُبي لي بيرةً، بِئسَ المرأةُ أنتِ) .

تنَهّدت *دارلين* تَنَهُّداً صاخباً مُصْطَنعاً، كنّا نرى أنّها كانت تُدَبّرُ أمراً ما، غير أنّ مقاصدَها ظلّت غامضةً .

(قالت: سفعاً يا عزيزي، وهي تتصنّعُ صوتَ زوجةٍ ذَلولٍ ومِغْناجٍ، سأطلبُها لك). وقامتْ وهي تتمايلُ حتّى الحانةِ .

ظلّ *شارلي* جالساً، طَلْقَ المُحَيّا، مُبتهجاً بنصرهِ الصّغيرِ الذّكوريّ، لا مِراءَ في كونه السّيّدَ، ولا أحد يُعاكسه في شيء. وإذا ما كان المرءُ يرغبُ في معرفةِ من كان الآمِرَ في هذه الأسرةِ، فما عليه إلّا أنْ يطرحَ السّؤالَ على *شارلي* .

وما هي إلّا دقيقة حتى عادت *دارلين* إلى طاولتهما مع زجاجة بود باردةٍ. قالت: (ها بيرتك يا *شارلي*، وبِحركةٍ سريعةٍ من يدها بدأتْ تُفرِغُ مُحتوى الزّجاجةِ على رأسِ زوجها، شكّلتِ الرّغْوَةُ فقاقيعَ غطّتْ شَعَرَه وحاجبَيْه، كانت سواقي من سائلٍ عَنبَرِيٍّ تنحدرُ من وجههِ. اِرتمى نحوها، غير أنّه كان ثَمِلاً جدّاً بحيث لم يُدرِكْها. ردّتْ *دارلين* رأسَها إلى الوراءِ، وانفجرتْ ضاحكةً وهي تتساءلُ: (تُعجِبُك بيرتُك يا *شارلي*؟، تُعجبك بيرتك رديئةُ النّوعِ ؟) .

ومن بين جميعِ المُشاحناتِ التي كنت شاهداً عليها في الحانات، ليس هناك منها، حقّاً، ما يُمكن مُقارنته بِمَلْهاةِ تغميدِ *شارلي* التي تدعو لِلرّثاءِ. لكن لكي أضرب مثلا على الغرابة الشّاملة – وهذا بمثابة غوْصٍ في العمق السّحيقِ لِلغريب – يتوجّبُ عليّ ذِكْرُ بيعِ *ماريس بلاس* في *تامبا* بولاية فلوريدا، كانت بنايةً فسيحةً مُضاءةً بامتياز، كانت تُرضي نزواتِ عُمّالِ أحواض السّفنِ والبَحّارةِ، وكانت توجد منذ سنواتٍ عديدةٍ، ومن بين ما تُغري به وجود نصْفِ

دزينةٍ من طاولات البليارِ، وحانة رحيبة من خشب الأكاجو، وسقوف ذات عُلُوٍّ عجيبٍ، وعَرْض مُستمرّ تُؤدّيه راقصاتٌ شبه عارياتٍ. هؤلاء الرّاقصاتُ كُنّ عِمادَ العمليّةِ ورُكنَها، العنصرَ الذي كان يُميّزُ *بيغ ماريس* عن جميع البنايات الأخرى. وكان إلقاءُ نظرةٍ يكفي للتأكّدِ من أنّ استخدامهُنّ لم يكن بسببِ جمالهنّ فحسبُ، بل بسببِ مواهبهِنّ في الرّقصِ. كان الوزنُ هو المعيارَ الوحيدَ. فمن الأفضل أن يكُنّ بديناتٍ كما تُغلِّنُ *بيغ ماريس*، وكلّما زاد وزنهنّ، زاد أجرُهنّ. كان هذا العملُ، بالأحرى، مُزعجاً، كان استعراضاً لِلضّخامةِ، وموكباً لِلّحمِ الأبيض الطّافرِ، وبينما كانت أربعٌ منهنّ يرقُصن معاً على المِنصّة خلف الحانةِ، كان العرض يُذكّرُنا بتجربة أداءٍ لاختيار دور العنوانِ في رواية *موبي ديك* . كانت كلّ راقصةٍ قارّةً في حدّ ذاتها من الوَدَكِ المُختَلِجِ يُزيّنها تُبّانٌ مُرهفٌ كاشفٌ(سترينغ)، وبما أنّ الفِرَقَ تستمرّ في التّتابع، فإنّ العيونَ كانت تتعرّضُ لغاراتٍ بلا هوادةٍ. لا أتذكّرُ أبداً كيف كنت وصلتُ إلى هناك، غير أنّي أتذكّر، بوضوح، أنّ رفيقيّ في هذا المساء كانا شابّين من ألْطَفِ مَنْ كان على السفينة (*مارتينيث*، ربُّ عائلةٍ من *تكساس*، و *دوني*، شابٌ في السابعة عشرة ينحدر من *باتون روج*). وكانا هما الآخران مُنذهلين أيضا مثلي، مازلت أراهما جالسينِ قبالتي وقد فَغَرَا فمَهما. يُجْهِدان نفسيهما، ما وَسِعَهما الإجهادُ، كي لا يضحكا من فرْطِ الحَيرةِ والإضطراب. وفي لحظة ما، جاءت *بيغ ماري* شخصيّا للجلوس إلى طاولتنا، إنها امرأة رائعةٌ مِطْواعةٌ ترتدي سِترةً برتقاليةً، وتضع في كلّ إصبع خاتماً، كانت تريد معرفةَ إذا ما كنّا نرغب في اللّهو، وبما أنّنا أكّدنا لها رغبتنا في ذلك، فإنها أوْمَأتْ إلى واحدة من الفتيات اللّواتي كُنّ في الحانةِ. صرخت بصوت جهوري وأجَشّ لشخصٍ يُدخّن ثلاث عُلَبٍ في اليوم: (تَعالي يا ثقيلةَ الأزدافِ ها هُنا)، جاءتْ *باربارا* مُبتهِجةً، ومُبتسمةً كلَّ الإبتسامِ، ضاحكةً حين كانت تغرِزُ *بيغ ماري* إصبعَها في كِرْشها، أوْ تَقْرُصُ الشّحومَ الوفيرةَ التي تَحُفُّ بقامتها. (شرحتْ *ماري* بأنّها كانت شديدةً

النحافةِ في البدايةِ، لكنني سمّيتُها جيدا، أليس كذلك يا *بربارا*؟)، أضافت وهي تَنِقُّ كعالِمِ مجنونٍ أنجز تجربةً بنجاحٍ، وكانت *باربارا* تُشاطِرُها الرّأيَ. ظننتُ، فجأةً، وأنا أسمعُهما يتحدّثان، بأنّي كنت أخطأت تماماً، فأنا ما كنتُ ركِبتُ البحرَ، بل كنت ذهبت لِلْعمل في سيزلِ .

كان لي صديقٌ آخرُ هو جيفري طَبّاخٌ من الدّرجة الثانية، (يُدعى أيضاً الطّاهي الأولُ لوجبة الفطور)، ينحدر من *بوغالوسا* بلويزيانا، واتّفق أنّ ولادتنا كانت في اليوم ذاته. و ما عدا دوني الأصغر، فإنّنا كنّا أصغرَ أعضاءِ الطّاقم. وكانت المرّةُ الأولى التي كنّا نُبحرُ فيها كلانا، وماذمنا كنّا نعمل معاً في غرفة الخِدمة، فإنّنا كنّا انتهينا إلى أنْ نتعارَف تعارُفاً حسناً. كان جيفري من هؤلاء الأشخاصِ الذين تبتسمُ الحياةُ لهم – ذكيّاً، ووسيماً، وعاشقاً لِلنّساء، مُحِبّاً لِلّهوِ، وارتداء ملابس جذّابة – ومع ذلك فهو طَموحٌ وعَمَلِيّ جدّا، ماهِرٌ في التخطيط، وواقِعِيٌّ، كان يستغِلُّ عمَلَه في السفينة بوعيٍ كبيرٍ كي يتعلّمَ مداخلَ الطّبخِ ومخارجَه، لم تكن له النّيّةُ أبداً في أنْ يكونَ طاهياً مُتألّقاً وهو على مثن ناقلاتِ البترول، ولا الرغبة في أنْ يشيخَ وهو يركبُ البحرَ، كان حُلْمُه أنْ يصيرَ الطّاهيَ الأوّلَ في مطعمٍ من درجةٍ عاليةٍ، لا بل أنْ يصيرَ مالكَ هذا المطعمِ، وإذا لم يحدثْ أمرٌ طارئٌ يمنعه من تحقيقِ هذا الحلمِ، فإنّي لا أرتاب بأنّ هذا هو ما يقوم به الآن بالضبط. ما كنّا لنكونَ مُختلفين أنا و جيفري، غير أنّنا كنّا مُتفاهمين كثيراً. كان من الطبيعي أنْ نترجّلَ، أحياناً، معاً، حين تكون السفينة راسيةً. إلّا أنّ جيفري، بما أنه كان أسودَ، وبما أنه كان قد عاش عمرَه كلّه في الجنوب، فإنه كان يعرف أنّ أماكن كثيرةً كنتُ أغشاها صحبةَ أشخاصٍ بيضٍ من الطّاقم، كانت مُحَرّمةً عليه. لقد وضّح لي هذا الأمرَ جليّاً في المرّة الأولى التي كنّا عزمنا فيها على القيام بِخرجةٍ. قال: (إذا كنتَ ترغبُ في أنْ أرافِقَك، ينبغي أنْ تذهبَ إلى المكان

الذي أستطيعُ الذّهابَ إليه). حاولتُ إقناعه بأنّه كان يستطيعُ، حقّاً، الذهابَ إلى حيث يريدُ، لكنّ جيفري لا يريد أنْ يقتنعَ. يقول: (ربّما هنالك في الشّمال، أمّا هنا فالأمرُ مُختلِفٌ)، ولم أكنْ لِأُلِحَّ. حين كنتُ أذهب لإختِساءِ بيرةٍ رُفْقةَ جيفري، كنّا نحتسيها في بارٍ لِلسّودِ، لا في بارٍ لِلْبيضِ، وما خَلا لونَ بشَرَةِ الزّبائن، فجوُّ المَرَحِ كان واحداً .

ذات مساءٍ *بهوستون*، أقنعني جيفري بمرافقته إلى نادٍ لِلرّقصِ. لم أكنْ أرقصُ أبداً، ولم أكنْ أختلِفُ إلى النّوادي أبداً، غير أنّ فكرةَ قضاء سَوَيعاتٍ في مكانٍ لم يكنْ حانةً مشبوهةً حقيرةً هي فكرةٌ تُغريني، فَعَزمتُ على أنْ أجرّبَ حَظّي. كان النّادي الذي نحن بصدده قاعةَ ديسكو مُذهِشةً، كان المئاتُ من الشّبابِ يحتشِدون فيه، كان العُلبةَ اللّيليةَ الأكثرَ التهاباً في المدينةِ، وكان يوجد على خشبته جوقٌ حقيقيٌّ، وأضواءٌ مُخَدّرةٌ سريعةُ الدّورانِ والتّردُّدِ، كانت ترتَدُّ من حائطٍ إلى آخر، وكانت الكحولُ تُقَدَّم في الحانة، وكان الجنسُ والفوْضى والموسيقى التي تَصُمُّ الآذانَ تَرِينُ على كُلِّ شيءٍ. كانت حُمّى مساء السّبتِ على طريقة *تكساس* .

كان جيفري في أزهى ثيابه، وفي أقَلّ من أربعِ دقائقَ كان يغقِدُ الحديثَ مع واحدة من الغانياتِ العديداتِ الحسناواتِ اللّائي يَحُفن حول الحانةِ، وما هي إلّا أربعُ دقائقَ حتّى كانا في حَلْبةِ الرّقصِ، ضائعين في محيطٍ من الأجسادِ. جلستُ في طاولةٍ، وشرعتُ أرشُفُ كأسي، أنا الأبيضُ الوحيدُ في هذه البنايةِ، لا أحدَ خاصمني أو تحدّاني، إلّا أنّني كنتُ أُحسّ بنظرةٍ غريبةٍ ومُخْتَرِقةٍ تُوَجّه إليّ مِنْ قِبلِ عددٍ لا بأس به من الأشخاصِ. وعندما فرغتُ من مشروبي الويسكي، أدركتُ أنّ من الخير لي أنْ أنسحبَ. هاتفتُ سيّارةً أجرةٍ، وخرجتُ لإنتظارها في مؤقفِ السّيّاراتِ. وعندما وصل السّائقُ بعد مُضِيّ دقائق، شرع في الشّتمِ، وكان يقولُ: (يا اللّه إيا اللّه ! بئس المكانُ ! لو

كنتُ أذري أنّك تُنادي عليّ من هنا، لما كنت جِئتُ)، وسألته: (لماذا؟)، فقال: (لِأنّه أكثرُ أمكنةِ هوستون قذارةً وسوءاً، قُتِلَ ستّةُ أشخاصٍ هنا في الشهر الماضي، وفي نهاية كلّ أسبوعٍ ثمّة شخصٌ يتعثّرُ هنا) .

في الختام، كانت الشهورُ التي أنفقتُها على متنِ السفينةِ تبدو لي طويلةً كما لو أنّها سنواتٌ. حين نكون في البحر ينصَرِم الزمن بطريقةٍ مغايرةٍ، وإذا راعينا بأنّ مجموعَ تجاربي كانت حديثةً تماماً بالنّسبةِ لي، ما كان يجعلني أحترِس باستمرارٍ، فإنّي راكمتُ مِقداراً هائلاً من المشاعرِ والذكرياتِ في فترةٍ وجيزةٍ، نِسبيا، من حياتي، وما زلت اليوم لا أفهم جيّدا ما كنت أتوخّى إثباتَه وأنا أنجِزُ على هذا النّحوِ، أ كان أنْ أظلّ فاقِداً توازني كما أعتقد ؟ أمْ لِأُظهِرَ، ببساطةٍ، أنّي كنت قادراً على أنْ أكونَ في مستوى عالَمٍ لم أكنْ أنتمي إليه. وأخسِبُ، في هذا الشّأن، أنّ هذه التجربةَ لم تكن فاشلةً. ليس بِوُسعي أنْ أتحدّث عمّا أنجزته خلال هذه الشّهورِ غير أنّي مُتأكّدٌ، في الوقت ذاته، بأنها لم تكن فاشلةً .

حصلتُ على أوراقِ تسريحي في *شارلستون*. كانت الشّركةُ تُؤدّي تذكرةَ الطّائرةِ لِيعود المرءُ إلى بيته، لكن بإمكانه تسلّمَ المال وتدبيرَ عودته كما يشاءُ. كانت الرّحلةُ عبر القطار البطيء تدوم أربعَ وعشرين ساعةً، كنت أمضيتها رُفقةَ عُنصرٍ نيويوركيّ آخر من الطّاقمِ يُدعى *خوان كاستِيو*. كان *خوان* في عامه الخمسين، دَخداحاً(32)، مُحَدّباً، ذا رأسٍ ضخمٍ، ووجهٍ يبدو مزيجاً من قُشورٍ وألْبابٍ تسعَ عشرةَ بطاطا وقد صارت عصيدةً. كان قد أتمّ رِحلتَه الأخيرةَ على متن ناقلةٍ بترولِيّةٍ، واعترافاً منها بِقضائه خمسةً وعشرين عاماً في الخدمة، كانت *الإيسو* قد أهدته ساعةً من ذهبٍ. لا أدري عددَ المرّات التي أخرج فيها *خوان* الساعةَ من جيبه لِيَتأمّلَها خلال رحلةِ العودةِ الطّويلةِ، كان يهُزُّ رأسَه لِبِضْعِ ثوانٍ ثمّ ينفجر ضاحكاً. وفي لحظةِ مَا يتوقّف المراقبُ

لِيَتَزَيّنَ معنا عند عبوره القفزَ المركزيّ. كان يبدو في زيِّهِ الموَحّدِ عظيمَ الهيئةِ، وأتذكّرُه رجلاً مُهَذّباً أسودَ من الجنوبِ يُجسّدُ أسلوباً تقادم عهدهُ، ذا نبرةٍ مُتعاليةٍ، قليلَ التسامحِ، بدأ الحديثَ وهو يسألُنا: (أيّها الشّابّان أتصعدان إلى الشمال من أجل العمل في مصانعِ الفولاذ ؟) .

كنّا نُشكّلُ، أنا و خوان، ثُنائياً طريفاً، أتذكّر أنّي كنت أرتدي بذلةً جِلديةً بالية في تلك الفترةِ، لكن ما خلا ذلك، فإنّي لا أتذكر شيئا عن ذاتي، ليس لي أدنى فكرة عن الكيفية التي كنتُ أبدو عليها، ولا عن انطباعات النّاس عنّي حين كانوا ينظرون إليّ، إنّ سؤال المُراقبِ هو الإشارة الوحيدة التي أملكها. كان خوان قد أخذ صُوراً لِزملائه على السّفينة يحتفظ بها في ألبومه العائليّ، وأتذكر أنّي كنت واقفاً على ظهر السفينة وأنا أحدّقُ في عدسة آلتهِ، بينما كان يضْغط على الزِّنْدِ، وكان قد وعدني بأنْ يبعثَ لي نُسخةً من الصورةِ غير أنّه أخْلَفَ وعْدَه .

راودتني فكرةُ الذهاب في رحلةٍ جديدةٍ على مثن ناقلة بترولية من شركة إيسو، لكنّني عدلتُ عنها في النهاية. مازالت أجرتي تُرْسَلُ إليّ عبر البريد (من أجل يومين أمضيتهما على متن السفينة، فإنّي كنتُ أحصلُ، وأنا على اليابسة، على أُجرة يومٍ)، وكان حسابي البنكيّ قد بدا يظهر لي راسخاً مَكيناً، ومنذ بضعة شهورٍ، استخلصت، بتمهُّلٍ، أنّ مسعايَ القادمَ ينبغي أنْ يرتكزَ على مُغادرةِ البلدِ والعيشِ لِحينٍ من الوقت في الخارج. أشعُر أنّي جاهزٌ لِلْإبحار من جديدٍ إذا كان الأمر يقتضي ذلك، لكنّي تساءلت عمّا إذا لم أكُنْ قد جمعتُ، سلفاً، مبلغاً ماليّاً مُرْضِياً. كانت الثلاثة آلاف أو الأربعة آلاف دولار التي كنت حصلت عليها من عملي على متن الناقلة، تبدو لي كافية للشّروع في الرّحيل، وعوضَ أنْ أستمرّ في البحرية التجارية، كنت غيّرت، فجأة، الوِجهةَ، وبدأت في ترتيب رحلةٍ إلى باريس .

كان اختيارُ فرنسا منطقياً، غير أنّي لا أعتقد أنّي قصدتها لأسبابٍ منطقيةٍ. إن واقعةَ تحدُّثي باللغة الفرنسية، وترجمتي للشِّعر الفرنسيّ، ومعرفتي وتقديري لِعددٍ مُعيّنٍ من الأشخاص الذي يقطنون بفرنسا، إنّ من المُؤكّد أنّ هذه الأمورَ جميعَها تدخّلت في اتخاذ قراري، لكنّها لم تكن العاملَ الحاسمَ فيه. أعتقد أنّ ما كان يُغريني بالذّهاب إلى باريس هو ذِكرى ما كان قد جرى لي فيها قبل ثلاث سنواتٍ. كانت هذه الذكرى ما تزال تَثوي بداخلي، وبما أنّ هذه الإقامةَ لم تكتمِلْ، فإنّي كنت عُذتُ منها بيقينِ العودةِ إليها عاجلاً. كان الإحساسُ بعدمِ اكتمالِ مشروعي يُلاحقُني، وكذلك الشّعورُ بأنّي لم أنَلْ منه ما كنت أتمنّى. كان الشيء الوحيد الذي كنت أرغبُ فيه، خلال هذه الفترة، هو أنْ أباشرَ الكتابة بِجِدّيةٍ، وأنْ أستعيدَ جَوانيةَ، وحُرّية ذلك الزّمنِ. كنت أتمنّى أن آخذ مكاني في أفضلِ الشّروطِ المُمكنة لتحقيقه، لم تكن لي أيُّ نيّةٍ في أنْ أصيرَ مُغتَرِباً، ولم يكنْ هَجْرُ أمريكا جزءا من خُطّتي، ولم أنْوِ في أيّ لحظة ألاّ أعودَ إليها، كنت في حاجة، فقط، إلى مكانٍ أتنفّسُ فيه، إلى فُرصةٍ أتأكّد فيها، لِلْمرّةِ الأخيرةِ، إذا ما كنت، حقّاً، الفردَ الذي كنت أحسبُني إياه.

إنّ الذكرى الأكثرَ رسوخاً التي أحتفظ بها عن أسابيعي الأخيرةِ في نيوييورك هي ذكرى وداعي *لِجو ريلّي*، إنّه شخصٌ بلا مأوى، كان من عادته التّسكُّعُ في بهو عمارتي الكائنة ب 107 شارع الغرب، كانت عمارةً قديمةً من تسعة طوابق تأوي جماعةً من أخلاطِ الناس، شأنها شأن ساكنةِ المنطقة الغربية العليا تقريباً. أستطيع، من دون أيّ عناءٍ، تذكُّرَ عددٍ لا بأس به من الأشخاص كافّة حتّى بعد انصرامِ ربعِ قرنٍ. أتذكّر على سبيل المثالِ مُستخدَمَ البريدِ من بورتو ريكو، والنّادل في المطعم الصّينيّ، ومغنّية الأوبرا الجسيمةَ الشّقراءَ في *لاسا أبسو*، ولا أنسى رسّامَ الموضةِ الأسودَ و المِثليّ بمعطفه من الفَرْوِ الأسودِ، كما لا أنسى عازفي الكلارينيت، مُجبّي الخصامِ الذين

كانت مُشاجراتهم الفقيتةُ تُعكّرُ صَفوَ ليالي، وهي تخترقُ جدرانَ شُقتي. كان أحدُ المساكنِ في الدّورِ الأرضي من هذه العمارة ذات الحجارة الرّماديّةِ، مُقسّماً إلى قسمين، وفي كلِّ قسمٍ كان يُقيمُ به رجلٌ على كرسيّ متحرك، كان أحدُهما يعمل في كشكِ الجرائدِ بزاوية *برودواي* والشارع 110، أمّا الآخرُ فكان حاخاماً مُتقاعِداً. كان هذا الحاخامُ شخصاً رائعاً بوجهٍ خاصٍ، له لِحيةُ فنّانٍ صغيرةُ ودقيقةُ، يَعتَمِرُ قبّعةً سوداءَ لا تبرَحُ رأسه، كان يضعها على أذنه بِمَرَحٍ سفحٍ، يكاد يخرج كلَّ يومٍ من مسكنه وهو على كرسيّه المتحرّكِ، لِيَصْرِفَ وقتاً بالبهوِ يتحدّث مع *آرثور* البوّابِ، أو مع أحدِ المُستأجرين الذي يدخلون المِصعدَ أو يخرجون منه. ذات يومٍ وقد دَلَفْتُ إلى العمارةِ، لمحته عبر الباب الزّجاجيّ في مكانه المُعتادِ يتحدّث مع مُتشَرّدٍ يرتدي مِعطفاً واقياً طويلاً داكناً. أذهلتني غرابةُ هذا الإقتِران، غير أنّي، وأنا أنظر وضعَ المُتشردّ وتعبيرَ الحاخامِ ، أدركتُ أنهما كانا يتعارفان جيداً. كان المُشرّدُ مُغدَماً حقيقيّاً، سِكّيراً يطفحُ وجههُ بالقِشرِ، إنساناً مُحطّماً ومُصاباً بداء التهاب الغُدَدِ اللّمفويّةِ، ملابسُه قذرةٌ، نصف رأسه أصلعُ، تغمُرُه النّدوبُ، يبدو كأنّه خارجٌ من مجاري الصَرفِ الصّحيّ. صاح بجملةٍ تصحبُها حركاتٌ مُشوّشةٌ، ومسرحيّةٌ، وحركةٌ دائريّة من الذّراع اليُسرى، وإصبعٌ من اليد اليُمنى مرفوعٌ إلى السّماء، سيلٌ من الكلمات لمْ أصدّقْ في البداية أنّي سمعتها من فرطِ غرابتها، وشِدّةِ مفاجأتها، « لم يكن لقاءً عابراً فقط »، قالها وهو يُدير في لسانه كلَّ مقطعٍ من هذه الجملة المُزخرفةِ والأدبيّةِ بمُتعةٍ بالغةٍ شبيهةٍ بِبَراعةِ مُتكبّرٍ، أو تشدّقٍ من شدّة روعته كنت تخال أنّك في حضْرَةِ مُمثّلٍ فاشلٍ مأساويٍّ في قلْبِ ميلودراما فيكتوريّةٍ. كان تجسيداً حقيقيّاً لِلممثّلِ ف.س.*فيلدز*(33) ، مع فارقٍ أدنى في تقاسيمِ صوتٍ أشدّ حزماً، وأشدُّ تحكّماً في التّأثيرات التي كان يتوخّى إحداثها، ربّما يُجسّد ف. س. *فيلدز* ممزوجاً *برالف*

ريتشاردسون(34) مع أثرٍ من كلامٍ مُفخَمٍ يجري في الحقارات، ومهما كان التعريف الذي يمكننا أنْ نُعرّفه به، فإنه لم يسبق لي أبدا أنْ سمعت صوتا يقوم بما يقوم به هذا الصوتُ .

حين اجتَزْتُ الرّدهةَ للسّلام على الحاخام، قدّمني إلى صديقه، وعلى هذا النحو عَلِمتُ باسمِ هذا الشخصِ الغريبِ، كبيرِ الأشخاصِ المُهذّبين السّاقطين، جو *ريلّي* نَسيج وَحدِهِ .

وبحسبِ الحاخامِ الذي روى لي، فيما بعد، تفاصيلَ القضّةِ، كان جو قد بدأ حياتَه بوصفه الابنَ المُفَضّلَ لعائلةٍ نيويوركيةٍ ثريّةٍ، كان يملك، في شبابه، رُواقاً للفنّ في شارع *ماديسون*. في هذه الفترة كان الحاخام قد التقى به، وذلك في زمنٍ بعيد قبل انهيارٍ وخرابٍ جو. كان الحاخام قد توقّف، منذ فترة، عن مُزاولةِ وظيفته في هذه الأثناءِ، وكان يُديرُ داراً لإضدارِ الموسيقى. كان عشيقُ جو مُؤَلّفاً موسيقيا، ومادام الحاخامُ كان يُضدِرُ أعماله، فمن الطبيعيّ أنْ تتلاقى مسالكُ حياتيهما، هو و جو. ثُمّ إنّ المعشوقَ سيموت فجأة، وكان جو ميّالاً دائما لِلشُّربِ كما قال لي الحاخامُ، غير أنه هجر الخمرةَ نهائيا في ذلك الوقت، وشرعتْ حياتُه تتحَطّمُ، فَقَدَ رُواقَه، وتَحامَتْهُ عائلتُهُ، وتوارى أصدقاؤه، وشيئا فشيئاً أزرى به الدّهرُ، وذهبت ريحُه، وسقط في المُنحدرِ الأشدّ انحداراً، في العُمق السّحيقِ للعالمِ .ووَفّقَ الحاخامِ فإنه لا مخرجَ له من هذا القرارِ أبداً، وفي اعتقاده أنّ حالة جو ميؤوسٌ منها .

بعد هذا، كلّما صادفت جو في نحوٍ من الأنحاء كنت أُفَتّشُ جيوبي لِأُنْفِقَه قِطعاً من النُّقودِ، وما كان يُؤثّرُ فيّ خلال هذه اللّقاءاتِ هو أنه لم يكن يريد أبداً أنْ يُسقِطَ القناعَ عنْ وجههِ، فتبدوَ حقيقتُه جليّةً لِلْعِيانِ. كان يؤكّد لي، بكلماتِ شُكرٍ رنّانةٍ تفتَحُ من هذه اللغةِ المُزخْرَفةِ الدّيكينزيةِ(35) التي كانت

تأتيه عفوَ الخاطِرِ، بأنّه سيُسدّدُ لي دينه عاجلاً، حالَما تُتيح له الظروفُ ذلك. (أنا مدينٌ لكم كلّ الدّينِ أيّها الشابّ، كان يقول هذا، حقّاً مدينٌ لكم كثيراً، طبعاً، ليس هذا إلّا إقراضاً، لا تشغَلْ بالك، ربّما قد يكون في علمكم، أو قد لا يكونُ أنّي كابدتُ بعضَ المِحَنِ في الآونةِ الأخيرةِ، وإنّ الكَرَمَ الذي تبذلونه لسوف يساعدني، في نطاقٍ واسعٍ، على أنْ أتماسك، وأنهَضَ من جديدٍ). لم يكن دائماً المبلغ الذي جرى الحديثُ عنه إلّا مبلغاً زهيداً، أربعون سِنتا من هنا، وخمسة وعشرون سِنتاً من هناك، أيّ ما كان بحوزتي ذاك اليوم، غير أنّ حماسةَ جو لا تفتُرُ بتاتاً. ولم يكن يُظْهِرُ أبداً بأنّه كان يعتبر نفسه إنساناً حقيرا سافلاً. ومثلما كان وهو يرتدي أسمالَ مُهرّجٍ في السّيرك، والتّانةُ تفوح من جسمه الذي لا يستحِمّ أبداً، فإنّه يُصِرُّ على التّصرُّفِ وكأنه واحدٌ من سَرَاةِ القومِ، والتّشَبُّه بإنسانٍ أنيقٍ أصابه النّحسُ والشُّؤمُ مُؤقّتاً. كان الزّهوُ والزّيفُ اللذان يَظْهران في هذه الوضعيةِ، يبدُوانِ لي مُضحكين ومُخزِنين في آنٍ واحدٍ. وكلّما كنت أتصدّقُ عليه من جديدٍ، كنت أجدُ صعوبةً في الحفاظ على ثباتي وهدوئي، ما كنتُ أدري أبداً إذا كان الموقفُ يستدعي الضحكَ أم البُكاءَ، الإعجابَ أم الإشفاقَ. (أيها الشّابّ، لاحظْ، كان يتابعُ حديثَه وهو يتفحّصُ القطعَ النقديةَ التي كنتُ وضعتها في راحته، بحوزتي، لاحظْ، بحوزتي، يا لَلعجبِ، خمسة وخمسون سِنتاً، فإذا ما أضفنا إليها الأربعةَ والثمانين سنتاً التي وهَبتُها لي في المرّة الأخيرةِ، ثمّ إذا ما أضفنا إليها الكلّ، يا لَلعجبِ، إذا أضفنا الكلّ إلى الأربعين سنتاً التي كنتَ قد منحتها لي في المرة ما قبل الأخيرةِ، أجدُني مديناً لكم بمجموعِ مُهِمّ، لاحظْ، مجموعٌ مُهِمّ ... دولارٌ وخمسة عشر سنتاً)، تلك كانت طريقةَ حسابِ جو، كان يكتفي بالتقاطِ أرقامٍ في الهواء آملاً أنْ تكون حقيقيةً، (وكنتُ أجيبه، لا عليك يا جو، دولار وخمسة عشر، ستعيده إليّ في المرّة القادمةِ) .

Telegram:@mbooks90

عندما عُدتُ إلى نيويورك بعد أن غادرتُ سفينةَ *إيسَو*، جعلني جو أشعُرُ بأنه غاصَ في الوحلِ، وتقهقرتْ حالُه. كان يبدو لي مُحطّماً أكثرَ، وأنّ حماسَه واندفاعَه السّابقين كانا قد تركا مكانهما لِخَطبٍ جديدٍ، لِلَونٍ من اليأسِ يبعثُ على النّواحِ والبكاء. ذات يومٍ انْهارَ أمامي وهو يروي لي كيف أوسِعَ ضرباً في زُقاقِ الليلةَ الماضيةَ، (كان يقول: لقد سرقوا كتبي، هل في وُسعكم تصوُّرُ هذا ؟ هؤلاء البهائمُ سرقوا كتبي !). وفي مرّة أخرى، في أوجِ عاصفةٍ ثلجيّة، بينما كنت أغادرُ شُقّتي في الطّابق التاسعِ، وأمشي في المَمَرّ نحو المِصعدِ، عثرتُ عليه جالساً وحيداً في السُّلّمِ يُواري رأسَه بين يديه .

- قلت له: هل أنت بخيرٍ يا جو ؟

- رفع رأسَه، وكانتْ عيناه تَشِيانِ بالحزْنِ، والبؤسِ، والإنكسارِ .

- قال: لا، أيّها الشّابُ، ليس الأمرُ على ما يُرامُ، ليس على ما يُرامُ مُطلقاً .

- أ أُسدي إليكَ معروفاً ؟ طلبتُ منه، إنّ هيئتكم مخيفةٌ، مُخيفةٌ حقّاً .

- أجاب: نعم، مادمتم قد أشرتُم إليها، فإنّ ثمّةَ معروفاً بوسعكم أنْ تُسدوه إليّ. عند ذاك مدّ ذراعَه وأمسكَ بيدي، ثُمّ، وهو يُحدّقُ فيّ، تَجاسَرَ فتابعَ بصوتٍ يرتجفُ من الإنفعالِ: هل يمكنكم أنْ تصحبوني إلى منزلكم، وتستلقوا على السّريرِ، وتتركوني أمارِسُ الجنسَ عليكم. في صراحته الصّادمةِ وطلبِه الذي فاجأني تماماً، كنت أتوقّع، بالأحرى ، أنْ يطلُبَ شيئاً من قبيلِ فنجان قهوةٍ، أو صَحنِ حَساءٍ. (قلت له: لا يُمكنني فعلُ هذا، أُحبُّ النساءَ يا جو، لا الرّجالَ، أنا آسفٌ، لِأنّي لا أقوم بهذا النّوعِ من الأشياء) .

سيظلُّ جوابه لي آنذاك ثاوِياً في ذاكرتي بوصفه واحداً من الرّدود الأكثر ملاءمةً، والأكثرَ سُخريةً، التي لم يسبقْ لي أنْ سمعتها بتاتاً. و مِنْ دون أنْ يُضيّعَ ثانية واحدةً، وبلا أدنى أثرٍ لِلخيبةِ أوِ النّدمِ، أزدَفَ السؤالَ بِهَزِّ كتفيه

وهو يقول: (حسن، لقد طرحتَ عليّ سؤالاً، وها أنا أجبتُك) .

ذهبتُ إلى باريس حوالي منتصف فبراير 1971، وبعد هذا اللّقاءِ في الدّرَجِ مرّتْ أسابيعُ عديدةٌ لم أكُنْ ألتقي فيها جو، ثمّ بعد مُضِيّ أيّام تقريباً قبل رحيلي، التقيتُه في *برودواي*، كان مظْهرُه جيّداً، وزالتْ آثارُ الضّربِ والكَدْمِ من وجهه، وحينما رويتُ له بأنّي كنت أتهيّأُ لِلْإقامةِ بباريس، استعاد فوْراً كلّ نشاطه وحيويّته، وبدا أكثرَ بوْحاً وصراحةً، مُغْتَرّاً بنفسه أكثر من أيّ وقتٍ مضى. قال: (من الغريب أنْ تتحدثوا لي عن باريس، في الحقيقة إنّها مُصادفةٌ سعيدةٌ، لم يمُرّ سوى يومين أو ثلاثة، وبينما كنت أتجوّل في الشارع الخامسِ، التقيتُ صديقي القديم *أنطون* مدير شركة *كونارد لاين*، (قال لي: إنّ حالك يا جو ليست على ما يُرام)، فأجبته: (كلّا، يا *أنطون*، صحيح أنّ حالي ليست ممتازةً في هذه الآونة الأخيرةِ)، فقال *أنطون* بأنه يرغب في إسداء شيء لي، أنْ يمُدّ لي يدَ العونِ بطريقةٍ مّا، كيما يعيدني إلى سواء السّبيلِ فيستقيم أمْري. إنّ ما اقترحه عليّ هنا في قلْبِ الشّارعِ الخامس، في اليوم الماضي، هو أنْ يُزسلني إلى باريس على مثنِ إحدى بواخرِه، وأنْ يُسكِنني فُندقَ جورج الخامس، مُؤدّياً، طبعاً، جميعَ النّفقاتِ، مع خِزانة ملابس فضلا عن ذلك، وعَرَضَ عليّ أنْ أقيمَ بها أيضاً لِفترة طويلةٍ، متى رغِبتُ في ذلك، لِأسبوعين أو شهرين أو حتّى عامين، إذْ بوسعي البقاءُ قَدْرَ ما أشاءُ. وإذا ما عزمتُ على الذّهابَ إليها، فأظنُّ أنّ ما سأقوم به هو أنْ أسافر قبل مُتمّ الشهر، وهو ما يعني، أيّها الشّاب، أنّنا سنلتقي في باريس في الوقت نفسِه. إنّه احتمالٌ رائعٌ، أليس كذلك ؟ ترقّبوا لقائي فيها، سنشرب الشايَ ونتناول العشاء، ما عليكم إلّا أنْ تتركوا لي رسالةً في الفندق، سنرى بعضنا في حدائق الإليزيه، يا صديقي، في باريس، عند حدائق الإليزيه)، ثمّ استأذن في الإنصراف وهو يُصافحني ويتمنّى لي سفراً مُمتعاً وسعيداً .

لم أرَ أبداً جو ريلَي مرّة أخرى، وحتى قبل أنْ نتوادعَ في ذلك اليوم، كنت أعرف أنّي أحدّثه للمرّة الأخيرة، ولمّا انتهى إلى أنْ يتوارى في الحشود دقائق فيما بعد، كان كما لو أمسى شبحاً من قبل. طوال السّنوات التي عشتها في باريس، فكّرتُ فيه كلّما كانت قدمي تطأ حدائق الإليزيه، ومازلت الآن أفكّرُ فيه كلّما عُدتُ إليها .

لم تدُمْ نقودي رذحاً طويلا من الزمن كما كنت أعتقد ذلك. كنت عثرتُ على شُقّةٍ في الأسبوع الذي أعقَبَ وصولي، وعندما صَرَفْتُ عُمولةَ الوكالة، وإيداعَ الضّمانِ، والإشتراكِ في الغاز والكهرباء، وشهرَ الكراء الأوّل، وشهرَه الأخيرَ، ووثيقةَ التّأمين الإجباريّ، لم يكنْ ما تبقّى لي ذا شأنٍ. كان عليّ منذ البداية، إذاً، أنْ أماكِسَ حتى لا تُصيبني خَصاصَةٌ. زاولتُ أعمالاً شتّى خلال السنوات الثلاث والنّصف التي أمضيتها في فرنسا. كنت أتأرجَحُ بين عمل لا يدوم إلّا وقتا جزئيا وعملٍ آخر. كان عملي حُرّاً ومُستقلّا حتى لم أكنْ أستطيع له احتمالا، وحين كنت بلا عملٍ فإنّي أسعى إلى طلبِه، أمّا حين كنت أحصُل عليه فإنّي كنت أفكّر في الطريقة التي تُتيح لي الحصولَ على أعمالٍ كثيرةٍ، ونادراً ما كنت أحصُلُ، حتى في أفضل الأحوال، على مالٍ كافٍ يجعلني أشعر بالأمان .، فحتى وإنْ حدثَ، مع ذلك، مرّةً أو مرّتين أنْ كنتُ على وشكِ السّقوط، فإنّني أفلحتُ في اجتنابِ الإفلاسِ التّام. كنت أكتفي بما تيسّرَ لي، بلا تطلُّعٍ إلى المستقبل. زيادةً على كلّ هذا، كنت أكتب بانتظامٍ، وإذا ما استغنيتُ عن الكثير مِمّا كنت أكتبه (خصوصا النثر)، فإنّي احتفظتُ بقِسمٍ كبيرٍ من كتاباتي (قصائدُ وترجماتٌ على الخصوص). عندما عُدتُ إلى نيويورك في يونيو 1974، كانت فكرةُ عدم الكتابة تبدو لي، في كلّ الأحوال، أمراً لا يمكن تصوُّرُه.

كانت جُلُّ الأعمالِ التي كنت أحصلُ عليها تأتي من أصدقاء، أو أصدقاءِ

الأصدقاءِ، أو أصدقاء أصدقاءِ الأصدقاءِ. تحُدُّ الإقامةُ في بلدٍ أجنبيٍّ من إمكاناتكم، وإذا كنتم لا تعرفون أشخاصاً يرغبون في مساعدتكم، فإنّ انطلاقتكم تكاد تكون مُستحيلةً، ليس فقط لأنّ الأبوابَ تُوصَدُ حين تظرُقونها، بل أيضا لأنكم تجهلون حتى أين ستعثرون على هذه الأبواب من أجل أنْ تبدؤوا. كنتُ محظوظاً لأنّ لديّ بعضَ الأصدقاء يهُبّون لِنُصرتي، وقد جعلوني جميعُهُم، بين الفينة والأخرى، أتغلّبُ على الصّعابِ. *جاك دوبان*، على سبيلِ المثال، وهو شاعرٌ عمِلْتُ على ترجمة أعماله الشّعريةِ منذ سنين عديدةٍ، اتّفق أنْ كان مديراً لِمنشوراتِ رواق Maeght، وهو واحد من أهمّ أروقةِ الفنّ بأوربا، ومن بين الرّسّامين والنّحّاتين الذين تُعْرَضُ أعمالُهم هنا، نجد *ميرو* (36) و *جياكوميتي* (37) و *شاغال* (38) و *كالدر* (39) على سبيل المثال لا الحصر. فبِفضلِ توسّطِ *جاك* كنت مُكلّفاً بترجمة العديد من كتب الفنّ والكاتالوغات. وفي أثناء سنتي الثانية بباريس، لمّا كانت نقودي توشك على النفاد بطريقة خَطِرَةٍ، أنقذني من هذه الورطةِ وهو يَهَبُني غرفةً أقيم فيها بالمجّان، لقد كانت بوادرُ الكرمِ هذه ضروريّةً، ويشُقُّ عليّ تصوُّرُ كيف كنت سأعيشُ من دون هؤلاء .

في لحظةٍ مّا وُجّهتُ إلى مكتب نيويورك تايمز بباريس، لا أتذكّر مَنْ كان المسؤولَ عن هذا الإتّصالِ، إلّا أنّ مُحرّرةً تُدعى جوزيث *لازار*، كانت توكِلُ لي تزجماتٍ كلّما كان بِوُسعها ذلك: مقالات ل Sunday Book Review ، ومقالات افتتاحية *لِسارتر* و فوكو، هنا وهناك. وبينما كان مَعيني النّقديُّ يَنْضُبُ من جديدٍ، سَعَتْ ذات صيف إلى أنْ أحصُلَ على وظيفةِ عاملٍ ليليٍّ في المَقْسَمِ التّلفونيّ في مكاتب *التايمز*. لم يكن الهاتفُ يرِنُّ إلّا لِمَاما، وكنتُ أنْفِقُ مُعظمَ الوقتِ، وأنا جالسٌ في مكتبٍ، أنظِمُ قصيدةً أو أقرأ، غير أنّ ذات ليلةٍ وردَتْ مُكالمة هاتفيّة مجنونةٌ من قِبَلِ صحافية تعمل في مكتبٍ بمكانٍ

مّا في أوربا، قالت: (لقد أعلن *سينيافسكي* (40) عن انشقاقه، فما الذي يتوجّب عليّ القيامُ به ؟)، لم تكن لديّ أيّ فكرةٍ عمّا كان يتوجّبُ عليها فعلُه، لكنْ بما أنّ أيّاً من المُحرِّرين لم يكن موجوداً هناك في هذا الوقت، اعتقدتُ أنْ كان ينبغي الرّدُّ عليها، فقلت لها: (تابعي القضيةَ، واذهبي إلى حيث ينبغي أنْ تذهبي، اِعْملي ما ينبغي عملُه، لكن تابعي القضيةَ مهما يحصلْ من أمر(. أغْدَقَتْ في شُكْري على ما أسديْتُه من نُصْحٍ لها، ثمّ وضعتِ السّمّاعةَ .

كانت بعضُ الأعمال تبدأ بصورةٍ مُعيّنةٍ، وكانت تنتهي بصورة أخرى مُغايرةٍ، مَثَلُها كمثَلِ يخْنةٍ(41) أخطأنا تحضيرَها، ولن نمنعْ أنفسنا من تدارُكِها بإضافةِ مزيدٍ من التوابلِ، وسنرى إذا لم يكن الذوقُ سيتحسّنُ، وخيرُ مثالٍ على هذا ستكون مغامرتي البسيطةُ التي حدثت لي مع الفيتناميّين الشّماليين المُقيمين بباريس، والتي بدأت بمُكالمةٍ هاتفية بريئة أجرتها *ماري ماكارثي* مع صديقي *أندريه دو بوشيه* (42)، كانت طلبت منه إذا ما كان يعرف شخصا بوسعه ترجمةُ الشعر من الفرنسية إلى الإنجليزية، أعطاها اسمي، فهتفتْ إليّ، ودعتْني إلى بيتها لِلتحدُّثِ في المشروع. كان ذلك بداية 1973، والحربُ على أشُدّها في فيتنام. كانت *ماري ماكارثي* (43) تكتب، آنذاك، ولسنين خلتْ، عن حرب فيتنام، وكنت قرأت مُعظمَ مقالاتها التي كنت أعُدُّها من بين أجودِ المقالات الصّحافيّةِ في تلك الحقبةِ، كانت قد ارتبطتْ، بمناسبة عملها، بعلاقات مع العديد من الفيتناميين المُنحدرين من شَطرَيْ فيتنام الشمالي والجنوبي، وكان من بينهم أستاذُ أدبٍ شرع في إنجازِ مُختاراتٍ من الشِّعر الفيتناميّ، وكانت قد اقترحتْ عليّ مُساعدَتَه لإعْدادِ إصْدارٍ أمريكيّ لِطَبْعة باللّغة الإنجليزية. كانت القصائد قد تُرْجِمَت سلفاً إلى اللغة الفرنسية، وكانت الفكرة أنْ تُتَرْجَمَ هذه التّرجمات إلى اللّغة الإنجليزية. على هذا النّحو قُدِّمَ اسمي، وكانت تريد أنْ تُحدّثني في هذا الشّأنِ .

كان لقبُ *ماري ماكارثي* الشخصيّ هو مسز ويست، وكان زوجُها رجلَ أعمالٍ أمريكيا ثريّاً، وكانت شُقّتُها الباريسيةُ شاسعةً، ومؤثّثةً بأبّهةٍ وثراءٍ، تملؤها أغراضُ الفنّ والآثارُ القديمةُ، والأثاثُ الفاخرُ. قُدّمَتْ لنا وجبةُ الغداء من قِبَلِ خادمةٍ ترتدي فُستاناً أسودَ وَوِزْرَةً بيضاءَ. كان ثمّة ناقوسٌ من الخزف على المائدة في مُتناول يدِ مُضيفتي، وكُلّما كانت تحمله وتُحرّكه قليلاً، كانت الخادمةُ تعود إلى صالةِ الأكلِ لِكي تتلقّى توجيهاتٍ جديدةً. كان *لِماري ماكارثي*، « السّيدة الجليلة كلّ الجلال»، طريقةٌ مُدهشةٌ في إدارةِ هذا البروتوكول المنزليّ، غير أنها، في الحقّ، بدت مثلما كنتُ أتوقّعُ أنْ أجدَها: لطيفة، ووُدّية، ومُتواضعة. لقد تحدّثنا عن أشياء كثيرةٍ في هذه الظّهيرة، وعندما غادرتُ منزلها بعد انصراف ساعاتٍ عديدة، كان قد عُهِدَ إليّ بستّةٍ أو سبعةِ دواوين من الشّعر الفيتناميّ. وكان ينبغي لي، في المقام الأوّل، أنْ أتعوّدَ على مُحتواها، بعد ذلك علينا أنْ نلتقيّ، الأستاذُ وأنا، ونشرعَ في العمل على هذه المُنتخبات .

قرأتُ الدّواوينَ بِمُتعةٍ، وبخاصة كتاب كيو Kieu(44) ، القصيدة الملحمية الوطنية. إنّ التفاصيلَ تغيبُ عنّي اليومَ، غير أنّي أتذكّر أنّي شعرت بنفسي مُهتمّا ببعض قضايا الشكلِ التي كانت تطرحُها بنياتُ الشّعر الفيتناميّ التقليديّ التي لا يوجد ما يُعادِلُها في الشّعر الغربيّ. لقد كنت سعيداً عندما اقترحوا عليّ هذا العملَ، لا لِأنّني كنت سأكافأُ جيّدا فحسب، بل كان يبدو لي أيضاً أنّ بوُسعي أنْ أتعلّمَ شيئا فضلا عن ذلك. لكن بعد انصرام أسبوعٍ على غدائنا، هاتفتني *ماري ماكارثي* لِتُخبرني بأنّ ثمّة أمراً مُستعجلاً، وبأنّ صديقها الأستاذ كان قد عاد إلى *هانوي*، وهي لا تعرف متى سيرجع إلى باريس، غير أنّ المشروعَ ينبغي أنْ يتوقّفَ الآن على الأقلّ .

لم يكن الحظُّ حليفي. طرحتُ الكُتُبَ جانبا على أملِ أنْ لا يكونَ هذا العملُ

قد أفهز، بيد أني كنت أعرف أنّ ذلك هو مآله. مضت أيامٌ عديدةٌ، ثمّ تلقّيت، ذات صباحٍ، مُكالمةً هاتفية من امرأةٍ فيتناميةٍ كانت تعيش في باريس، (إنّ الأستاذ الفُلانيّ قد عرض علينا اسمَكم، قالت لي، وهو يؤكّد لنا أنّ بإمكانكم إنجازَ الترجمةِ إلى الإنجليزية، أ هذا صحيحٌ ؟)، أجبتُ: (نعم، هذا صحيح)، قالت: (حسن، لدينا عملٌ لَكُم) .

إتفق أنّ هذا العملَ كان ترجمةً للدّستور الجديدِ لفيتنام الشّمالية، ولم أكن أرى مانعاً من القيام به، غير أنّ التوجّه إليّ كان يبدو لي أمراً غريبا، يمكن لِلمرء أنْ يرى بأنّ وثيقةً من هذا الصّنف ينبغي لها أنْ تُترجَمَ من قِبَلِ شخصٍ في الحكومة، وتُترجَمَ مباشرة من اللغة الفيتنامية إلى الإنجليزية، وليس من اللغة الفرنسية، وإذا كان الأمر يقتضي أنْ تُتزجَم انطلاقا من الفرنسية، فليس ينبغي أنْ يقوم بها عَدُوٌّ أمريكيٌ يعيش في باريس. ومع ذلك فإنّي لم أطرح أيّ تساؤلٍ، بقيتُ مكتوفَ الأيدي وأنا أفكّر في المُنتخبات الشعرية، وما كنتُ أبغي إضاعةَ حظوظي، فرضيتُ، إذاً، بهذا العملِ. وفي مساءِ اليوم التالي، جاءت المرأةُ لِتُودِعَ المخطوطَ عندي، كانت عالِمَةً إخيائيّةً تُناهز الخامسة والثلاثين، هيفاءَ، مِغطالاً(45)، شديدةَ التّحفُّظِ. لم تُشِز إلى مبلغٍ ماليّ، فأوحى إليّ صمتُها بأنّ هذا المبلغَ لنْ يوجدَ. وإذا ما اعتبزنا تَعَقُّدَ الفروقِ السياسيةِ لوضعيةِ الحرب بين بلدينا، ومشاعري إزاء هذه الحربِ وهلم جرّا. فأنا لم أكن أشعُرُ أبداً أنّي مُهَيّأٌ لإزعاجها بصددِ المال، بل طفقتُ، على العكس، أسألها عن القصائدِ الفيتنامية التي كنت قرأتها. وفي لحظة ما، أفلحتُ في أنْ أخمِلها على الجلوس معي إلى طاولتي، لِكَيْ ترسُمَ لي رسماً بيانيا يُفسّرُ لي الأشكالَ التقليدية لِطريقةِ نظْمِ الشّعر التي كانت قد أثارتْ فُضولي. لقد بدتْ خُطاطتُها شديدةَ الوضوحِ، لكنّني لمّا طلبتُ منها إذا ما كان بِوُسعي أنْ أختفِظَ بها لِأعتمدَ عليها مرجِعاً في المستقبلِ، هزّتْ رأسَها، ودَعكّتِ الورقَ،

ووضعته في جيبها، ومن فرْطِ ما فوجئتُ، لم أستطعْ أنْ أنبِسَ ببنت شفةٍ. كان عالَمٌ كاملٌ قد انْكشفَ لي جرّاءَ هذا السلوكِ البسيط، إنها دهاليزُ الرُّعب والخيانة، فحتى قطعةٌ من ورقٍ كانت تُثير فيها الشُّبهةَ. لا تثِقوا في أيْ كان، امحوا آثارَكُم، أتلِفوا القرائنَ والدّلائلَ. ولم يحصُلْ هذا لأنها ستختار في ما بوُسْعي أنْ أفعلَه بهذا الرّسمِ البيانيّ، وإنّما لأنها كانت قد تعوّدتْ التصرُّف، ببساطة، على هذا النحو، ولم أكن لِأمنعَ نفسي من الإشفاقِ عليها، بل والإشفاقِ علينا كِلينا، وتفسيرُ هذا أنّ الحرب عمّتْ كلَّ ناحيةٍ، وبأنّ الحربَ قد وسمَتْ بميسمِها كلَّ شيء .

كان عددُ صفحات الدُّستور من ثمانٍ إلى عشرٍ، وما عدا بعضَ التّعابيرِ الماركسية-اللينينيّة المعياريةِ نحو («كلاب صيد الإمبريالية» و «الخدم البورجوازيون»)، فإنه كان بالأحرى مُنفِّراً. أكملتُ الترجمةَ في اليوم التالي، وعندما هاتفتُ صديقتي الإحيائية لِأخبرَها بأن العمل كان قد أُنجِز، أبدتْ انشراحاً وعِرفاناً بالجميلِ لا حدّ له، وعندئذٍ فقط حدّثتني عن الأجرةِ: دعوةٌ إلى العَشاءِ. قالت لي: (هذا بمثابة شُكرٍ). كانَ المطعمُ يوجد بالدائرة الخامسة، ليس بعيداً عن مكان إقامتي، وسبق لي أنْ تناولتُ الطعامَ فيه عدّة مرّاتٍ. كان من أبسطِ وأرخصِ المطاعم الفيتنامية بباريس، لكنّه الأفضلُ كذلك. وكانت زينةُ المكانِ الوحيدةُ هي صورةٌ بالأبيض والأسود *لهو شي مينه* (46) مُثبتةٌ على الجدارِ.

كانت أعمالٌ أخرى سهلةً للغاية، بسيطة كلّ البساطةِ: دروس خصوصية في اللغة الإنجليزية لِتلميذٍ، وترجمات مُتزامنة خلال ندوة دوليّة صغيرة لِأدباء يهودٍ (تتضمّن عَشاءً)، و ترجمات لنصوصٍ كتبها *جياكوميتي*، وأخرى كُتِبَتْ عنه لفائدة الناقد الفنّي *دافيد سِلفِستر*. كان القليلُ من هذه الأعمال حَسَنَ المُكافأة، إلّا أنّها جميعُها كانت تجلُب بعضَ المال، وإذا لم تكن ثلّاجتي

مُكتظّةٍ، فإنه ندَرَ أنْ كان جيبي يخلو من عُلبة سجائر. ومع ذلك فإنّي كنت أستطيع العيش فقط من هذا الفُتات، ومن هذه الكِسَرِ. كانت هذه الأعمال الصغيرةُ تُساعدني على إقامة أوَدِي، غير أنّها ما كانت لِتكفيني مُجتمعةً لِلإستمرار في العيش لِأكثرَ من بضعة أسابيع، أو بضعة شهور في أفضل الأحوال. كان ينبغي أنْ أجدَ مورِداً آخر لِلدّخلِ كيما أُؤدّي فواتيري، وقد شاء الحظُّ أنْ أعثُرَ على واحدٍ، بل هو الذي عثر عليّ. وخلال السّنتين الأوليين اللّتين أمضيتُهما بباريس، شكّلَ هذا المورِدُ الفرقَ بين الأكل وعدمه .

تعود الحكايةُ إلى عام 1967، ففي أثناء إقامتي السّابقة، حينما كنت طالبا، كان صديق أمريكيّ قد قدّمني إلى امرأة سأُلقّبُها بالسيدة **س**، كان زوجها السيد **س** مُنتِجاً للسّينما على الطّريقة القديمة، معروفاً جدّاً (أفلام غريبة ذات إخراجٍ ضخمٍ وذات أحداث مفاجئة)، وبفضلها شرعتُ أشتغلُ عند زوجها. سنحَتِ الفرصةُ الأولى بضعة شهورٍ تقريبا بعد وصولي. لم يكن الهاتفُ موجوداً في الشّقة التي كنت اكتريتُها، شأنها أيضا شأن العديد من المساكن الباريسية في عام 1971، ولم تكن توجد إلّا وسيلتان لِلإتّصالِ بي: عبر رسالة مُستعجلَة وهي برقية حضريّة سريعة تُرسَل من البريد، أو المجيء إلى منزلي وطرْقِ بابي. ذات صباح، بعد أنْ صحوتُ بقليلٍ، طرقت السيدة **س** بابي، سألتني قائلةً: (ما رأيكم في أنْ تحصلوا اليوم على مائة دولار ؟). كان العملُ يبدو سهلاً للغاية: قراءة سيناريو ثمّ كتابة مُلخّصٍ من ستٍّ أو سبْعِ صفحاتٍ. كان الإكراهُ الوحيدُ هو الزّمنَ، إذ إنّ المُمَوّلَ المُحتمَلَ للفيلم كان ينتظر على يخْتٍ في مكان ما بالبحر المتوسط، وكان ينبغي أن تُسَلّمَ إليه خُطّةُ الفيلم خلال ثمانٍ وأربعين ساعةً .

كانت السيدة **س** شخصيةً لامعةً وصاخبةً، المرأة الأولى المُنيفةُ جدّاً حدّ الإفراطِ التي لم يسبق لي أبداً أن صادفت مثلها، ميكسيكية المولدِ، تزوجت

منذ سنّ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، أمَ لشاب لا يصغُرُني إلا ببضع سنوات، كانت تعيش حياتها باستقلالية، وكانت مُتحرّرةً من رابطة الزوجيةِ بطريقةٍ كنت، آنئذٍ، قليل المِراسِ فأذرِكَ كُنْهَها. فنّانة بالفطرةِ، كانت تُزاوِجُ بين الرّسم والكتابة، وإذ كانت تُبدي موهبةً في هذين المجالين إلّا أنّها لم تجنِ ثمارَ مواهبها بسببٍ من قِلّةِ انتظامِ عملِها، وتركيزها عليه. كانت موهبتُها الحقّةُ تتجلّى في تشجيعِ الآخرين، وكان الفنّانون والفنّانون الواعدون من جميع الأعمارِ يحُفّون بها، كانت تُعاشِرُ المشاهيرَ والمجاهيلَ بوصفها زميلةً لهم، ونصيرةً راعيةً لهم على حدٍّ سواء. كانت مؤضِعَ اهتمامٍ أنّى ذهبتْ، امرأة جليلة، ذات رُوح نشيطٍ، فزعاء، فَزعُها حالِكٌ، ترتدي معاطفَ بغطاءٍ للرأسِ، يُسمَعُ لِحَلْيِها المكسيكيّ وَسواسٌ، بطبائعها وسخائها ووفائها، ورأسها المُتْرَع بالأحلام. كنت قد وَرِثتُ قائمتَها بطريقة ما، ولِأنّي كنتُ شابّاً أخطو خُطُواتي الأولى، فإنّها كانت تحسَبُني في عدادِ أصدقائها الذين كان يستوجِبُ عليها رعايتهم، أصدقائها المُفوزين، المُحتاجين الذين كانوا في حاجةٍ إلى يدٍ تُعينُهم وتُسعِفُهم .

كان ثمّة آخرون طبعاً، وكان اثنان منهم قد دُعِيا في الوقت ذاته الذي دُعيتُ فيه ذاك الصّباح لِلظّفرِ بالمبلغِ الكبير نفسِه الذي كنتُ وُعِدتُ به. لا تُساوي مائة دولارٍ اليومَ إلّا مصروف جيبٍ، غير أنّها في تلك الأيّامِ كانت تُمثّلُ أكثرَ من نصفِ شهرِ كراءٍ، وما كان بِوُسعي أنْ أسمحَ لنفسي بِرَفْضِ مبلغٍ على هذه الأهميّةِ. كان ينبغي أنْ يُنجَزَ العملُ في منزلِ آلِ **س**، في شُقّتِهما الشاسعةِ بالدّائرةِ السادسة عشرة التي تُعَدُّ، بِحَقٍّ، قضراً ذا غُرَفٍ لا تُحصى، بِسُقوفها التي تُسَبّبُ الدُّوارَ. كان يتوجّبُ علينا الشّروعُ عند الحادية عشرة، ووصلْتُ قبل نصفِ ساعةٍ من المؤعِد .

سبق لي أنْ التقيتُ كُلّ واحدٍ من زميليّ في الفريقِ. كان أحدُهما أمريكيّاً

يناهزُ الخامسة والعشرين، عازفُ بيانو، مُعتلّ الصحةِ، وبلا عملٍ، كان يتجوّلُ بحذاء امرأةٍ ذي كَعْبٍ عالٍ، وكان قد قضى وقتاً في المَشفى لِلعلاج من داء الشلَلِ الرَّئويّ، أمّا الآخرُ فكان فرنسيا تمَرّسَ بالعملِ السينمائيّ لِعشرات السنين، خاصّة بوصفه مُساعدَ مُخرجٍ، كان قد حَظِيَ بإخراج سباقات الدّبّابات في شريطِ *بن هور* (47)، ومشاهد البيداء في (*لورنس العرب*)، غير أنّه منذ أيّامِ التألّقِ والنّجاحِ هذه، كان قد كابدَ أياماً بالغةَ القسوة، تخلّلَ فيها الإنهياراتِ العصبيّةَ، وفترات الحَجْرِ في مَشفى الطّبِّ النّفسيّ، والعَطالة. كان بمَعيّةِ عازِفِ البيان يُمثّلان بالنسبة لِلسّيدة **س** مشروعاتٍ كُبرى لإعادةِ الإدماج، وما كان سَعْيُها لِتُساويَني معهما، بلا تمييزٍ، إلّا مثال على طريقتها في إدارةِ الأمورِ، ومهما كانت نواياها حسنةً، فإنّها كانت باطلةً على الدّوامِ، بسببِ تركيباتٍ مُعقّدةٍ وغير واقعيّة، وبسببِ الرّغبة في إصابةِ عددٍ كبيرٍ من الأهدافِ بِرَمْيةٍ واحدةٍ. يصعُبُ سلفاً أنْ يهُبّ المرءُ لِمُساعدةِ شخصٍ، بيدَ أنّه إذا كان يعتقدُ أنّ بمقدورهِ إنقاذَ جميعِ البشرِ في آنٍ واحدٍ، فإنّه يُعرّضُ نفسه للفشلِ .

ها نحن أولاء، إذاً، الثُلاثيّ شديد التّنافُرِ، الذي لم يسبِقْ أبداً أنْ تمّ التوفيقُ بينه، جالسون حول طاولةٍ ضخمةٍ في قاعةِ الأكلِ بالشُّقة الهائلة لِآلِ **س**. كان السّيناريو الذي نتحدّثُ عنه ضخماً أيضاً، يتألّف من ثلاثمائة صفحة (أكبر من حجمِ سيناريو عادي بثلاثِ مرّاتٍ)، سيخالُه المرءُ دليلاً تيليفونيا لمدينةٍ كبيرةٍ. وبما أنّ الفرنسيّ كان هو الشخصَ الوحيدَ الذي يملك تجربةً مِهْنيّةً في مجالِ السّينما، فإنّنا، أنا وعازف البيان، فَوّضْنا أمرَنا إليه، وتركناه يقودُ زِمامَ المناقشةِ، يبدأ بِأخْذِ ورقةٍ بيضاء، ويُباشِرُ كتابةَ أسماء المُمثّلين عليها، *فرانك سينترا*، *دان مارتان*، *سامي ديفس الإبن*، يَليهم ستّةُ أو سبعةُ آخرون، وحينما يفْرَغُ يقوم بِقرْعِ الطّاولة بِكِلْتا يديه، وارتياحٌ كبيرٌ يغْمُرُه. توجّه نحونا

متسائلاً: (أترون هذه القِطعةَ من الورقِ ؟)، فحرّكنا رأسينا، أنا وعازف البيان، (صدّقاني، أو لا تُصدّقاني، هذه القطعةُ الصّغيرةُ من الورقِ تُساوي عشَرَة ملايين دولار)، رَبّتَ على قائمته مرّة أو مرّتين، ثمّ طرحها جانباً بلا أدنى أثرٍ لِلدُعابةِ أو السُخريّةِ، وبعد بُزهةِ صمتٍ فتح المخطوطَ على الصّفحةِ الأولى، وقال: (طيّب، أنحن جاهزون لِلشُروعِ ؟) .

وتكادُ تجيشُ نفسُه فوراً. كان قد لَحَظَ في السّطر الثاني أو الثالث من الصفحة الأولى أنّ اسمَ أحدِ الشُخوص كان يبدأ بحرف **Z**، فصاح: (أوه ! أوه !، صديقيّ، انتبها، سيتعلّق الأمرُ بفيلمٍ سياسيّ، لاحظا جيداً ما أقوله لكما.) .

كان **Z** عنوانَ فيلمِ *لكوستا كافراس* (48) ، وكان قد لاقى نجاحاً شعبيّاً كبيراً قبل سنتين، كان، بلا أدنى شكّ، شريطاً يتناول الشّأنَ السّياسيّ، و لم يكن هذا موضوعَ السّيناريو الذي كان قد طُلِبَ منّا تلْخيصُه، بل كان فيلماً بوليسيا يُعالجُ قضيةِ التّهريبِ، كان الحدثُ يدور في الصحراء أساساً، وفيه مشاهدُ شاحناتٍ، ودرّاجاتٍ، وبنادق، وعصاباتِ أشرارٍ عديدةٍ يخوضون حرباً فيما بينهم، وكمّية من الإنفجارات المُثيرة، وكان الفرقُ الوحيدُ الذي يُميّزه عن غيره من آلافِ الأفلامِ هو طوله .

لم يكَدْ يَمضي على عملنا سوى دقيقةٍ ونصف حتى اشتَنكَفَ عازفُ البيانِ عن الإهتمامِ به. كان يُحَدّقُ في الطّاولة وهو يضْحكُ خُفيةً هازئاً من هذيانات الفرنسيّ الذي كان ينتقلُ، فجأةً، من سُخفٍ إلى آخر، بلا تمهيدٍ أو مقدّمةٍ. أنشأ الرّجلُ البئيسُ يتحدّثُ عن المخرج *ديفيد لين* (49)، وهو يتذكّر سلسلةً من المناقشات الفلسفيةِ التي كان خاضها مع المخرج قبل خمسة عشَر عاماً، ثمّ يقطع، بغْتةً، تذكُراتِه، وينْهض فيطوفُ في الغرفة مُسَوّياً اللّوحاتِ

المُعلّقةَ على الجُدرانِ، وعندما أنهى هذه المُهِمّةَ، قال إنّه ذاهبٌ إلى المطبخِ لِلبحثِ عن فنجان قهوةٍ، هزَّ العازفُ كتفيه قائلاً: (أظنّ أني سأذهبُ لِلعزف على البيانو). انصرفَ بدوره من دونِ تبريرٍ آخر .

شرعتُ في قراءة السّيناريو وأنا أنتظر عودَتَهما، لم أكنْ أدري فعلَ أيّ شيء آخر، ولمّا أدركتُ أخيراً أنهما لن يعودا، لا هذا ولا ذاك، كنتُ قد قرأتُ القسمَ الأعظمَ منه. في آخر المطاف دَلَفَ إلى الغرفة، مُصادفة، أحدُ شُركاء السيد **س**. كان أمريكيّا ودوداً، في شرخِ الشّباب، صَدَفَ أنّه كان أيضا صديقاً صدوقاً للسيّدة **س**، (كان يبدو لي أنّ تعقيداتِ هذه الأسرةِ يتعذّرُ عليّ سَبرُها)، اقترح عليّ إنهاءَ العملِ لوحدي، وهو يَعِدُني أنّني إذا ما أفلَحتُ في إنجاز نتيجةٍ مقبولةٍ قبل السّاعةِ السّابعة، فإنّ مبالغ مائة دولارٍ الثلاثة ستكون من نصيبي، وَعَدتُهُ بأنْ أبذُلَ ما بوسعي. وفي اللحظة التي كنت أتهيّأ فيها للإنسحاب من هناك قَضَدَ العثور على آلتي الكاتبة، أسدى إليّ نصيحةً مُمتازةً: (يتعلّق الأمر بالسّينما لا بشكسبير، صُغْ ما استطعتَ ذلك بِلُغةٍ مُبتذلَةٍ مُتداولةٍ) .

خَلُضتُ إلى كتابة مُلخّصِ الفيلمِ بِلغةٍ غريبةٍ ومُلتهبةٍ كلغةِ الإعلانات الهوليوديةِ، فإذا ما كانوا يُريدون لغةً مُتداولةً فسأُلبّي رغبتَهم، كنت شاهدتُ ما يكفي من أشرِطة الإعلانات مِمّا أتاحَ لي معرفةَ أسلوبها، وأنا أجمعُ كلّ الكليشيهات التي كان يُمكنني تصوُّرُها، وأُراكِمُ عنفا على عُنفٍ. اختزلتُ القصّةَ في سبعِ صفحاتٍ من عملٍ مَسعورٍ لا ينقَطِعُ، حمّام دمٍ كُتِبَ بِنثرٍ مُزجّجٍ، مُلوّنٍ. فرغتُ من الرّقنِ على الآلة الكاتبةِ عند السّاعة السادسةِ والنّصفِ، وما هي إلّا ساعةٌ حتى كانت سيّارةٌ يقودها سائقٌ قد وصلت إلى منزلي لِتضطَجِبني، أنا وصديقتي، إلى المطعم الذي كان السيّدُ والسّيدة **س** قد دَعَوانا إلي العشاء فيه. وفي اللحظة التي كنّا وصلنا إليه، كنت أحسِبُ أنّي

سأسلّمُ الصفحاتِ إلى السيدة س شخصياً .

كان السيد س رجلاً ضئيلاً، غامضاً، يزبو على سِنّ الخمسين، من أصلٍ روسيٍّ يهوديٍّ، كان يتحدّث عدّةَ لُغاتٍ بطلاقةٍ، فكان ينتقل غالبا، خلال حديثٍ واحدٍ، من الفرنسية إلى الإنجليزية، ومن الإنجليزية إلى الإسبانية، لكنْ باللُّكنةِ المُشعِبَةِ نفسِها دائماً، كما لو أنّه، في نهاية المطاف، لمْ يكنْ يشعُرُ بالرّاحةِ في أيّ لغةٍ من هذه اللغاتِ. مضى عليه ثلاثون عاماً وهو مُخرِجٌ، وفي غُضونِ مُزاولته لِمِهنةٍ عرف فيها اليُسرَ والعُسرَ، كان قد مَوّلَ أفلاماً جيّدةً، وأخرى سيّئةً، أفلاماً كبيرةً، وأخرى صغيرةً، تُحَفاً فنّيةً، وأفلاماً رديئةً. كان قد جَنى مبالِغَ طائلةً من بعضِ الأفلامِ، أمّا أفلامٌ أخرى فجعلته يستَدينُ على نحوٍ يُزثَى له. لم أكنْ قد صادفتُه قبل هذه الأمسية إلّا لِماماً، بيد أنّه كان يخمِلُني دائماً على الشُّعور بأنّه شخصٌ كئيبٌ نوعاً ما، رجلٌ كان لا يُذيعُ سِرّه، ماكرٌ، وكتومٌ، وغامضٌ، بل تشعرون حين يتحدّثُ إليكم أنّه كان يعني أمراً آخر، ينساق وراء بغضِ الحسابات الغامضةِ التي قد تكون أو لا تكون ذاتَ صِلَةٍ بما كان يتحدّثُ فيه. ليس لأنّ هذه الحسابات لم تكن موجودةً، بلْ سيكون من قبيلِ الخطأ، في الوقت ذاته، أنْ نفترضَ بوجودها .

كان مُتوتّراً على ما يبدو حين وصلْتُ إلى المطعم في هذا المساء. كان احتمالُ إنجازِ فوزٍ كاسحٍ يتوقّفُ على صديقٍ من أصدقاء زوجته الفنّانين، وما كان يُغوِزُه شيءٌ إلّا أنْ يكونَ مُتفائلاً. وما كدت أجلِس حتى كان قد طلب منّي رُؤيةَ ما كنت كتبتُ، وفيما كنّا، ونحن على الطاولة، نخوض في الحديث عن أمور تافهة، كان السيد س، الصّموتُ والضّئيلُ، مُستَغرِقاً في قراءةِ فقراتي المُزخرفةِ والعنيفةِ، وشيئاً فشيئاً افترّتْ شفتاه عن ابتسامةٍ، وأنشَأ يهُزُّ رأسه وهو يُديرُ الصّفحات، بل سَمِعَ، مرّة أو مرّتين، وهو يهمِسُ بكلمة « حسن»، ومع ذلك لم يرفعْ رأسه. لم ينظُرْ إليّ، أخيرا، وهو يُصدِرُ حُكمَه، إلّا

بعد أنْ قرأ آخرَ جملةٍ :

قال: (ممتاز، هذا بالضبط ما كنتُ أبغيه)، ويكاد الإرتياحُ الذي كان صوتُه يوحي به يكونُ جلِيّاً .

ولفتتِ السيدة **س** نظرَه بأنها كانت قد قالتْ له هذا الرّأيَ بالفعلِ، وأقرّ بأنّ الشُّكوكَ كانت تُساوِرُه. قال: (كنت أحسبُ أنّ الكتابةَ ستكون أدبيّةً أكثرَ، غير أنّ هذا حسنٌ، هذا ما ينبغي بالتّمامِ) .

صار بعد هذا في غاية البشاشةِ، كُنّا نوجد في مطعمٍ كبيرٍ باذخٍ *بمونماتر*، وفجأة طفِقَ يُصفّقُ منادياً على بائعةِ الوردِ التي جاءتْ على عَجَلٍ إلى طاولتنا، ثمّ اشترى السيد **س** دزينةً من الوردِ التي أهداها إلى صديقتي بمثابةِ هديّةٍ مُرتجلةٍ، بعد ذلك مَدّ يدَه إلى جيبه الدّاخليّ، وأخرجَ منه دفتر شيكاته، فوقّعَ لي شيكاً بثلاثمائة دولارٍ. وكان هذا أوّل شيكٍ في بنكٍ سويسريٍّ أراه في حياتي .

كنتُ جَذِلاً لأنّي وضعتُ نُسختي وأنا تحت الضّغط، جَذِلاً وأنا أنقادُ إلى الأحداث العبثية لِهذا اليوم، غير أنّنا عندما غادرنا المطعمَ وألفَيتُني في مسكني بشارع جاك *مواس*، كنت أعتبرُ أنّ القضيّةَ انتهتْ، ولم يُراوِدني، ولو لِمرّةٍ واحدةٍ، أنّ مشاريعَ أُخرى ستكون لي مع السّيد **س**، غير أنّ ذاتَ ظهيرةٍ من الأسبوعِ المُوالي، بينما كنت جالساً إلى طاولتي أنظِمُ قصيدةً، قاطعني شخصٌ كان يطرُقُ بابي، كان واحداً من مُعاوِني السيّد **س**، رجلاً مُسِنّاً كنتُ رأيته يهيمُ في المنزلِ عندما غشيتُه، إلّا أنّ الفرصةَ لم تكن قد سَنَحتْ لي أبداً لِلتّحدُّثِ معه. لم يُفَوِّتْ لحظةً واحدةً، فبادرَ إلى سُؤالي: هل أنت ***بول اوستر*** ؟، ولمّا أجبته بنعم، أنبأني بأنّ السيد **س** يوَدُّ رُؤيتي، فسألته: متى ؟، وقال: فوراً، ينتظرُنا طاكسي في الأسفلِ .

كان الأمرُ شبيهاً إلى حدٍّ ما بتوقيفِ الشّرطةِ السّرّية لِشخصٍ. أعتقد أنّ كان بمقدوري رفضُ الدّعوة، بيد أنّ هذا الجوّ الرّوائيّ كان يستثيرُ فضولي، فعقّدتُ العزمَ على الذّهاب لِمعرفة ماذا يحدث ؟. في الطّاكسي سألت مُرافقي عن الأسباب الثاوية وراء هذه الدعوة، غير أنّ الرّجلَ العجوزَ اكتفى بِهَزٍّ كتفيه، لقد أمرَه السيّدُ **س** بإخضاري عنده، وهو ما كان قد قام به. كانت مَهمّتُه تتحدّدُ في تنفيذ الأوامرِ، لا في طرحِ الأسئلةِ. مَكثتُ، إذاً، في الظلام وأنا أُقلّبُ القضيةَ من وجوهها في نفسي، وكان التفسيرُ الوحيدُ الذي يمكنني تخَيُّلُه أنّ السيّد **س** لم يعُد أبداً راضياً عن العملِ الذي كنت قمتُ به لفائدته. وفي اللحظة التي دَلَفتَ فيها إلى شُقّتِه، كنتُ أتوقّعُ، بالفعل، أنْ يدعوني إلى إعادة نُقوده إليه .

كان يرتدي سِترةً سموكين من الكشمير، ظاهِرُها من السّاتان، وعندما وَلَجَ الغرفةَ التي كان قد طُلِبَ منّي انتظارُه فيها، لحظتُ أنّه كان يَفرِكُ يديه، ولم أكنْ أعرِفُ أيّ شيءٍ عن دلالة هذا التصرُّفِ .

قال :(لقد أنجزتم لي عملا جيّداً في الأسبوع الماضي، وأوَدُّ، الآنَ، أنْ اقترِحَ عليكم حُزمةَ صفقاتٍ) .

كان هذا تفسيراً لحركة اليدين، لقد كان تصرُّفَ رجلٍ مُتأهّبٍ للأعمال التجاريّةِ. وبغتةً، وبِسَبَبِ هذا المخطوطِ السّفسافِ الذي كنت قد أغدَقتُه له وأنا قلِقٌ ومُتوتّرٌ، كان يُخيّلُ لي أنّي سأعملُ مع السيد **س**. كان لديه، على الأقلّ، أمران يقترحهما عليّ فوراً، وإذا ما تمّا بصورةٍ جيّدةٍ، فإنّ من تحصيلِ الحاصلِ أنّ أموراً أخرى ستَغقُبُهما. لقد كنت في مَسيسِ الحاجة إلى المالِ، وسأعلن عن قَبولي، لكنّ هذا لن يتِمّ من دون أنْ أحترِسَ، لقد كانت قدمي تَطَأُ أرضاً أجهَلُ معالِمَها، وإذا لم أُحافِظْ على ثباتي وهدوئي فإنّي مُذرِكٌ أنّ حوادثَ غريبةً في انتظاري، لا أدري سببَ إدراكي لها، غير أنّي كنت أذرِكها.

وبينما شرع السيد **س** يُحدّثُني عن دورٍ يمنحه لي في فيلمٍ من أفلامه القادمة، ويتعلّق بقصّة فروسيّةٍ من أجلها سأكون في حاجةٍ إلى دروسٍ في المُسايَفَةِ ورُكوبِ الخيلِ، فإنّي ظلَلْتُ حازماً. قلتُ: (سنرى، وفي الحقّ، أنْ أصيرَ مُمثّلاً هو شأنٌ نادراً ما يُغريني .)

إنّ خلاصتي للسيناريو قد أعجبتْ، في الظاهر، صاحبَ اليختِ، مثلما أعجبتْ السيد **س**، والآن كان يرغب في الإنتقال إلى المستوى الثاني، وذلك بأنْ يُنجزَ ترجمةً للسيناريو من الفرنسية إلى الإنجليزيّة. كان هذا هو العمل الأول، أمّا الثاني فكانت صياغتُه أقلَّ إخكاماً سلفاً، إذ شرح لي السيد **س** بأنّ السيدة **س** كانتْ تُعِدُّ مسرحيّةً، وكان قد ارتضى تمويلَ عَرْضِها في مسرح لندن في الموسم المقبلِ. كان موضوع المسرحية هو ***الكيتزلكواتل***، الثعبان الأسطوريّ المكسو بالرّيش. وبما أنّ القسم الكبيرَ من المسرحية كُتِبَ شعراً، وبما أن القسم الكبيرَ من هذه الأبياتِ الشعرية كانت مكتوبةً بالإسبانية، فإنّها كانتْ ترغبُ في أنْ أقومَ بإنجاز ترجمةٍ لها إلى الإنجليزية، وبأنْ أتحقّقَ من أنّ المسرحيّةَ قابلةٌ للتّشخيصِ. قلت: حسن، واكتفينا بهذا الحدّ. أنجزتُ العملين وكان الجميعُ راضياً، وبعد مُضِيّ شهرين أو ثلاثة أشهرٍ عُرِضَتْ مسرحيةُ السيدةِ **س** بلندن. لقد كان العرضُ عزفَ مُجاملَةٍ ومُحاباةٍ بالطّبع، غير أنّ النقدَ وهو يفْحَصُ المسرحيّةَ من جميعِ وُجوهها كان جيّداً، فلاقتْ استقْبالاً ممتازاً. أمّا ناشرٌ إنجليزيٌّ كان قد حضر أحدَ العُروض، فإنّه من فَرْطِ تأثُّرِه بما شاهد، اقترح على السيدة **س** تحويلَ المسرحيةِ إلى قصّة نثرية سيقوم بنشرها .

عندئذٍ أضحتِ العلاقاتُ مُشوّشَةً بيني وبين السيد **س**، إذْ لم تكن السيدة **س** قادرةً على كتابة الكتابِ بنفسِها، وكانتْ تعتقد أنّي الإنسانُ الوحيدُ على هذه البسيطةِ الذي بِوُسْعه مساعدتها. كان بمقدوري قَبولُ العملِ لو كان

سينجزُ في ظروفٍ أخرى، أمّا وأنّها كانت تَوَدُّ أنْ أرحلَ أيضا إلى المكسيك لإنجازه، فإنّي أخبرتُها أنّ هذا العملَ لا يغنيني، ولم يُشرَخ لي أبداً لماذا توجَّبَ أنْ يُكتَبَ الكتابُ في المكسيك. لست متأكّداً إذا ما كان الأمر يتعلّق بإجراء أبحاثٍ، أو بطابعٍ محلّيٍ، أو بشيءٍ من هذا القبيل. لقد أحبَبتُ، حقّاً، السيدة س، إلّا أنّ احتمال رُفقَتِها خلال مدّةٍ غيرِ مُحدّدَةٍ كان فكرةً لا أستسيغُها، بلْ إنّي ما كنت في حاجةٍ إلى التفكيرِ في عَزلِ السيد س، إذ رفضتُه فوراً، وأنا أعتبرُ أنّ المسألةَ قد انتهت إلى الأبدِ، غير أنّ الوقائعَ كذّبتني. إنّ اللامُبالاة الحقّةَ لَقُوّةٌ، وقد تعوّدتُها. إنّ امتناعي عن القيامِ بهذا العملِ أغضَبَ السيد س، وأثارَ أعصابَه، بحيث لم يكن مُتعوّداً على أنْ تُرفَضَ طلباتُه، فَهَبّ يخمِلُني بِضراوةٍ على تغييرِ رأيي، وبذَل جميعَ جُهوده، خلال شهورٍ عديدةٍ، بُغيةَ زَعزَعَةِ مُقاومتي، وهو يُحاصرني بالرّسائلِ والبرقيات والوُعود بِمَنحي مبالغَ ماليّةً كبيرةً دائماً. ولقد أذعَنتُ على الكراهةِ في آخرِ المطافِ. ومِثلَ كُلِّ القراراتِ السّيئةِ التي اتخذتُها في حياتي، فإنّي تصرّفتُ ضِدَّ رأيي، تاركاً الإعتبارات الثانويّةَ تُعكّرُ صَفوَ مُيولاتي الفِطريةِ. لقد كان المالُ، في هذه الحالة، هو الذي رَجّحَ الميزانَ، بحيث كنت وقتذاك في وزطةٍ، أتقهقَرُ يائساً وأنا أصارِعُ كي أبقى قادراً على الوفاء بالدّينِ، وعليه فإنّ عَزلَ السيد س كان قد بات بالغَ الأهمية، إذ إنّه سيجعلُ هُمومي الكثيرةَ تتلاشى دفعة واحدةً، إذا ما أقنعتُ نفسي بقَبول حكمةِ التسويةِ. وكنتُ أحسَبُني ذكيّاً. وعندما تنازلتُ عن قناعاتي فإنّي صُغتُ شُروطي بما وُفّقتُ إليه من تعابيرَ أكثرَ صلابةً. أعلنتُ أنّي سأذهبُ إلى المكسيك مدّة شهرٍ بالضبط – لا أقلّ ولا أكثر – كما أوَدُّ أنْ تُدفَعَ أُجرتي كاملةً نقداً قبل مُغادرتي باريس. كانت المرّةُ الأولى التي أفاوِضُ فيها أمراً من الأمور، كنت وطّدتُ العزمَ على حماية نفسي، فرفضتُ أنْ أتنازلَ عن شرطٍ واحدٍ من هذه الشّروط، ولا يبدو أنّ السيد س كان راضياً على عِنادي وتَشَبُّثي، غير أنّه أدركَ أنّ إمعاني فيه لن

يكونَ طويلاً، فوافق على مُتطلّباتي. وفي اليومِ عينِهِ الذي رحلتُ فيه إلى المكسيك، أودَعتُ في حسابي البنكيّ خمساً وعشرين ورقةً من مائة دولار. ومهما سوف يحدث في الشّهر اللاحقِ فإنّي لن أكونَ مُغوِزاً أثناء عودتي .

كنتُ أتوقّعُ أنْ يكونَ مآلُ هذه الرحلة سيئاً، لكن ليس على النّحو الذي جرتِ الأمورُ عليه. وبدون أنْ أتفحّصَ بِدقّةٍ كلّ هذه المسألةِ المُعقّدةِ (الرّجلُ الذي هَدّدَ بِقتلي، والفتاةُ الفُصاميّةُ التي كانت تعتبرُني إلهً هندياً، وخطرُ الإذمانِ القاتل الذي يستفحِلُ في جميعِ البيوتِ التي دخلتُها)، فإنّ الثلاثين يوما التي أمضيتُها في المكسيك لَتُعدُّ من أخلَكِ الأيّامِ وأشدّها كآبةً في حياتي. كانت السيدة **س** قد حَلّتْ هناك، قبل بضعةِ أسابيع من وصولي، وسرعان ما أدركتُ بأنّها لم تكنْ قادِرةً على العمل على الكتابِ، بحيث هَجرَها لِلثّوِّ عشيقُها. كانت مأساةُ هذا الغرامِ قد ألقَتْ بها في غَمراتِ يأسٍ حادٍّ، ولستُ لِألومَها على مشاعرِها. ومن شِدّة ما كابدتْ تباريحَ الألمِ، ومن فزطِ ما قاستِ التشوُّشَ والإضطرابَ جرّاء الكَدَرِ، فإنّ الكتابَ أضحى أقلّ هُمومها شأناً. فماذا كان يُوسعي أنْ أفعل ؟ أجهَدتُ نفسي لِحفلِها على العملِ، ولِأُقنِعها بالجلوس معي كيما نتحدث عن المشروع، إلّا أنّ هذا، بِبساطةٍ، لم يعُدْ يُغريها البتّةَ، وكلّما كنّا نقوم بِمَسعى، سُرعان ما كان الحديثُ يتحوّل إلى مواضيع أخرى. كانت تنهارُ باكيةً أزيَدَ من مائة مرّةٍ، وحاولنا، عبثا، أكثر من مائة مرّة أنْ نبلُغَ هدفاً. أدركتُ، بعد العديد من هذه التجارب، أنّ السبب الوحيدَ الذي كانت تتحملُ بسببه عناءَ المحاولة، كان من أجلي أنا، إذْ كانت تعرف أنّني أتقاضى أجراً لِقاءَ مُساعدتها، ولم تكن ترغبُ في أنْ تتركُني أُخفِقُ، ولم تكن لِتزضى بأنْ آتيَ من مكانٍ قَصِيٍّ من أجلِ لا شيءٍ .

ها هنا يكمُنُ الخطأُ الرّئيسُ لِإتّفاقنا، فأنْ نعتقدَ أنّ شخصاً ليس كاتباً، بِميسورِهِ أنْ يكتُبَ كتاباً، لَهو اقتراحٌ مُريبٌ سلفاً، غير أنّنا إذا افترضْنا أنّ أمراً

كهذا ممكنُ الحدوث، وإذا افترضنا أنّ الشخصَ الذي يرغبُ في إنجاز الكتابِ يجدُ مَنْ يُساعده، فلرُبّما يستطيعان، وهما يعملان معاً بحَمِيّةٍ وإصرارٍ، أنْ يُحقّقا نتائجَ مقبولةً. إلّا أنّ الشخصَ الذي ليس كاتباً، إذا لم يكن يرغب في كتابة الكتابِ، فَفيمَ يفيدُ الآخرُ ؟ كان هذا هو المأزقُ الذي كنت أوجَدُ فيه، لم أكنْ لِأطلُبَ شيئاً أفضلَ من مساعدة السيدة **س** على كتابة كتابها، بيد أنّي لا أستطيعُ مساعدتها إلّا إذا كانت راغبةً في الكتابةِ، أمّا إذا كانت تُعْدَمُ هذه الرغبةَ، فليس ثمّة شيءٌ بِوُسعي فِعْلُه، سوى أن أنتظرَ انْبِجاسَ هذه الرغبةِ عندها .

وعليه كنتُ أنتظرُ وأنا أكْظِمُ غيظي في هذه القرية الصغيرة التي تُدعى *نيبوتزولان* ، راجياً أنْ تصحُوَ السيدة **س**، ذات صباح، وتتراءى وهي تنظرُ إلى الحياة نظرةً جديدةً، كنتُ أُقيمُ في منزل أخِ السيدة **س** (الذي كان عِقْدُ زواجِه التعيسِ ينفَرِطُ)، وكنت أُنفِقُ أيّامي وأنا أتنزّه على غير هُدى في المدينة المُقفْرَة، مُتخَطّياً كلاباً جَرْباءَ، وطارِداً الذُّبابَ عن وجهي، ومُلَبّياً دعوات للشُّرب يُقدّمُها لي أشخاصٌ سُكارى من البلدة. كانت غرفتي تشغلُ مُلْحَقَةً صغيرةً من الجَصّ في مِلْكية الأخِ، وكنتُ أنامُ تحت شبكةٍ من نسيجٍ شفّافٍ حتى تحْمِيَني من الرُّتيلاء والناموسِ. كانت الشابّة المجنونة لا تَنِي تأتي مع واحدٍ من أصدقائها ينتمي إلى طائفة *هاري كْريشنا* ، في أمريكا الوسطى، حليق الرّأسِ، في زيٍّ بُرتقاليّ. وكان الغمُّ يُضْنيني كأنّه داءٌ استوائيٌّ. كتبتُ قصيدةً أوْ قصيدتين قصيرتين، غير أنّ الفُتورَ والوهنَ كان يغروني في اللحظات الأخرى. أعجِزُ عن التفكير، وأرزَحُ دوماً تحت وَطأةِ قلقٍ مجهولٍ، وكانت أخبارُ العالَم الخارجيّ سيّئةً أيضاً، إذ قضى آلافُ الأشخاصِ نَحْبَهم في زِلزالٍ أصابَ النيكاراغوا. وكان لاعبي المُفضّلُ في البيسبول *روبيرتو كليمنتي*، اللّاعب الأشدّ أناقةً، والأكثر طاقةً في جيله، قد أودى في

تحطّم طائرته، وهو يسعى إلى تقديم مساعداتٍ عاجلة لِلضّحايا. وإذا كان هناك شيءٌ مُمتعٌ يتخلّص من أوخامِ وخَدَرِ هذا الشهر، فإنّه سيكون تلك السّاعات التي أنفقتُها في *كويزنفاكا*، المدينة الصغيرة المُتألّقة التي وصفها *مالكوم لاوري* في روايته **تحت البركان** (50). هناك، عن طريق المُصادفة، تعرّفتُ إلى رجل وُصِفَ لي بأنّه آخرَ سليلٍ حيٍّ من *مونتيزوما*، رجلٌ مُهَذّبٌ، جليلٌ، يتمتّع بعِزّة نفسٍ فيّاضةٍ، أخلاقُه لا تشوبُها شائبة، يُحيطُ عُنُقَه مِنديلٌ من حريرٍ.

ولمّا عُدتُ أخيراً إلى باريس، ضرب لي السيدُ **س** مؤعِداً في بهو فندقٍ من فنادقِ حدائق الإليزيه، ليس فندقَ جورج الخامس، بل فندقاً آخر يُقابله بالضبط. لا أتذكّر لماذا كان اختار هذا المكانَ، غير أنّي أفترِضُ أنْ تكون لهذا علاقةٌ بموعدٍ آخر كان يتأهّبُ له قبل لقائه بي، وهذا مُجرّدُ سؤالٍ عمليٍّ. وعلى أيّ حالٍ فإنّ حديثنا لم يجرِ داخل الفندق. ما لبثتُ أنْ وصلتُ حتى أومأ لي بالخروجِ وهو يُشيرُ إلى سيّارته التي كانت في انتظارِنا أمام مدخل الفندقِ، كانت من نوع *جاكوار*، صهباء اللون، مقاعدها من جلْدٍ، وكان الرجلُ الذي يقودها يرتدي قميصاً أبيضَ. قال السيد **س**: (سنتحدّثُ هنا، لأنّه مكانٌ بالغُ الحميميّة)، أخذنا مكاننا في الكُرسيّ الخلفيّ، فانطلق السائقُ، ثمّ نَأتْ بنا السيّارةُ عن الرّصيفِ. أبلغَ السيد **س** السائقَ قائلاً: (قُمْ بجولةٍ)، فَراوَدَنِي، بغتةً، الشّعورُ بأنّي حَلَلْتُ في فيلم لِعصابةِ أوغادٍ.

كانت القصّةُ بأكملها تقريبا معروفةً لديه، غير أنّه كان يوَدُّ أنْ أُقَدّمَ له تقريراً كاملاً، تشخيصاً دقيقاً لِلفشلِ. وبذلك قُصارى جهدي لِأصِفَ له ما كان قد حصلَ وأنا أرَدّدُ، لِأكثر من مرّةٍ، كم كان أسفي على عدمِ إنجازِ الكتابِ، وأوضحتُ قائلاً: غير أنّ مادام الكتابُ لم يعد يعني أيّ شيءٍ لِلسيدةِ **س**، فأنّى لي أنْ أقومَ بشيءٍ مُهِمّ قصد تحفيزِها. وقد بدا أنّ السيد **س** قد رضِيَ بكلّ

هذا بهدوءٍ بالغٍ، أمّا إذا حكمنا عليه انطلاقا من المظاهر، فإنّه لم يكنْ يبدو غاضباً، ولا حتّى خائبَ الظّنّ على الأخصّ. ثمّ بينما كنتُ أعتقدُ أنّ حوارَنا قد شارَفَ على نهايته، إذا به يطرَحُ مسألةَ أجري. قال: مادام أيُّ شيءٍ لم ينجَزْ، فقد يبدو من العَدلِ أنْ أعيدَ النقودَ إليه، أليس كذلك ؟ أجبتُ: كلّا، لا يبدو أنّ هذا من العدلِ أبداً، فالإتّفاقُ هو الإتّفاقُ، لقد ذهبتُ إلى المكسيك بِحُسن نيّةٍ، والتزمتُ بالجزء الذي يخُصُّني في العَقدِ، ولم يُشِز أيُّ شخصٍ أبدا إلى أنّني سأكتبُ الكتابَ لِأجْلِ السيدة س، وكان من المفروض أنْ أكتُبَه معها، وإذا كانتْ ترغبُ عنْ إنجازِ هذا العملِ، فأنا لستُ مُجبَراً على إزغامها على ذلك، فلهذا الأمر بالضّبط كنتُ طلبتُ المالَ مُسبقاً، لقد كنتُ أتوَجّسُ خيفةً من أنْ يحدثَ أمرٌ من هذا القبيلِ، وكنتُ في حاجةٍ إلى أنْ أطمَئِنَّ على مُجازاةِ وقتي، مهما كان مآلُ هذا المشروعِ .

أدركَ منطِقَ براهيني، غير أنّ هذا لا يعني أنّه كان مُستعِدّاً ليعود القهقرى. قال: طيّب، إحتفِظْ بالمال، لكن إذا كنتَ ترغبُ في أنْ أواصِلَ تشغيلك، فلا بُدّ أنْ تُنجزَ بعض الأعمال الإضافيّةِ، كيما تُسَدّد حساباتنا. وبعبارةٍ أخرى، بدلاً من أنْ يطلبَ منّي إعادةَ المالِ إليه نَقْداً، فإنّه يرغبُ في أنْ أُرجِعَه إليه على شكلِ عملٍ، فأجبتُه بأنّ هذا الأمرَ مزفوضٌ مُغلِناً بأنّ حساباتنا قد صُفّيَتْ، وبأنّي لم أعُدْ مَديناً له بِأيّ شيءٍ، وإذا كان يريدُ تشغيلي لِقاءَ أعمالٍ أُخرى فعليه أنْ يُكافِئَني على حقّ قَدْرِ هذه الأعمالِ. وغنِيٌّ عن البيان أنّ هذا الأمرَ كان يبدو له غيرَ مقبولٍ. أعتقدُ أنّك تودُّ أداءَ دورٍ في الفيلمِ، قالها. فأجبتُ: لم أقُلْ هذا أبداً. واستأنفَ قائلاً: لكونك ترغبُ في هذا الدّورِ يجبُ عليك، أوّلاً، أنْ تُسَوّيَ هذه القضيّةَ. وأجبته مرّة أُخرى بأنّه ليس ثمّة شيءٌ يستوجِبُ التسويةَ. وبتّ في الأمر قائلاً: مُمتاز، إذا كان هذا هو موقفك فإنّ حديثنا قد انتهى. عند ذاك، أشاح عنّي بوجهه، وأمرَ السائقَ بإيقاف السّيّارةِ. كان قد مرّ

نِصفُ ساعةٍ ونحن نسيرُ بشكلٍ دائريّ، مُنعطفين، ببُطءٍ، نحو ضاحية باريس، ولم يكن الحيُّ الذي بلغناه مألوفاً لديّ. كانتْ ليلةٌ ضَرِدَةٌ من شهر يناير، وما كنتُ أعرفُ أيَّ شيءٍ عن المكان الذي كنتُ أوجدُ فيه، إلّا أنّ المُحادثةَ كانتْ قد بلغتْ تمامَها، ولم يبقَ لي أيُّ شيءٍ آخر أقوم به سوى أنْ أوَدِّعَ السيد *ص*، وأغادِرَ السيّارةَ من دونِ أنْ نتصافحَ إذا لمْ تَخُنّي الذاكرةُ. نزلتُ إلى الرّصيفِ، وأغلقتُ البابَ، ثمّ انطلقت السيارةُ من جديدٍ، وعلى هذا النحوِ انتهى دُخولي العابرُ الأوّلُ إلى السّينما .

استمرّ مُقامي بفرنسا لثمانيةِ أشهرٍ، قضيتُ نصفها بباريس، ونصفها الآخر بالضاحية، حيث اشتغلنا، أنا وصديقتي، حارسين في مزرعة شمال *الفار*، وعند أوبَتي إلى نيويورك، كان بحوزتي أقلُّ من عشرة دولارات، ولم يكن لديّ أيُّ مشروعٍ ملموسٍ للمستقبلِ. كنت في السّابعة والعشرين، وليس في رصيدي شيءٌ آخر، سوى ديوانٍ شعريّ، وعددٍ قليلٍ من دراساتٍ أدبيّةٍ مُبهَمَة، ولم أكن حريصاً على إيجادِ حلولٍ لمشاكلي الماليّةِ كسابقِ عهدي قبل مغادرةِ أمريكا. وعندما قرّرنا الزّواجَ، أنا وصديقتي، تعسّرَتْ حالُنا. كان هذا قراراً مُباغتاً وطائشاً، غير أنّ مادامتْ أشياءُ كثيرةٌ ستتغيّرُ، فإنّنا قُلنا في دخيلَتِنا: لماذا لا نَندفِعُ ونُغيّرُ في آنٍ واحدٍ ؟

سرعان ما أنشأتُ أبحثُ عن عملٍ، قُمتُ بمخابراتٍ هاتفيّة، وسلكتُ مجموعةً من الإجراءاتِ، وقمتُ بِلقاءاتٍ، واستكشفتُ ما استطعتُ من إمكاناتٍ، وحاولت أنْ أتصرّفَ بطريقةٍ حكيمةٍ، وبعد كلِّ اليُسرِ والعُسرِ الذي خَبَرْتُه، والمآزق والمواقف اليائسة التي وقعتُ في شَرَكِها منذ سنواتٍ، قرّرتُ أنْ لا أكرّرَ أخطائيَ السّابقةَ. ظننتُ أنّي اتّعظتُ، والآنَ سأتحمّلُ المسؤوليّةَ .

بيْدَ أنّي لم أتّعِظ، ولم أتحمّلْ أيَّ مسؤوليّةٍ، واتّضحَ أنّ اعوِجاجي لا يمكنُ تقويمُه بالرّغم من مقاصدي النبيلة. لم يكُن ذلك بسبب عدم العُثور على

عملٍ، ولكن بدلا من أن أقبلَ الوظيفةَ بدوامٍ كاملٍ التي عُرِضَتْ عليّ (منصب مُحرِّر تابع في دارِ نشرٍ)، اخترتُ وظيفةً بدوامٍ جُزئيّ، وبنصف أجرٍ. لقد وعدتُ نفسي على أن أحتمل العمل الشاقّ، إلّا أنّي امتنعتُ عنه في اللحظة التي عُرِضَ فيها عليّ. ولم أكن لأرتابَ، حتى تلك اللحظة، في أنّني سأتملّص على هذا النّحوِ، كما لا أرتابُ في إضراري على المقاومة. وبالرّغم من الدلائل الواضحة فإنّي مازلتُ، في الظاهر، لم أتَخَلّ عن الأمل الوهميّ والسّخيف في أنْ أعيشَ على طريقتي، كنتُ أرغبُ في أنْ أستقِلَّ استقلالاً تامّاً، فهجرتُ عملي، واستأنفتُ تحليقي خارجَ السِّرب حين قُدِّمَتْ بعضُ أعمالِ الترجمة بطريقةٍ حُرّةٍ ومُستقِلّة. استغرقتِ التّجربةُ، منذ البداية حتى النهاية، سبعةَ أشهرٍ، ومهما كانت هذه الفترةُ قصيرةً، فإنّها كانت الفترةَ الوحيدةَ في سنّ رُشدي التي حصلْتُ فيها على أجرٍ مُنتظِمٍ .

كان العملُ الذي عثرتُ عليه جيّداً من كلّ الوجوه. كان *آرثور كوهن* رئيسي، وهو رجلٌ ذو اهتمامات مُتعدّدة، وذو غِنىً واسعٍ، وذو عقلٍ من الطّراز الأوّلِ، مُؤلِّفُ رواياتٍ ودراساتٍ، ومديرٌ سابقٌ لشركةٍ للنّشرِ، شغوفٌ بجمعِ التُّحفِ الفنّيةِ. كان قد أعدّ للتوّ مشروعاً صغيراً كأنّه فيضٌ من طاقته الزّائدةِ. كانت *إكس- ليبريس*، بما هي نصف استثمارٍ من أجل المتعة الخالصة، ونصف مؤسّسةٍ تجاريّةٍ جادّةٍ، كانتْ تشكّل مجموعاً لكُتبِ الفنّ تختصُّ في المنشوراتِ التي لها علاقةٌ بالفنّ في القرن العشرين، ولا يتعلّقُ الأمرُ بكُتُبٍ حول الفنّ، بل بتمظهراتِ الفنّ بحضر المعنى. كالمجلّات التي نشرتْها الحركةُ الدّادائيّةُ على سبيل المثال، أو كتبٍ صاغها أعضاءٌ من *الباوهاوس* (51) أو صُوَرٍ *لِستيجلز* (52)، أو طبعة من كتاب ***التّحوّلات*** *لأوفيد* (53) تُزيِّنها رُسومٌ *لبيكاسو*. كانت الصفحةُ الأخيرةُ من كلّ كاتالوغٍ من كاتالوغاتِ *إكس- ليبريس* تكشِفُ عن مشروعها على هذا النحو: (كُتبٌ ودورياتٌ في

طبعتها الأصليةِ بُغيةَ التوثيقِ الخاصّ بالفنّ في القرن العشرين: المُستقبلية والتكعيبية والدادائية والباوهاوس والبنائية ودي ستيل والسّوريالية والتعبيرية وفنّ ما بعد الحرب، وكذلك العِمارة والطّباعة والصورة وفنون الخطّ) .

وما كاد *أرثور* يُقدِمُ على إطلاقِ مشروعه إلى الوجود حتّى عيّنني مُوظفاً وحيداً. كانت مُهمّتي الأساسيةُ تقتصِرُ على مُساعدته في تحريرِ كاتالوغات *إيكس-ليبريس* التي كانت تظْهر مرّتين في السّنة، وكان عددُ صفحاتها يزبو بقليلٍ على المائة صفحةٍ، كما كنت مُكلّفاً بتحريرِ الرّسائلِ، وتنسيقِ الإزساليّاتِ بعددِ الكاتالوغاتِ، والإجابةِ على الطّلبات، وتحضيرِ ساندويتشاتٍ بالتونةِ للغدَاءِ. كنت أمضي الأضباحَ في منزلي مُنكبّاً على عملي الخاصّ، وأنزلُ عند المُنتصَفِ إلى *ريفيرسايد درايف*، وأستقِلُّ الحافلةَ رقم 4 لِتوصِلَني إلى المكتب في شُقّةٍ مُكتراةٍ بِعمارةِ *بيراونتسون* في 69 بالشارع الشرقي، كانت تضُمُّ أملاكَ *إكس- ليبريس*، وكانت غُرفتاها مُكتظّتين بآلافِ الكُتُبِ، والمجلّات، والمطبوعاتِ المُتنوّعة، مُكدّسةً فوق الطّاولات، ومُثبّتةً على الرُّفوفِ، ومُنضّدةً في خزاناتٍ. كانت هذه الأشياءُ الثمينةُ قد غَمرَتِ الفضاءَ كلّه. كنتُ أقضي هناك أربعَ أو خمسَ ساعاتٍ كلّ يومٍ بعد الظّهيرةِ، كما لو كان الأمرُ شبيهاً بالعملِ في مُتحَفٍ. إنّه معبَدٌ صغيرٌ منذورٌ لِلطّليعةِ .

Telegram:@mbooks90

كان *أرثور* يعمل في إحدى الغُرفتين، وأعمل أنا في الأخرى. كلُّ واحدٍ أمام مكتبٍ نستغرِضُ فيه الوثائقَ المعروضةَ لِلبيعِ، ونُحضِّرُ المقالاتِ التذقيقيةَ الخاصّةَ بكاتالوغنا على جُذاذاتٍ من حجم 13×18 سنتمتر .كنتُ مُكلّفاً بِكلّ ما له صِلة بالفرنسية والإنجليزية، وكان *أرثور* مُكلّفاً بالألمانية والرّوسية. كانت الطّباعةُ وفنونُ الخطّ وفنُّ العِمارةِ تدخلُ في نِطاقِ اختصاصه، وكنتُ مَعْنِياً بكلّ ما له صِلة بالأدب. كان العملُ دقيقا عفا عليه الزّمن إلى حدّ ما،

(كان لا بُدّ من قياسِ الكتبِ، وفحصِها بحثاً عن الشّوائب، وتفصيلِ القولِ في مصدرها إذا اقتضى الحالُ)، غير أنّ مُعالجةَ مُعظمِ المواضيعِ كانت مُؤثِّرةً جداً، وكان *آرثور* يتركُ لي كاملَ الحُريةِ لِلتّعبير عن آرائي في شأنها. بل أنثرُ شيئا من الدُّعابةِ، من هنا ومن هناك، عندما يحلو لي ذلك. وهذه الأمثلةُ المُقتطَفةُ من الكاتالوغ الثاني ستُقدّمُ فكرةً عمّا كان يُجَسّدُه هذا العملُ .

233 – **دوشامب. م،** و **هالبرستادت. ف،** *التعارض وتربيعاتُ الشطرنج المُترافقةُ،* وفّقَ بينها *مارسيل دوشامب* و ف .*هالبرستادت*، مطابع ليشيكيي، سان جرمان أون لاي وبروكسيل، 1932. نص مشابه بالألمانية والإنجليزية على الصفحات اليُسرى، 112 صفحةً مُزدوَجَة الترقيم مع رسمين مُلوّنين، غلافه من ورق مطبوعٍ .

هذا الكتابَ المشهورَ عن الشطرنج الذي كتبه «دوشامب»(54) وأخرج طباعته (*شوارز*، ص 519)، بالرّغم من كونه نصّاً جادّاً خصّصَه لِمسألةٍ حقيقيةٍ من مسائل الشّطرنج، فإنّه، مع ذلك، كتابٌ على درجةٍ من الغموض تكاد تجعله بلا قيمةٍ. يستشهدُ *شوارز* بِ *دوشامب* الذي كان قد قال: (ليس لِنهايات الألعاب هذه التي تترابط معها هذه الوقائع أيُّ أهميّةٍ بالنسبة لِلاعبِ الشطرنجِ. وهذا هو الجانبُ الطّريفُ فيها. إنّ ثلاثةَ أو أربعةَ أشخاصٍ في العالم هم مَنْ يهتمّون بها فقط، وهم الذين حاولوا القيامَ بِمثْلِ هذا الضّربِ من البحوثِ الذي قمنا به أنا و *هالبرستادت*، مادمنا قد كتبنا الكتابَ معاً. إنّ أبطالَ الشطرنج لا يقرؤون أبداً هذا الكتاب، وذلك لِأنّ المشكلَ الذي يفرِضُه لا يَرِدُ أبداً بصورةٍ حقيقيةٍ غيرَ مرّةٍ في حياةٍ ما. ويمكن مُصادفةُ هذه المسائل في نهاية لُعبةٍ، بيدَ أنّ نَدرَتَها تكاد تجعلُ منها مسائلَ خياليّةً)، ص 63 .

394 (*شتاين جرترود*)(55)، شهادة: ضِدّ *جرترود شتاين*. نصوص كتبها

جورج براك، أوجين جولاس، ماريا جولاس، هنري ماتيس، أندريه سالمون، نريستان تزارا. مطبعة سيرفين، لاهاي، فبراير 1935 (مجلة «*ترانزيسيان*»، « رسالةُ هجاءٍ، رقم 1 »، تكمِلةٌ لِ « *ترانزيسيان*»، 1934 – 1935، رقم 23). 16 صفحةً. الغلاف من ورقٍ مطبوع، مشبوكٍ .

في ضوء البعث والإحياء الكبير لِ *شتاين* في سنوات السبعينيات، فلا جِدالَ في القيمةِ الرّاسخةِ لهذه الرسالة الهجائيةِ. إنها بمثابةِ تِرْياقٍ لِلرّضا عن الذّات من الناحيّة الأدبية، وهي، في ذاتها، وثيقةٌ أساسيّةٌ للتاريخِ الأدبيّ والفنّيّ. على إثْرِ الأخطاءِ وتشويهاتِ الوقائعِ التي تخفَلُ بها « سيرة «*أليس. ب. طوكلاس*»الذاتيةُ»(56)، نظّمت *ترانزيسيان*(57) مُنتدى هدفه أنْ تُتيحَ لِبعضِ الشخصيات المذكورة في كتابِ السيدة *شتاين*، تكذيبَ الصورة التي قدّمَتها عنهم. ويبدو أنهم أجمعوا على قرارٍ واحدٍ. ماتيس: (في الجملةِ يكاد الأمرُ يبدو مِثْلَ بِذلةِ مُهرّجٍ، حيث أجزاؤُها المُختلفةُ التي ابتدعتْها، كانت قد خيطت معاً بِلا ذوقٍ تقريبا، ومن دون صلةٍ بالواقع). أوجين جولاس: (إنّ «السيرةَ الذاتيّةَ *لأليس طوكلاس*»، بِبوهمِيّتِها الجوفاءِ، وبَريقِها الخَدّاعِ، وتشويهاتها الأنانيّة، لَبِوُسْعِها أنْ تصيرَ ذات يومٍ مثالاً على الاِنْحطاطِ الذي يتهدّدُ الأدبَ المعاصر). *براك*: (لا تفقَهُ السيدةُ *شتاين* شيئاً فيما يجري من حولِها). *تزارا*: (بِأسلوبٍ صبيانيٍّ مُشْحّبٌ للغاية حين يتعلق الأمرُ بالتودُّد في فجوات الرغبة، نُميّز بسهولة، من خلاله، فكراً يبدو في الواقع شديد الفظاعةِ، كثيرَ الاِعتيادِ على حِيَلِ الدّعارة الأدبية الأشدّ انحطاطاً، إلى الحدّ الذي لا أعتقد فيه أنّ من الضروري الإلحاحَ على وجود حالةٍ سريريّةٍ لِجنون العظمة). *سالمون*: (يا له من خلْطٍ ! ويا له من سوء فهم لِمرحلة ! من حسن الحظّ أنّ هناك كُتاباً آخرين وصفُوها بطريقة أفضلَ). وفي الختام، يُعَدُّ نصّ *ماريا* جولاص (58) رائعاً بخاصةٍ، وذلك بفضل وصفها المفصّل لِلّحظات

الأولى *لترانسيسيان*. لم تكن هذه الرسالة الهجائية قد بيعث منفصلةً في الأصل .

437 *بول غوغان* .Noa Noa، رحلة إلى تاهيتي، مطابع ج. كريس وسي، باريس 1924، 154 صفحة. كتاب ألّفه *بول غوغان* ووضع رسوماته *دانييل دو مونفريد* .

يتعلق الأمر هنا بأوّل طبعة نهائية، تتضمّن نصوصَ المقدمة وقصائد *شارل موريس*. لا تكمن روعة محكي السنتين الأوليين *لغوغان* بتاهيتي في كشوفاته البيوغرافية الدّالة فحسبُ، بل أيضاً في طريقته الأنتربولوجية بشكل حذسي في معالجة ثقافة أجنبية. يتقيّدُ *غوغان* بمبدأ *بودلير*: (قل: ما ذا رأيت؟). والنتيجة هي معجزة في الرؤية: فرنسي في ذروة الإستعمار يرحل إلى «بلدٍ متخلّف» بغيةَ التعلُّم، لا بغرض الغزو، أو التبشير. وتُعدُّ هذه التجربةُ الحدثَ المحوريّ في حياة *غوغان*، بوصفه فنّاناً وإنساناً في آنٍ واحدٍ. كذلك تُرجِمت Noa Noa(59) إلى الإنجليزية من قِبَل *أ. ف تييس* و *نيكولاس. ل. براون*، نيويورك، 1920 (الطبعة الخامسة، وظهرت الطبعة الأولى عام 1919)، 148 صفحة ÷ 10 صورٍ *لغوغان* .

509، *راي مان* (60)، (السيّد والسيّدة وودمان)، مطبعة أونيدا 1970، الصفحات مُرقّمة مع 27 صورةً أصلية و نَقْشاً وقّعه ورقّمه *مان راي* .

من بين الأعمال العديدة الغريبة *لمان راي*، يُعدُّ هذا العملُ شديدَ الغرابةِ. (السيّد والسيّدة وودمان) هما صورتان من الخشب شبيهتان بالدُّمى، صنعهما *مان راي* بهوليود عام 1947. أمّا الكِتابُ الذي ألّفه عام 1970 فيشتملُ على سلسلةٍ من المونتاجات التصويرية لهذه التماثيل الروحيّة التي تحيا، بدهشةٍ، في بعض الوضعيات الإيروسيّة بالغة الإلْتِواء، والتي يُوشعنا تصوُّرُها. وفي

الجملة فإنّ هذا الكتابَ لا يمكن أنْ نُجيدَ وصفَه، إلّا إذا اعتبرناه دليلاً جنسياً مُخصّصاً لِشخصياتٍ من خشبٍ. ها هو العدد 31 وقّعه *مان راي*، ويوجد ضمن طبعة محصورةٍ في خمسين نسخةً، وجميعُ صورِه هي صورٌ أصليةٌ لِلفنّانِ تحمل طابَعه. وتمّ إدراجُ محفورة أصليّة رقّمَها، ووقّعَها، وأنجزها *مان راي* خصّيصا لهذه الطبعة .

كُنّا، أرثور وأنا، متفاهمين كلّ التفاهم، لم نعرف التوتُّرَ ولا الصّراعات، وكُنّا نشتغل معاً في جوٍّ وُدّي، وهادئ. لو كنتُ شخصاً مُختلِفاً قليلاً لكنتُ حافظت على هذا العمل مدّة سنواتٍ، وبما أنّني لم أكن هذا الشخصَ فإنّني طفِقْتُ بعد بضعة أشهرٍ أضْجَرُ وقد عِيلَ صبري. طالما وَدِدتُ فحصَ الكتبِ ذاتِ الصّلة بالمواضيع التي كان يتوجّبُ عليّ الكتابةُ فيها، وقراءتَها بسرعةٍ. غير أنّ هيئة ذهن جامِعِ التُّحفِ تُخوِجُني، ولم أكنْ أُوَفّقُ أبداً إلى الشعور بالإحترام والتبجيلِ المُناسبين إزاء الأشياء التي كُنّا نبيعها. حين نتهيّأُ للكتابة عن كاتالوغ أعدّه *مارسيل دو شامب* للمعرضِ السوريالي عام 1947 بباريس مثلاً، وهو كاتالوغ يُبرِزُ غلافُه ثدياً مُضمّخاً شهيراً من الكاوتشوك، وبِجنبه الأمرُ التالي: (المرجو أنْ تلمسوا)، وحين نُلْفي هذا الكاتالوغ تَقيه عِدّةُ طبقاتٍ من غِشاءٍ ذي فُقّاعاتٍ مُحاطةٍ بدورها بِورقٍ سميكٍ داكنٍ مذسوسٍ بدوره في كيسٍ من البلاستيك، فإنّ هذا لا يمنعنا من أنْ نتوقّفَ هُنيهةً لنتساءلَ إذا لم نكن نُضيّعُ وقتَنا. (**المرجو أنْ تلمسوا**)، إنّ صيغة الأمر التي يُنشِئُها *دو شامب* هي تلاعُبٌ واضحٌ بالإشارات التي يجدُها المزءُ في كُلّ مكان في فرنسا: (**اللّمسُ ممنوعٌ**). إنّه يُطيحُ الممنوعَ ويُزيحُه، ويحثُّنا على مُداعبة الشيء الذي صنعه. وأيُّ شيءٍ أجودُ من هذا الثّدي اللّميسِ الذي صُوِّرَ في أحسنِ تقويمٍ ؟ يقول: لا تُجلّوا هذا النشاطَ الطائشَ الذي يُدعى فنّا، لا تخمِلوه على مَخملِ الجِدّ، لا تُذِلّوا أنفسَكم بين يديه. وها بعد مُضيّ سبعة

وعشرين عاماً يُطاحُ من جديدٍ بهذا التحذير. لقد تمّ حجْبُ الثّدي العاري، وتحوّلت السّخريةُ إلى مُعاملةٍ تجاريّةٍ ذاتِ رصانةٍ قاتلةٍ. ومرّة أخرى فإنّ المالَ هو صاحب الكلمةِ الفصلِ .

لا أتوخّى، هنا، توجيهَ سهام النّقدِ إلى أرثور، فلا أحدَ يُضارعه في الشّغفِ بهذه الأشياء. وإذا كانتِ الكاتالوغاتُ التي نبعثها إلى مُشْتَرين مُحتملين وسائلَ تجاريّةً، فإنّها كانت أيضاً أعمالاً في المعرفة المُتبحّرةِ، ووثائقَ دقيقةً في حدّ ذاتها. لا ينبعُ الفرقُ بيننا في كوني أفهم الأمورَ أحسنَ منه (فقد يكون، العكسُ تماما)، وإنّما مَردُّ الخلافِ يكمن في أنّه كان رجلَ أعمالٍ، ولم أكن أنا كذلك، وهذا ما يُفسّر بأنه كان هو الرئيس، أمّا أنا فلم أكن أجْني سوى حفْنةٍ من الدولارات الهزيلةِ في السّاعةِ. كان *أرثور* يجد لذّةً في كَسْبِ المغانمِ، وكان يعشقُ الكَدّ بُغيةَ إنجاح المشروعِ، وتحقيقِ الفوزِ. وإذا ما كان، في الوقت ذاته، رجلَ ثقافةٍ ذا ذائقةٍ بالغةِ الرهافةِ، ومثقفاً حقيقيا يحيا في عالم الأفكارِ ومن أجله، فإنّنا لا يمكن أن نَنْفيَ واقعةَ كونه مُقاولاً ذكيّاً. إنّ حياةَ الفكرِ ما كانت، في الظاهر، مُتعارِضةً مع حُبّ المالِ. كنت أعرف نفسي جيّدا بما يكْفي لِأُدرِكَ أنّ مثل هذا الشّيء لم يكنْ مُمكناً بالنسبة لي، لكنّني أرى الآن أنّه كان ممكنا للآخرين. كان ثمة أشخاص لم يكونوا مُرغمين على الإختيار، إذْ لم يكن هناك داعٍ لتقسيم العالمِ إلى مُعسكرين مُتمايزين، فَبِوُسع الناس، في الواقع، أنْ يعيشوا في المعسكرين في آنٍ واحدٍ .

ما هي إلّا أسابيع بعد أنْ شرعت أعمل عنده حتّى أوصى صديقاً بي كان يبحث عن شخصٍ يعمل خلال مدّةٍ وجيزة. كان *أرثور* يُدرك أنّي سأكون في حاجة إلى مورِدٍ إضافيٍ. وإنّي لَأزوي هذا الجميل البسيطَ بوصفه مثالاً على كرمه الذي أسداه إليّ. وبما أنّ هذا الصديقَ كان هو جيرزي كوسينسكي (61) ، وأنّ هذا العملَ قد وَرّطَني في نشر الكتاب الأخير *لِكوسينسكي*، فإنّ

هذا المشهدَ يستحِقّ أنْ يُروى. منذ بضع سنواتٍ يُحيطُ بكوسينسكي جدَلٌ حادٌ، ومادام هذا الجدلُ ينبَع، بنسبةٍ كبيرةٍ، من الرّواية التي اشتغلتُ عليها (Cockpit) فإنّي ارتأيتُ أنْ أضيفَ شهادتي إلى مجموعِ الشهادات. كان دوري يَتلخّص، فقط، في إعادة قراءة المخطوط، والتأكد من استقامة لغته الإنجليزية، فعلى هذا النحو أوضح لي *أرثور* مهمّتي. وبما أنّ الإنجليزيةَ لم تكن لغةَ *كوسينسكي* الأمّ، فإنّ رغبتَه في أنْ يُراجَعَ نثرُه قبل أنْ يعهَدَ بالكِتاب إلى ناشرِه، كانت تبدو لي حكيمةً كلّ الحكمةِ. ما لم أكُن أعرفُه هو أنّ آخرين من قبلي كانوا قد عمِلوا على هذه المخطوطِة – ثلاثة أو أربعة أشخاص، فهذا يعتمد على القصص التي قرأناها عنها. أمّا *كوسينسكي* فلم يسبق له البتّة أنْ حدّثني عن هذه المساعدة السابقة. وعلى أيّ حالٍ فالمشاكلُ التي ظلّت قائمةً لا تَتأتّى من كون إنجليزيّة الكِتابِ تَنبو عن الأنجليزية الفصيحة وتُجافيها، بل إنّ العُيوبَ كانت أكثرَ جوهريةً من ذلك، إذْ لا تتعلّق بالكِتاب نفسِه، وإنّما بالطريقة التي رُوِيت بها القصّةُ. كنتُ أُصحّحُ بضعَ جُمَلٍ هنا، وأغيّرُ بضعَ كلماتٍ هناك، لكنّ حاصلَ القول هو أنّ الروايةَ كانت قد انتهت لمّا عُهِدَ بها إليّ. لو تُرِكْتُ وشأني لكان في وُسعي إنهاءُ الكتابِ في يومٍ واحدٍ أو يومين، ومع ذلك، لأنّ *كوسينسكي* كان يرفض أنْ يترك المخطوطَ يغادر منزله، ولِأنّه كان يتحتّمُ عليّ أنْ أقْصِدَ شقّته الكائنةَ في 57 بالشارع الغربيّ بغية العَمَل عليه، ولِأنّه كان لا ينفكّ يحوم حولي، ويُقاطعني خلال كلّ عشرين دقيقةً بِقصصٍ وطرائفَ، أو بكلام فارغٍ عَصبيٍّ، فإنّ العملَ تباطأ مدّة سبعة أيّام. لا أدري سببَ هذا، غيرَ أنّ *كوسينسكي* كان يبدو حريصا جدّا على إثارة إعجابي. وهذا ما حدث في الواقع. كان يبدو مُتوتّراً، وكان يتصرّف بطريقةٍ غريبةٍ جداً، ومجنونة للغاية، بحيث لم يعُد بِوُسعي التّغاضي عن هذا الأمر. وإنّ ما يجعل من هذه المقاطعات غريبةً ومُزعجةً على نحوٍ مُضَاعَف، هو أنّ جميعَ القصصِ التي رواها لي، كانت تظهر، على وجه التّقريب، في

كتابه أيضا، في هذه الرواية التي كانت صفحاتها معروضةً أمامي، حين كان يغشى الغرفةَ بُغيةَ الثرثرة. فكيف سوَّغ له ذهنه العظيمُ الفرارَ من بولونيا على سبيل المثال، أو كيف كان يتسكّع في (التايمز سكوار) عند الساعة الثانية صباحا، مُتنكّراً في هيئة شرطيّ مدنيّ من بورتوريكو، أو كيف كان يذلُفُ، عند الحاجة، إلى مطاعم فاخرةٍ وهو يرتدي زيّاً عسكريا مُزيّفاً (أعدّه له خيّاطه، وهو زيٌّ لا يُمثل لا رُتبةً، ولا دولةً، ولا جيشاً قابلاً لِتَعيّنِ هُويّته)، وإذْ كان هذا الزّيُّ يشي بالهَيبَة، وهو مُوَشّى بعددٍ لا يُحصى من النّياشين والميداليات، فإنّ مُدراءَ الخدمِ في الفنادق كانوا يُخصّصون له أفضلَ الطّاولات من دون حجزٍ مُسبقٍ، وبلا بقشيشٍ، وبلا نظرةٍ مُتبادلةٍ. وبالرغم من أنّ الكتاب كان، من حيث المبدأ، كتاباً في التخييل، فإنّ كوسينسكي عندما كان يروي لي هذه القصصَ، كان يُقدّمها بوصفها وقائعَ، وأحداثاً حقيقيّةً في حياته، فهل كان واعيا بالإختلاف ؟ لست متأكّداً من هذا، بل إنني لا أستطيع حتى تخمينه، لكنّي إذا اضطرَرْتُ إلى إعطاء إجابة، فسأقول نعم. كان يبدو لي ذكياً للغاية، وواعِيا بذاته كلّ الوعي، و بالأثرِ الذي كان يُحدثه في الآخرين، حتّى إنّه يتسلّى بالبلبلة التي كان يُثيرُها. كان الموضوعُ المشتركُ لهذه القصص هو الخِداعُ. وعلى كل حال كان يستمتِعُ بالسّخرية من النّاسِ. ولقد شعُرتُ من خلال طريقته في الضّحك عندما كان يرويها لي – كما لو كان يبتهج، ويتغذّى من صَلَفِه واستِخْفافه الخاصّين – شعُرْتُ أنّه رُبّما كان يستخِفُّ بي فقط، ويُغدِقُ الثّناءَ عليَ قصْدَ رَوْزِ حُدودِ سذاجتي، قد يكون هذا. أو قد يكون عكْسَه. إنّ يقيني الأوحدَ هو أنّ كوسينسكي رجلٌ مُعقّدٌ تعقيداً هائلاً، ولم أتفاجأ عندما طفقتِ الشّائعاتُ تنتشرُ حوله في أواسط الثمانينيات، وحين ظهرتْ مقالاتٌ في بعض المجلّات تَتّهِمُه بالإِنتحال، وباستخدامِ مُساعدين يكتبون أثراً أدبياً له، وترويج أكاذيبَ تتعلق بماضيه. لكنّي تفاجأتُ بعد عدّة أعوامٍ عندما لقي حتفَه اختناقاً بواسطة كيس من

البلاستيك، لقد قضى نحبه في هذه الشقة ذاتها التي كنت قد عَمِلْتُ لديه فيها عام 1974، وفي الحمّام الذي كنت غسلت يديّ فيه. فبمجرّد أن أفكّر فيه، أرى كلّ شيء من جديد.

ما عدا هذا، فإنّ الشهورَ التي أنفقتُها في *إكس- ليبريس* كانت شهورَ طُمأنينة وسكينة، إذ يكاد لا يحدث فيها أيُّ شيءٍ، وبِما أنّ القسمَ الأعظمَ من المُعاملات كان يتِمُّ بواسطة المُراسلات، فنادراً ما كان يأتي شخص إلى الشّقة لِيُلْهِيَنا عن عملنا. غير أنّ ذات يومٍ، في نهاية ظهيرةٍ، وبينما خرج *أرثور* لِلتّبضُّع، إذا بِ جون *لينون* (62) يطرُق البابَ بُغية مشاهدة صُورِ *مان راي*.

- سلّم وهو يمُدُّ يدَه إليّ، إسمي جون .

- فردذتُ له التحيّةَ، وأنا أُمسِك بيده، وأهُزُّها هزّاً قويّاً، إسمي *بول* .

وبينما كنتُ أُفتّش عن الصُّور في إحدى الخزانات، وقف *لينون* أمام لوحةِ لِ *روبير موثرويل* (63) كانت على الحائط خلف مكتبِ *أرثور*. ولم تكن هذه اللوحةُ تُجسّدُ شيئاً ذا بالٍ – خطّان أسودان في خلفية برتقالية كبيرة – و ما هي إلّا بضع لحظاتٍ تفحّص فيها *لينون* الصورة حتى استدار نحوي قائلاً: (يمكن القول إنّ هذه اللّوحةَ قد تطلّبت الكثيرَ من الجهد، أليس كذلك ؟). وبجانب كلّ المجاملة المشفوعة بالإجلال والمودّة التي تسود عالمَ الفنّ، وجدتُ من المُريح أن أسمعه يقول ذلك .

لقد انفصلنا، أنا و *آرثور* ونحن على وئامٍ ووُدٍّ، لا يُكِنُّ الواحدُ منّا لِلآخرِ ضغينةً، وتعهدتُ أنْ أجدَ شخصا بديلاً لي قبل أنْ أرحلَ عنه، وهذا ما جعل من رحيلي أمراً سَلِساً بلا آلامٍ نسبياً. ولقد حافظنا، خلال شهورٍ على التواصل، ونحن نتهاتف بين الفينة والأخرى، قصد تبادل آخر الأخبار، غير أنّ حبْلَ التواصل بيننا آلَ إلى الإنصرامِ. وعندما قضى *آرثور* بسبب سرطان الدّم

منذ سنين عديدة، ما غدْتُ أتذكّر أبداً حتى حديثنا الأخير، ثم حدث انتحارُ كوسينسكي. وإذا أضفنا إلى هذين الحدثين اغتيالَ جون *لينون* قبل عشر سنواتٍ ونيف، فيكادُ جميعُ شهودِ هذه الفترةِ يختفون من حياتي. وحتى صديق *آرثور روبير موثرويل* الفنّانُ المُجيد صاحبُ اللّوحةِ السّيئةِ التي أغْرَتْ تعليقَ *لينون*، لم يعد بيننا. وإذْ يبلُغُ المرءُ مرحلةً مُعيّنةً من حياته، فإنّه يُدرك أنه يقضي أيامه في صُحبة الموتى، بقدر ما يقضي أيّامَه في زُفقة الأحياء .

كانت السّنتان المُواليتان تتّسمان بنشاطٍ مُكثّفٍ، فبين مارس 1975 حيث توقفتُ عن العمل في *إكس - ليبريس*، ويونيو 1977، حين وُلِدَ ابني، أصدرتُ ديوانين شعريين جديدين، وكتبت عدّة مسرحيات من فصلٍ واحدٍ، ونشرتُ خمسة عشرَ أو عشرين نصّاً نقدياً، وترجمتُ نصف دزينة من الكُتب بمَعِيةِ زوجتي *ليديا ديفيس* (64). كانت هذه الترجماتُ هي الموردَ الأساسَ لِدَخْلِنا، وكنّا نعمل معاً، كفريقٍ، من أجل مقدارٍ من الدولارات مُقابل ما يُقارِبُ ألفَ كلمةٍ، ونحن راضون بكلّ المهن التي تُعْرَضُ علينا. وما عدا كتاباً *لِسارتر* (مواقف 10، مجموع مقالات وحواراتٍ)، فإنّ الكتبَ التي كان النّاشرون يعْهَدون بها إلينا، كانت كتباً مُضْجِرَةً وغثّةً، تتراوحُ قيمتُها بين كُتُبٍ أقلّ جودةً، وأخرى رديئة بصراحةٍ. ومن النّاحية المالية لم تكن المُكافأةُ جيّدةً كذلك، وبالرّغم من أنّ بيانَ أجرتنا كان يرتفع من كتابٍ إلى آخرَ، فإنّنا إذا ما حسبنا أجورنا على قاعدة ساعات العملِ، لم نكن نتخطّى الحدَّ الأدنى لِلأجْرِ بِفِلْسٍ أو فلسين إلّا نادراً. وكان الحلُّ يكمن في العملِ بسُرعة، وفي غزْلِ الترجماتِ بأسرع ما يُمكن، من غير أن نتوقّفَ لالْتقاطِ النّفَسِ مُطلقاً. من المؤكّد أنّ هناك طُرُقاً أكثر إلْهاما لِكَسْبِ العيشِ، لكنّنا، *ليديا* وأنا، كنّا نُكِبُّ على هذه المَهامّ بقدرٍ كبيرٍ من الانضباط. كان أحدُ الناشرين يعْهد إلينا بِكتابٍ، فكنّا

نقتسمُ الكتابَ (بل كنا نذهبُ إلى حدّ تمزيقِ الكتاب إلى قسمين، إذا لم نكن نملك سوى نُسخةٍ واحدةٍ). وكنا نُلزِمُ نفسينا بكُوطا (حصّة نسبية) يوميةٍ، ولم يكن مسموحاً لنا بأنْ نَحيدَ عن هذه الكوطا. وكان ينبغي أنْ نُترجمَ كثيراً من الصَفحات في اليومِ. وفي كُلّ يومٍ، سواءً أكنّا مُستعدّين أمْ لمْ نكنْ، فإنّنا كنّا نُثابِرُ على القيامِ بهذا. وكان تحضيرُ الهمبرغر مُزيحاً أيضاً، غير أنّنا كنّا أخراراً على الأقلّ، أو كنّا نعتقد أنّنا أحرارٌ على الأقلّ. ولم أشعُرْ أبداً بأيّ ندمٍ لكوْني تركتُ عَملي. وعلى هذا النحو اخترتُ سبيلي في العيش، سواء أكانتْ سارّةً أمْ ضارّةً. وبين الترجمات بُغيةَ كسبِ المال والكتابة الشخصية، قلّما كان الوقتُ يُغوِزُني خلال هذه الأعوامِ، لِأجلس في مكتبي، وأقيّد كلماتٍ على صفحة من الورقِ .

لم أكن أكتبُ النقدَ الأدبيّ بهدف المالِ، غير أنّي كنت أحصُلُ على مُكافأةٍ ماليّةٍ لِقاءَ مُعظمِ المقالات التي كنت أنشرُها، وكان هذا يُساهم إلى حدٍّ ما في زيادة دخلي. و كان العيشُ كفاحاً على أيّة حالٍ. ومن شهرٍ لآخر كنّا ندنو من شفا الإذْقاعِ، وما هي إلّا ستةُ أشهرٍ من مُكابَدتِنا، نحن الإثنين، لهذا الوضعِ الحَرِجِ، حتّى حَلّ خريف 1975، وبِحُلولِه ابتسم لي الحظُّ، إذْ حصلتُ على مِنحة قدرها خمسة آلاف دولار من مؤسسة *إنغرام – ميريل*، فانخفض التوتّرُ خلال بعض الوقت، وما أشدّ ما كان هذا المالُ مُفاجئاً، وهائلاً، بِتشعُّباته إلى الحدّ الذي شعُرتُ فيه بأنّ ملاكاً كان قد هبط من السماء لِيَطبَعَ قُبلةً على جبيني .

كان المسؤولُ عن حدثِ القَدَرِ السّعيد هذا هو جون *بيرنار ميرز* (65). لم يفنخني جون المالَ من جيبه، وإنّما هو الذي حدّثني عن المؤسسة، وشجّعني على أنْ أتقدّمَ بِطلبي لِنَيلِ المِنحة، أمّا المُنعِمُ الحقيقيّ فهو، طبعاً، الشاعر جيمس *ميريل* (66) الذي كان يقتسم ثروةَ عائلته مع كُتّابٍ وفنّانين آخرين،

في صمت، وبأكبر قدرٍ ممكنٍ من السرّ والكتمان، منذ سنين عدةٍ، وهو يتوارى خلف اسمه الثاني حتى لا يُثيرَ الإنتباهَ حول سخائه المُذهلِ. كانت لجنةٌ تجتمع كلّ ستة أشهرٍ لِفَحصِ الطّلبات الجديدةِ، وتوزيعِ المِنَحِ. وكان جون سكرتيرَ هذه اللّجنةِ، وعلى الرغم من أنّه لا يُشارك في اختيارِ المستفيدين، فإنّه كان يُشارك في الإجتماعات، ويعرف آراءَ أعضائها. قال: لاشيء مُؤكّد، غير أنّه كان يعتقد أنّ بِؤسعهم تشجيعي على عملي، وعليه جمعتُ إضْمامةً من قصائدي، وبعثتها إليهم، فصَدَقَ حدسُ جون .

لا أعتقد أنّي عرفتُ، على الإطلاق، شخصاً أكثرَ غرابةً، ولا أكثر صراحةً، وبَوْحاً من جون، وفي المرّة الأولى التي التقيته فيها، أواخر عام 1974، كان يُشكّلُ، منذ ثلاثين سنةً، جزءاً من المشهد النيويوركي، وقد اشتُهِرَ، على الخُصوص، بوصفه مديراً لِرُواقِ Tibor de Nagy في الخمسينيات، مثلما عُرِف أيضا بوصفه مُشاركاً في تأسيس (*الأرتيست* تياتر)، ومديراً مسؤولا عن العديد من المجلّات الأدبيّة التي لا تدوم طويلاً، واشتُهِر، على نحو خاصّ، بصفته مُدافِعاً ومُديراً لِلْمواهبِ الشّابّة. كان جون سبّاقاً في تقديمِ معارضِ رُسومٍ كُبرى لِفنّانين، نحو ريد *كرومز* و *لاري ريفيرز* و *هيلين فرانكنتالر* و *فيرفيلد بورتر*. كما نشَرَ الكُتُبَ الأولى *لفرانك أوهارا* و جون *أشبيري*، وشعراء آخرين من مدرسة نيويورك. كانت المسرحياتُ التي يُخرجها تنشأُ عن تعاونٍ بين العديد من هؤلاء الشعراء والفنّانين أنفسهم، كالتعاون الذي حصل، على سبيل المثال، بين *أوهارا* و *ريفيرز*، أو بين *جيمس شويلر* و *إلين دو كونينغ*، يكتب الواحد الكلمات، ويُبدِع الآخرُ الدّيكورات. لم يكن (*الأرتيست تياتر*) يُحقّق مداخيلَ ضخمةً، غير أنّ جون وشريكَهُ حافَظا على استمرارِه خلال سنواتٍ، وكان، بالفعل، هو المسرحَ التجريبيّ الوحيدَ الذي يُغثَرُ عليه في نيويورك، في فترةٍ لم يظْهَز فيها إلى الوُجود بعدُ

مسرح *أوف – برودواي*، وإنّ ما كان يُميّز جون عن الآخرين الذين عرفتهم جميعاً، تُجّاراً وناشرين ومُنتِجين، هو أنّه لم يكن يقوم بهذا العمل من أجل المالِ. وفي الحقّ، لم تكن له صفةُ رجلِ أعمالٍ حقيقيّ، لامِراءَ في ذلك، بيد أنّه كان يزعى وَلَعاً أصيلاً بالفنّ بِجميعِ أشكاله، وبواسطةِ معاييرَ صارمةٍ، وانفتاحٍ فكريٍّ عالٍ، وشهيّةٍ هائلةٍ لِلأعمالِ الأدبيّة المُختلِفةِ، والمُستفِزّةِ، والجديدةِ. كان فارِعَ القامةِ – يُجاوِزُ مِتراً وتسعين – وكان يُذكّرُني غالبا، من الناحيّة الجسمانيّة، بِجون *واين* (67)، يُذكّرني، مع ذلك، بِجون هذا. ولكونه كان يفْخَرُ بِمِثلِيتِه، ويَجْهَرُ بها، ويسخَرُ بِمَرَحٍ من نفسِه بواسطة كلّ أنواع التصرّفاتِ المُتَصَنّعَةِ، والأوضاعِ الشّاذةِ، ويَلْتَذُّ بِدُعاباتٍ بَلْهاءَ، وأغانيَ تافهةٍ، وريبرتوارٍ كاملٍ من الدُّعابة الصّبيانيّة، فإنّ لاشيء يجمعه بِجون الآخر. لم يكن قاسيَ القلبِ، عديمَ الشفقةِ، كان جون هذا يفيضُ حماسةً، وحُسنَ نِيّةٍ، كان رجلاً أوقَفَ حياتَه على المَحامِدِ والمَكْرُماتِ، وكان طيّبَ القلبِ .

عندما تعرّفْتُ إليه كان قد أضدَر لِلتّوّ مجلّةً جديدةً « من كلماتٍ وصُوَر» تسمّى Parenthése. لا أتذكّر الشخصَ الذي كان اقترح عليّ أنْ أبعثَ إليه بِمُساهمتي الأدبية، غير أنّني أزسلْتُها، ومنذ ذلك الحين كان جون يتحمّسُ لِنشرِ بعض ما أكتبُ في كلّ إضدارٍ تقريباً. ولمّا أوقَفَ إضدارَ المجلّةِ فيما بعد، وطَفِقَ ينشُر كتباً، كان ديوانٌ من أشعاري هو أوّلَ عُنوانٍ على قائمته. لقد كان إيمانُ جون بِأعمالي الأدبيّةِ مُطلَقاً، وقد آزَرَني في فترةٍ كان فيها نَفَرٌ قليلٌ من الناس يعلَمُ بِوُجودي. في الملاحظات التي تظهر في نهاية العددِ الرابع من *برانتيز* على سبيل المثال، وخلال التّذكير الجافّ بما أنجزه المُساهمون من قبل، فإنّه اضطلع بالإعلان عن أنّ (*بول أوستر* قد ترك أثراً عميقاً في دُنيا الأدب، بِتحليلِه اللّامعِ للآثار الأدبية التي كتبتها *لورا ريدينغ جاكسن* (68)، وبدراساته لفنّ الرّسم والشّعر الفرنسيين). وما كان مُهمّا أنْ يكونَ هذا

الإثباتُ مُجانِبا للحقيقة، إلّا أنّ جون كان الوحيدَ الذي لَفَتَ الأنظارَ حولي. كان شخصٌ ما يُؤازِرُني، وكان هذا التشجيعُ علامةً مائِزَةً خلال هذه الأيّامِ الأولى من الكفاح، والتَرَدُّد، والحصيلةِ الهزيلةِ. لقد كان جون سبّاقا إلى نُضرَتي، ولم أكُفّ أبداً عن الإعترافِ له بهذه النُصْرةِ والمُؤازرةِ، وحتى بعد انصرامِ أعوامٍ على رحيله، مازلت أتذكرُ باستمرارٍ صَنيعَه .

عندما توصّلْنا بِمال المِنحةِ، استأنفْتُ الرَحيلَ، أنا و *ليديا*، وبعد أنْ أجّرْنا الشّقةَ التي نستأجرها، رحلْنا إلى جبالِ *الورينتيد* في الكيبك، ولُذْنا، لِبضعة أشهرٍ، بِمنزل رسّام صديقٍ غائبٍ، ثمّ عُدنا إلى نيويورك مدّة أسبوعٍ أو أسبوعين، وبعدها حَزَمْنا حقائبَنا بسرعة، واجتزْنا البلدَ بالقطارِ حتى بَلَغْنا *سان فرانسيسكو*، وأقمنا أخيراً بِبِركلي، حيث استأْجرْنا شقّةً صغيرةً (ستوديو) مفروشةً لا تبعُد عن الجامعة، ومكثْنا فيها مدّة ستّةِ أشهرٍ. لم نكن غَنِيّيْن كفايةً كيما نكُفّ عن الترجمةِ، بيد أنّ طريقتنا كانت، منذ الآن فصاعدا، أقَلَّ جِدّةً، مِمّا كان يُتيحُ لي بأنْ أكرِّسَ وقتاً أوفرَ لِعملي الشخصيّ. واصلتُ كتابةَ القصائدِ، غير أنّ إلْهاماتٍ وأفكاراً جديدةً أنشأت تخطُرُ عليّ أيضاً، ولم يمضِ إلّا وقتٌ قليلٌ حتّى وجدتني مُنكبّاً على كتابة مسرحيّةٍ، تتلوها مسرحيةٌ ثانية، فثالثةٌ. وحين عُدت إلى نيويورك في الخريف، أطْلَعتُ جون عليها، ولم أكن أعرف تماما ماذا سأفعلُ بما كنت كتبته. كانت هذه المسرحيات قد انبَجَست بطريقة غير مُتوقّعةٍ، وكانت نتيجتُها مُغايِرة كلَّ المُغايرة لِما كنت أنجزته من قبل. وعندما أخبرني جون بأنّها نالت إعجابَه، اعتقدت أنّني رُبّما قفتُ بِخُطوةٍ في الاتجاه الصحيح. ولم يكن هناك شيء أبعد من ذهني من أنْ أجْنِيَ منها أيّ شيءٍ، كيفما كان نوعه بالمعنى العَمليّ، وما كنت أنوي عرْضَ هذه المسرحياتِ، ولا نشرها زيادةً، وليست في اعتقادي إلّا تمارينَ مُتواضعةً، قليلةَ الشأن، ومُحاولةً أولى في ميدانٍ يمكن أنْ يُثمِرَ شيئاً، أوْ لا

يُثمِرَ أيّ شيءٍ. ولقد فوجئتُ تماماً عندما أبلَغني جون بأنه يَوَدُّ اختيارَ أطولِ المسرحيّات لإخراجها .

لا يُمكننا أنْ نلومَ أيّ شخصٍ على ما حصل. كان جون قد أنشأ يعمل بحماستِه، وطاقتِه المعهودتين، غير أنّ كلّ شيءٍ آلَ مآلاً سيئا. وفي غضون وقتٍ ما، كان ينتابُنا الإحساسُ بأنّنا لم نكن نعملُ على إخراج عزضٍ مسرحيّ، بِقدر ما كنّا نسعى إلى إثبات الطّابع الذي لا يُمكن اختزالُه لِقانون مورفي (69). عثزنا على مُخرِج، وثلاثة مُمثّلين، ونظّفنا بعد وقت قليل قراءةً هدفها إيجادُ بعضِ التّمويلِ لإنتاجِ العزض. كان هذا هو المشروع على أيّ حالٍ. وقلّما ساعدنا وضعُ المُمثلين الذين كانوا شباباً أغراراً، وعاجزين، حقّاً، عن أداءِ النصّ باقتناع، أوإخساسٍ حقيقيّ. غير أنّ الأسوأ هو الجمهور الذي جاء يُشاهدهم وهم يُؤَدُّون هذا النصّ. كان جون قد دعا رهطاً من أغنى أصدقائه، جامعي التُّحَفِ الفنيّةِ، ولم يكن سِنُّ أيّ واحدٍ من هؤلاءِ الشُّرَكاء الماليّين المُحتملين يَقِلُّ عن ستّين عاماً، كما لم يكن أيُّ واحدٍ منهم يُبدي أدنى اهتمامٍ بالمسرح. كان جون يُراهن على المسرحية قضد إغرائِهم، وبذلَ جهدا جهيداً لِهَزِّ مشاعِرِهم، وإثارة فِكرِهم، إلى أنْ يزغبوا في أمرٍ واحدٍ، هو أنْ يضعوا أياديَهم في جيوبهم لِيُخرجوا منها دفاتِرَ شيكاتهم. كان المكانُ الذي جرى فيه الحدثُ شُقّةً فاخِرةً في *أبر ويست سايد*، وكنتُ مُكلّفا بإرضاء هؤلاء الأثرياء مُناصري الأدبِ، وبأن أبتسمَ، وأُثَرثِر، وأُقنِعهم بِأنّ مالَهم لنْ يذهبَ سُدى، وأنّ رِهانَهم لن يكونَ خاسِراً، غير أنّ المشكلَ كان يكمن في كوني كنت عديمَ الموهبة في توزيعِ الإبتسامات، وإلقاءِ الكلام الفارغِ. وصلت وأنا في حالةٍ من التوتُّر الشّديدِ، مُتهَيّج الأعصابِ، وسرعان ما أفرغتُ في جوفي كأسين من ويسكي بوربون على أمَلِ أنْ أفُكّ عُقدَتي. كان لِلكُحولِ أثَرٌ مُضادٌ تماماً. وبينما بدأتِ القراءةُ كنت قد أُصِبتُ بِصُداعٍ نِصفيّ مُبَرِّح

وعُدوانيّ، كان يَضلي السّحاءةَ ناراً ولَهَباً، وكلّما تقدمتِ الأمسيةُ شيئاً فشيئاً، صار لا يُحتَمَلُ أكثر فأكثر. عُرِضَتِ المسرحيّةُ بِصعوبةٍ، وكان هؤلاء الأشخاصُ يجلسون في صمتٍ، في لامُبالاةٍ كاملةٍ من بداية العرضِ حتى نهايته. ولم تكن تنتَزِع منهم بعضُ الحواراتِ التي خِلْتُها طريفةً أيّ ابتسامةٍ، وكانت الإثاراتُ الهزليةُ تُضحِرُهم، ولم يكن الكلامُ المُهَيّجُ يُؤثّرُ فيهم. كانت المسرحيّةُ بِرُمّتِها تُضايِقُهم. وفي الختام، وبعد حدوث تصفيقاتٍ هزيلةٍ وكئيبةٍ غرَضها المُجاملةُ، لم أكن أفكّرُ إلّا في الكيفيّة التي أنسحِبُ بها لِأتوارى عن الأنظار. كان رأسي يتصدّعُ ألماً، وكنتُ أشعُرُ أنّي مَكلومٌ، ومُهانٌ، وعاجزٌ عن الكلام. غير أنّي لم أكُنْ قادراً على تَزكِ جون، وهكذا استمعتُ إليه، لمدّة نصف ساعة أخرى، يتحدّث عن المسرحيّة لِأصدقائه المُتردّدين، وأنا أبذُل قُصارى جهدي كي لا أسقط على البساطِ مَغشِيا عليّ. كان جون يُواصِل مواجهةَ الموقفِ، إلّا أنّه كلّما كان يستَدير نحوي طالباً العونَ مِنّي، كنتُ أوَفّقُ فقط إلى إنعامِ النظرِ في حذائي وأنا أتَفتِم بتعليقٍ وجيزٍ، وغامِضٍ، وفي النهاية غَمغَمتُ، فجأةً، باعتذارٍ مُضطَرِبٍ، ثمّ انسحبتُ .

لو أنّ شخصاً آخرَ غير جون، لَكان صَرَفَ النّظرَ عن المسرحيةِ بعد حصولِ هذا الإخفاقِ، بيد أنّ جون لا يبدو أنّه تزَعزَعَ. لم تُثمِز هذه الأمسيةُ الفظيعةُ أيّ فِلْسٍ لصالحنا، غير أنّه أبَى الإحجامَ، وشرع يرتجلُ مشروعاً جديداً وهو يستبدِلُ حُلْمَه بِتحقيقِ مَجْدٍ مسرحيٍّ بِنَهجٍ أكثر تواضُعاً وواقِعِيةً. قال: إذا لم يكن في وُسعنا أنْ نَغرِضَ في مسرحٍ حقيقيّ، فإنّنا سنتدبّرُ أمرا آخرَ، فالمسرحيةُ وحدَها تغنينا، وحتّى لو تَحتّمَ أنْ تقتصِرَ مُدّةُ حياتِها على عزفِ واحدٍ يَخُصُّ المدعُوين لا غير، فإنها سَتُغرَضُ. وتابعَ: إنْ لم تُغرَضْ من أجلي أنا، أوْ من أجلك أنتَ، فستُغرَضُ، على الأقلّ، من أجل صديقه هربرت *ماشيز* الذي كان قد توفي في ذاك الصيف. كان *هِربِرت* هو المُخرجَ في *الأرتيست*

نياتر العتيقِ، وبما أنّه كان شريك جون لِخمسةٍ وعشرين سنةً خَلَتْ، فإنّ هذا الأخيرَ قد عَزَمَ على إحياءِ المسرح من جديدٍ، خلال مساءٍ واحدٍ، تكريماً لِذكرى *هِربِرت* .

كان شخصٌ يملك ورشةً للإصلاح في 69 بالشارع الشرقيّ قد منح جون التصرُّفَ في محلّه. واتُّفِقَ أنّ هذا المَحلّ يوجد قريبا جدّاً من مكاتب « إكس – ليبريس». إنها مُصادفة ممتعة بالرغم من كونها ثانويةً، والأكثر إثارة للإهتمام أيضا، أنّ مَحَطَّةَ السّيارات القديمة حيث يعمل، الآن ، صديقُ جون. كان في ما مضى ورشةَ عملِ *لِمارك* روثكو (70)، ففي هذا المكان تمّ اغتيالُ روثكو عام 1970. والآن، بعد انصرام أقلّ من سبعِ سنواتٍ، سيتِمّ عزضُ مسرحيتي في المكان نفسِه. لا أريد أنْ أبدُوَ مُفرِطاً في التّطَيُّرِ، لكن بالنّظر إلى الطّريقة التي سارت بها الأمورُ، يبدو لي أنّنا كُنّا ملاعين، وسواءٌ قُمنا بفعلٍ أم لم نقمْ به، فإنّ المشروعَ كان مَآلَهُ الإخفاقَ .

تمّ الشروعُ في التّحضيرات، وكان المخرجُ والمُمثلون الثلاثةُ يَكِدّون في العملِ. وشرع أداؤهُم يتحسّن رُويدا رُويداً، ولا أزْعُم أنّه صار جيّداً، ولكنّه كَفٌّ، على الأقلّ، عن أنْ يكونَ مُزْعجاً. وكان أحدُ المُمثلين يتميّزُ عن الآخرينِ. ومع تَتابُعِ الإعاداتِ صِرتُ أُعلّقُ أمَلي عليه، راجياً أنْ يُسهِمَ خيالُه، وجُرأته، في الرُّقيّ بالمجموعِ إلى مستوى معقولٍ من الكفاءةِ. وتمّ اختيارُ تاريخٍ للعزض في مُقْتَبَلِ شهر مارس، وأُرسِلَتِ الدّعواتُ، واتُّخِذَت الإجراءاتُ لِكي يُسَلَّم مائة وخمسون كرسياً تُطوى لِمَحَطّة السيارات. كان عليّ أنْ أحذَر، لكنّ التفاؤلَ، في الحقيقة، قد غَمَرَني. ثمّ ما هي إلّا أيّام قبل المساء الموعود، حتى أُصيبَ المُمثّلُ المُمتازُ بِالْتِهاب رِئَويّ. وبِما أنّنا كُنّا نَفتقِد مُمثّلا بديلاً (وأنّى لنا ذلك ؟)، فإنّه يبدو من الصائب أنْ يُلْغى العرضُ. ومع ذلك، فإنّ المُمثل الذي لم يَدّخِر منذ أسابيع، وقته، ولا جُهودَه، كان يَأبَى التّخلّيَ عن

أدائه. وبالرغم من الحُمّى المُبرّحة، وبالرغم من كونه يشعُل، ويبصقُ الدّمَ ساعات قبل البداية المُفترضَة للمسرحية، فإنّه غادر سريرَه، واكتظّ مُضاداتٍ حيويّة، ووصل في الوقت المُتوقّع وهو يتزَلّح من المرض كلّ الترلُّح. لقد كان تصرُّفُه هذا بالغَ الرّوعة، شديدَ الحُسنِ. لقد كان موقفا جَسوراً لِمُكافِحٍ يولَدُ، وكنتُ مُتأثراً بشجاعته – لست متأثراً فقط، بل مُفعَماً بالإعجاب به والتّقدير له – غير أنّ الحقيقةَ المُحزِنةَ هي أنّه لم يكن في حالة صِحّيةٍ تُسعِفه في القيام بهذا. فكلُّ التّوهُّج الذي كان يحدث خلال التّمرُّن على العمل المسرحيّ، بدأ يفقِد، بغتة، بريقَه ولمعانَه. كان الأداءُ باهتاً، وتناسُبُ الأصواتِ رديئاً، وكانت المشاهدُ، الواحدُ تِلْو الآخرِ، مُخبِطَةً. واقفاً في مُؤخّرِ القاعة، كنتُ أشاهد وأنا عاجزٌ، كنتُ أرى مسرحيتي الصغيرةَ تُختَضَرُ أمام مائة وخمسين نفَراً، وكنتُ عاجزاً عن منعِها من ملاقاة هذا المصيرِ.

وقبل أنْ أُسلِمَ أمرَ هذه التجربة المُؤلمةِ للنّسيان، استأنفتُ العملَ على هذه المسرحية. لم يكن أداءُ المسرحيّةِ إلّا جُزءاً من المشكلة. ولن أُلقيَ بالمسؤولية عمّا حصل على عاتق المُخرج والمُمثّلين. لقد اقتنعت بأنّ المسرحيةَ كانت شديدةَ الطّول، كثيرةَ الهَذْرِ، بالغةَ الإطنابِ. وكانت في مسيس الحاجة إلى عملية جراحية جَذْرِية. طفِقت أُهَذّبُ، وأُشَذّبُ، وأخذِف كلّ ما كان يبدو لي ركيكاً وزائداً. ولمّا فَرَغْتُ، كان نصفُ المسرحية قد زالَ. وحُذِفَت شخصيّةٌ، وغُيّرَ العنوانُ. رَقَنْتُ على الآلة هذه النسخةَ الجديدةَ التي صار عنوانُها: ***لوريل وهازدي مأواهما الجنّة***، وأدرجتها في ملفّ مع المسرحيتين الأخْرَيين اللّتين كتبتهما *Black-out* و*Cache-cache*، ووضعتُه داخل دُرجٍ بمكتبي. كنت أنوي تركَه في هذا الدُّرج، وعدم فتحِه أبداً.

وُلِدَ ابني بعد ثلاثة شهورٍ من إخْفاق المسرحية. كانت رُؤيةُ *دانييل*، وهو يُبصِر النّورَ، لحظةَ سعادةٍ عظيمة عندي. كانت حدثاً جليلَ الشّأنِ، بحيث إنّي

في اللّحظة ذاتِها التي سفَحتُ فيها الدّموعَ غِزاراً عند رُؤية جسده الصغيرِ، وحمْلِه بين ذراعيّ لِلمرّة الأولى، أدركتُ أنّ العالَمَ كان قد تغيّر، وبأنّي انتقلتُ من وضْعٍ إلى آخر. كانت الأبوّةُ خطّاً يفصل، وجداراً ينتصب شامخاً بين حدّ الشباب، وحدّ سنّ الرُّشد. وكنتُ على الضِّفّة الآخرى إلى الأبد.

كنت سعيداً بِوجودي في هذه الضّفة. أمّا من الناحية الوجدانية، على المستوى الزّوجِيّ وحتى الجسديّ، فلم أكُن أرغب في أن أكون في أيّ مكانٍ آخر. وكنت أشعر بأنّي مُهيّأ لِمُجابهة الحياة في هذه الضّفة. ومع ذلك لم أكن مُستعدّاً لِأيّ شيءٍ على الإطلاق من الناحية الماليةِ. وعندما نختار هذا الجدارَ، فثمة حَقُّ مرورٍ يتحتّمُ أداؤه. كانت جيوبي فارغةً حين بلغتُ الضّفةَ الأخرى. عندئذ تركنا نيويورك، *ليديا* وأنا، لِلإقامة بمنزلٍ في وادي هودسون، يبعُد عن المدينة بِساعتين تقريباً. وهناك تكالبت الصّعابُ علينا، إذ دامَ هبوبُ العاصفةِ ثمانية عشر شهراً، وعندما سكنتِ الرّيحُ بما يكفي حتى أستطيعَ الزّحفَ خارج مَكْمَني، وألْحَظَ الخسائرَ، أيقنْتُ أنّ كلّ شيءٍ قد زالَ، كان المشهدُ قد سُوّيَ بالكاملِ .

كان الرّحيلُ عن المدينة الخُطوةَ الأولى في سلسلة من الحسابات الخاسرةِ، كنّا نَخالُ أنّ تكاليفَ الحياةِ في الرّيف ستكون أقلّ غلاءً، غير أنّ الواقع كان يُكذّب هذا. كانت نفقاتُ السّيارةِ، والتّدفئةِ، وصيانةِ المنزلِ، وتعليمات طبيبِ الأطفالِ، تَلْتَهِم المَغانمَ القليلةَ التي غنمناها. وسُرعان ما تحتّم علينا أنْ نعملَ بِكَدٍّ شديدٍ، وأنْ نقْتَصِدَ، ونتَعَيّشَ بالقليلِ فقط، بحيث لم يعد بوُسعنا ادّخارُ أقلّ وقتٍ لِعملِ شيءٍ آخر. كنت في الماضي أُفْلِحُ دوماً في تخصيص سُويعاتٍ يوميا، لِلْمُضِيّ قُدُماً في كتابة قصائدي، وكتاباتي التي كانت في طوْرِ الإنجاز، بعد أنْ أُنْفِقَ الشّطرَ الأولَ من يومي في العمل قصد الحصول على المالِ. منذ الآن باتَتْ حاجتُنا إلى المال في ازدياد، وكنت أملك وقتاً قليلاً

لإنجاز عملي الشخصيّ، وبدأتُ أفقد اليومَ، فاليومين، ثمّ الأسبوع. وفي غضون زمنٍ قصير كنت قد خَسِرت وتيرةَ الكتابةِ، وعندما وُفّقتُ أخيراً إلى إيجاد القليل من الوقت، كنت مُتشنّجاً للغاية بحيث لا أقوى على الكتابة. مَضَتِ الشُّهورُ، وكلّ الأوراقِ التي كنت أخُطُّها انتهى بها المطاف إلى سَلّةَ المُهملاتِ .

في نهاية عام 1977، كنت أشعُر بالفعل بأنّني عالِقٌ، وكنت يائساً من العُثور على مَخرَجٍ. كنت أُنفِقُ حياتي في تجنُّب قضيّة المالِ، وفجأة لم أستطع التفكيرَ في أيّ شيءٍ آخر. كنت أحلُم بِمُصادفاتٍ خارقةٍ، وبملايين اليانصيب تأتيني من حيث لا أتوقّعُ، وبمُخطّطات شائِنَةٍ تُحقّق الثروةَ بين عشيةٍ وضُحاها. فحتّى الإعلاناتُ على ظهر غُلَبِ الثّقاب أخذتْ تُمارِس نوعاً من السُّخر عليّ (*فوزوا بالمالِ وأنتم تُرَبّون الدّيدانَ في قبوِكُم*). وبما أنّي أعيشُ، حاليا، في منزلٍ يَضُمّ قبواً، فإنّي أشعُر أنّ هذا الإعلانَ يستَهويني. قادتني طريقتي السابقةُ في مُعالَجةِ الأمور إلى الكارثة. ولقد صِرت ناضجاً لِحفلِ أفكارٍ جديدةٍ، ولِسَلْكِ سبيلٍ جديدةٍ لِمُعالجة المُعضلة التي تلاحِقُني منذ البداية: ما السبيلُ إلى التّوفيق بين حاجات الجسدِ، وحاجاتِ الرّوح. وظلّ طرفا المُعادلة هما عيناهما: الزمن من جهة، والمال من جهة أخرى. لقد راهنتُ على قُدرتي على تدبير الطّرفين معاً، لكن بعد سنواتٍ من المَشَقّة، والجهد، بُغية إطعام فردٍ واحدٍ أولاً، فَفَزدين، ثمّ ثلاثة أفراد، كان مآلي الخسارةَ. ولم يكن يَشُقُّ عليّ فهمُ أسبابِ هذه الخسارةِ، لِأنّي راهنتُ على الزمن كثيراً، وعلى المالِ قليلاً. وكانت الحصيلةُ، الآنَ، أنّه لم يعُد بِحوزتي أبداً، لا هذا، ولا ذاك .

في مُستهلّ ديسمبر، جاء صديقٌ من المدينة لِقضاءِ نحوٍ من أيامٍ معنا. كنّا نتعارَفُ من أيّام الكلّية، وقد أضحى هو الآخر كاتباً مُغدَماً – هاهو مُجازٌ

آخرَ من جامعة كولومبيا مُدقِعٌ لا يملك شيئاً، كانت حياته أيضا أشدّ عُسراً، وبُؤساً من حياتي تقريبا، ولم يكن أثرُهُ الأدبيّ قد نُشِرَ بالفعل، وكان يقتاتُ وهو ينتقل من عملٍ إلى آخر، مُسافرا وهو يتسكّع عبر البلد بلا هدفٍ، باحِثاً عن مُغامرات غريبةٍ. قدِم للتوّ إلى نيويورك، وكان يشتغل بمَحَلٍّ لِلُّعَبِ في مكان ما *بمانهاتن*، ضِمن فريقٍ من عُمّالٍ مُساعدين مُؤقّتين يعملون خلف مَباسِطِ السَلع في فترة التسوُّقِ خلال مناسبة أعياد الميلادِ. قصدتُ المحطّةَ أبحثُ عنه، وخلال زمن العودة الذي استغرق نصفَ ساعةٍ، تحدّثنا عن اللُّعَبِ والألعابِ، وعمّا يبيعُه في هذا المتجر. ولِأسبابٍ ظلّت غامضةً بالنسبة لي، فإنّ هذه المُحادثةَ قد أزاحتْ حجراً صغيراً كان عالِقاً بناحية ما في لاَوَعْيِي، ونزعتْ سِدادَةً ظلّتْ ثاويةً هناك أمام ثُقبٍ صغيرٍ مَشبوكٍ بِذاكرتي. والآن، وأنا أستطيعُ من جديدٍ النّظرَ من خلال هذا الثقب، فإنّي أكتشِف ثانية شيئا ضائعاً منذ عشرين عاماً تقريباً. عندما كنت أبلُغُ من العُمر عشر أو اثنتي عشرةَ سنةً، كنت قد ابتكرت لُعبةً وأنا أستعمِل عُلبةً عاديةً مُؤلّفةً من اثنتين وخمسين ورقةً من أوراق اللّعِب. كنت جالساً، ذات ظهيرةٍ، في سريري، وكنت أتخيّلُ طريقةً لِلَعِبِ البيسبول بواسطة هذه الأوراق. والآن، بينما كنت أواصِل الحديثَ مع صديقي داخل السّيارة، عادتْني من جديد هذه اللُّعبةُ فجأةً، وكنت أتذكّر كلَّ شيءٍ: المبادئ الأساسية، والقواعد، وكلّ الفُذّةِ بجميع تفاصيلها .

لا ريبَ أنّي في ظروفٍ طبيعية كنت سأنسى كلّ شيءٍ من جديد، غير أنّي كنتُ إنساناً يعيشُ عيشة ضَنكا، إنساناً في وضعٍ ميئوسٍ منه. وكنت أُدرِك أنّي إذا لم أغتنِ بسرعة، على حَلٍّ، فإنّ فصيلَ الإعْدامِ سيُخَرِّقُ جسدي بالرّصاصِ. وكان حصولُ نِعْمةٍ أو حَظٍّ غيرِ مُتوقّعين هو المخْرَجَ الوحيدَ من هذه الوضعية الحرِجةِ التي كنت أوجَدُ فيها. وإذا ما وُفِّقْتُ إلى جَمْعِ مبلغٍ هامٍّ من

المالِ، فإنّ الكابوسَ سيزول. بوُسعي أنْ أرشوَ الجنودَ، وأغادرَ باحةَ السّجنِ، وأعود إلى بيتي كيما أصبحَ من جديدٍ كاتباً. وإذا أضحت ترجمةُ الكُتبِ، وكتابةُ المقالاتِ في المَجلّات غيرَ كافيةٍ أبداً، فعندئذٍ ينبغي عليّ، وعلى أسرتي أنْ نسعى إلى شيءٍ آخر. ثمّ، إنّ النّاسَ كانوا يشترون الألعاب، أليس كذلك ؟ وإذا ما أفلحتُ في أنْ أجعلَ من لُعبتي القديمةِ عن البيسبول شيئاً ذا قيمةٍ، قيمةٍ حقّةٍ، وأنْ أبيعَها بالتالي ؟ ربما سيُحالِفُني الحظُّ على كلّ حالٍ في أنْ أعثُرَ على كنزي .

يكاد يبدو هذا الشيءُ، الآن، مُزحةً، غير أنّي كنتُ جاداً كلَّ الجِدّ، كنت أدركُ أنّ حظوظي كانت شبهَ معدومةٍ، إلّا أنّ هذه الفكرةَ عندما استحوذت عليّ، لم يعد بمقدوري التخلُّصُ منها. كنت أقول في دخيلتي، لقد حدثت أمورٌ أكثرُ جنوناً، وإذا لم أكن على استعداد لِبَذل بعضِ الوقت والجهدِ لِمُحاولة شيءٍ، فأيّ إنسانٍ رَخوٍ بليدٍ مسكينٍ كنتُه ؟

كانت لُعبةُ طفولتي مُهَيكَلَةً وَفْقَ عددٍ من العمليات البسيطةِ، يُعيدُ الرّامي الأوراقَ. كلُّ ورقةٍ حمراء مُرَقَّمةٍ من 1 إلى 10، كانت سَحْباً، وكلّ ورقة سوداء من 1 إلى 10 كانت كُرَةً، وإذا ما أعدنا صورةً، فيعني هذا أنّ الضارِبَ ينبغي له أنْ يلعبَ، وعندئذٍ يعيدُ الضارب ورقةً. وأيّاً كان ترقيمُ الورقةِ من الرَقمِ الأول إلى التاسع، فإنّها كانت تُمثّل سحباً، حيث كلُّ سَحبٍ يُطابِق رقمَ وضعيةِ لاعبي الدّفاع: فالرّامي = 1، والمُستقبِلُ = 2، والقاعدة الأولى = 3، والقاعدة الثانية= 4، والقاعدة الثالثة= 5، والإيقاف القصيرُ = 6، والجانب الأيسَر = 7، والجانب الخارجي = 8، والجانبُ الأيمن = 9. إذا كان الضاربُ يُزجِع (5) على سبيل المِثال، فهذا يعني أنّ السّحبَ رهينٌ بِلاعِبِ القاعدة الثالثةِ، ويُشير الرقم الأسودُ 5 إلى كُرةٍ مُتدحرِجةٍ، ويُشير الرقم الأحمرُ 5 إلى كرةٍ مقذوفةٍ في الهواء (المُرَبَّعُ = ركيزة، والقلبُ = السهم). وبالنّسبة

للكُراتِ المقذوفةِ في الجانب الخارجيّ (7، 8، 9)، فإنّ الأسْودَ يُشير إلى كُرةٍ مُتوسّطةٍ، ويُشير الأحمرُ إلى كُرة عميقة. وإذا أعْدتُم رقم 10، فإنكم ستحْصُلون على نُقطةٍ واحدةٍ. يُجسّد الصّبيُّ نُقطتين، وتُجسّد الملكةُ ثلاث نقطٍ، ويُجسّد الملك ضربةَ الدّوران .

كانت اللّعبةُ غيرَ مُتقنةٍ، إلّا أنّها فعّالةٌ كما ينبغي، وحتى لو كان توزيعُ الضَّرَباتِ خاطئاً من النّاحية الحِسابيّةِ (كان يتوجّبُ الحصولُ على النّقاط الواحدة أكثر من المُزدوجةِ، وعلى النقاط المُزدوجة أكثر من ضربات الدّوران، وضربات الدّوران أكثر من النّقاط الثّلاثية)، فإنّ مُباراة اللّعب كانت، في الغالب، مرْصوصَةً، ومُثيرةً للإهتمامِ. وأفضلُ من هذا أيضا النّتائجُ النّهائيّةُ، إذ كانت تُشبِه نتائجَ مُبارياتٍ حقيقية في البيسبول. 3 مقابل 2، 7 مقابل 4، 8 مقابل 0. ولا تُشبِه نتائج مبارياتٍ في كرةِ القدمِ أو كرة السلّة. وكانت المبادئ الأساسيةُ سليمةً. وكان كلّ ما بقِيَ لي القيامُ به، هو أنْ أتخلّصَ من أوراقِ اللّعِبِ المألوفِ العادي، وأنْ أرسُمَ سِلسلةً جديدةً من الأوراقِ، وكان هذا سيُتيحُ لي أنْ أجعلَ اللُّعبةَ أكثرَ صواباً من الناحيّة الإحصائيةِ، وأنْ أضيفَ عناصرَ استراتيجيةً تتضمّن اتّخاذَ قراراتٍ (ضربات مُخفّفة، قواعدُ طائرةٌ، تضحيّةٌ)، وأنْ أرتقيَ بالمجموع إلى درجةٍ عالية من الدّقّةِ والتّعقيدِ. كان العمل يرتكزُ، أساسا، على إيجاد الأرقامِ الجيّدةِ، ومُمارسة القليل من الرّياضياتِ، غير أنّي كنتُ عارفاً معرفةً جيدةً بِخَبايا البيسبول. ولم أكنْ أحتاجُ إلى وقتٍ طويلٍ كي أبلُغَ القواعد الصّائبةَ. كنت ألعبُ المُقابلةَ تلْو الأخرى، وفي غُضون نحْوِ أسابيع لم يبْق لي ما أقوم به من تسوياتٍ. عندئذٍ أزِفَ الشّطرُ المُتعِبُ، فبعد أنْ صُفّتْ الأوراقُ (عُلبتان تتألّف كلُّ واحدة منهما من أربَعٍ وستين ورقةً)، كان عليّ أنْ أقعُدَ مُزوّداً بأربعةِ أقلامٍ دقيقةِ الرّأسِ (أحمر، وأخضر، وأسود، وأزرق)، وأرسمَ كلَّ الأوراقِ باليدِ. لا أتذكّر

عددَ الأيّامِ التي استغرَقْتُها في القيامِ بهذه المُهِمّة خيرَ قيامٍ، إلّا أنّي، وأنا أبلُغُ تمامَها، انتابني شعورٌ مُفادُه أنّي لم يسبِقْ لي أن قُمت أبداً بشيءٍ آخر غير هذا، ولم يكُنْ هناك ما يدعو إلى الفخْر بالرّسم، غير أنّ مادامت التجربةُ والموهبةُ تُعْوِزاني في هذا المجالِ، أعتقد أنّ هذا كان مُتوقّعا. لقد كنت مُجْبَراً على إنجازِ تمثيلٍ واضحٍ وعَمَليّ، إنجازِ شيءٍ مَقروءٍ عند أوّلِ لَمحةٍ، بلا لَبْسٍ مُحتمَلٍ. وإذا أخذنا بالحُسبانِ كميةَ المعلومات التي كان ينبغي أن تظهرَ على كلّ ورقةٍ، فإنّي أعتقد أنّي أنجزت هذه المُهِمّةَ على الأقلّ. أمّا الجمالُ والأناقةُ فَيأتيان فيما بعد. و إذا ما كان أحدٌ يُبْدي اهتماماً كافياً من أجلِ صُنْعِ اللُّعبةِ، فإنّ القضيةَ يمكن أن يُعْهَدَ بها إلى رسّامٍ مُحترِفٍ. والآن، وبعد سِلسلةٍ من القرارات المُتردّدةِ والمُتناقضةِ، فإنّي أسمّي ابتكاري ***عملية البيسبول*** .

وها زوجُ أمّي يَهُبّ لِنجدتي مرّة أخرى، كان له صديقٌ يعمل في واحدةٍ من أهمّ الشّركات الأمريكية في مجال الألعاب. وعندما عَرَضْتُ اللّعبةَ على هذا الرّجلِ، بدا مُعْجَباً بها، وظنّ أنّ لديها فرصةً حقيقيّة في أنْ تَروقَ لِشخصٍ ما. كنت في هذه اللحظة ما أزال أرْسُم الأوراقَ، فشجّعني على أنْ أضْبِطَ اللّعبةَ ما وَسِعَتْني السُّرعةُ، وأن أعْرِضَها بمعرض اللُّعَبِ بنيويورك الذي سيُقامُ بعد خمسةِ أو ستّةِ أسابيع. لم يسبقْ لي أنْ سمعت أبداً بهذا المعرضِ، غير أنّه، وبِحسبِ الرّأي الشّائع، فقد كان أكبرَ حدثٍ سنَوِيّ في هذا المِضمار. كانت شركات العالَم بأسْرِه تجتمع، كلّ شهر فبراير، في *توي سنتر*، عند زاوية الشارع 23 والجادّة الخامسة، لِكي تَعْرِضَ فيه منتوجاتِها المُخَصّصة للموسم المُقبل، وتُدَوّنَ تدابيرَ المُنافسةِ، وتُنشِئَ مشاريعَ لِلمستقبل. إنّ ما يُمثّله معرضُ الكتابِ *بفرانكفورت* بالنسبة لِلكتبِ، ومعرضُ *كان* بالنسبة للسينما، هو ما يُمثّله معرضُ اللُّعَبِ بنيويورك بالنسبة لِلُّعَبِ. لقد اهتمّ صديقُ زوجِ أمّي بكلّ شيءٍ من أجلي، لقد عَمِلَ على أنْ يَظْهَرَ اسمي على لائحة «المُبتكرين»،

وهو ما منحني الحقَّ في حفلِ شارةٍ، والدّخولِ بالمجّان، ولم يكتفِ بهذا، بلْ هيأ لي موعداً مع رئيس شركته عند السّاعة التاسعة صباحا، في أوّلِ يومٍ من أيّام المعْرض .

لقد كنت مَديناً له كلّ الدين بما أسداه لي من معونةٍ، غير أنّي كنت أشعُر، في ذات الوقت، شعورَ شخصٍ سُفِّرَ في رحلةٍ جويّةٍ نحو كوكب مجهولٍ. لم يكن لي أيُّ عِلْمٍ بما كان ينتظرُني، وكنت أعْدَمُ خريطةَ المكانِ، ولا دليلَ يدُلّني، ويُساعدني على فهمِ عاداتٍ وتقاليد المخلوقاتِ التي سألاقيها. وكان الحلُّ الوحيدُ الذي خَطَرَ على بالي هو أنْ أزتديَ بذلةً، وربطةَ عُنُقٍ. كانت هذه الرّبطةُ هي الوحيدةَ التي أملك، مُعلّقةً في خزانتي تحسُّباً لِحفلاتِ الزّواج، أو مناسبات الدّفْنِ، وصار بِمقدورِ مواعيد الأعمال أنْ تنضافَ، منذ الآن، إلى اللّائحةِ. كان مظهري يبعث على السُّخرية عندما وَلَجْتُ *توي سنتر*، هذا الصّباح، بُغية طلب الحصولِ على شارتي. كنت أحمل مِحفظةً لم يكن يوجد بها شيءٌ سوى اللُّعبةِ المصفوفة في عُلبةٍ للسّيجار. هذا كلّ ما كنت أملك: اللّعبةُ ذاتُها، وعدّة نُسخٍ من القواعد أيضا. كنت أتهيّأ للحديث مع رئيس شركةٍ مليونيّةٍ، ولم أكن أملك حتى بطاقة دعوةٍ .

وبالرغم من الوقت المُبكّر، كان ثمّة حشْدٌ من الناس، وأينما تُوَلّ وجهَك، تُشاهد صُفوفاً لا تنتهي من المِنصّات، ومعارضَ مُزيّنةً بالدُّمى، والدّمى المتحرّكة، وسيّاراتِ الإطفاء، وديناصوراتٍ، وسكانَ الكواكبِ الأخرى. كلُّ ما يُسلّي الأطفالَ، وكلُّ الأدوات الآليّة التي يمكن تخيلُها، كانت مُكدّسةً في هذه القاعةِ. وكانت جميعُها تُصدِرُ صفيراً، وفرقعاتٍ، وصَخباً، وقَزعاً، وهَديراً. وبينما كنت أشُقُّ طريقاً وسط هذه الجَلَبَة، خطَر بِبالي أنّ هذه المِحفظةَ التي أتأبّطُها، كانت الشيءَ الوحيدَ الصّامتَ في هذا الميدانِ. كانت الألعابُ الإلكترونيةُ الإكتشافَ الأكبرَ لهذه السنة الجارية، والحدثَ الأبرزَ في دُنيا

الألعابِ منذ ابتكارِ الجِنّيّ الخارجِ من قُمقُمِه. وأنا آمَلُ أنْ أثْرِي بواسطة لعبةٍ عفا الزمن عليها، لعلّي أدرِكُ الثراءَ، غير أني في اللحظة التي غشيتُ فيها مُنتزَهَ الألعابِ الصّاخبِ هذا، لم أكن أدركُ إلى أيّ حدٍّ كان هذا الأمرُ قليلَ الإحتمالِ .

وسوف تكون مُحادثتي مع رئيس الشركةِ واحدةً من أوجزِ المقابلات في حوليات عالمِ الأعمالِ الأمريكيّ. ليس ما أغضبني هو رفضُه لِلُغبتي (فأنا كنت جاهزاً لهذا، وكنتُ أتوقّع الأخبارَ السيئة تماما)، بل لأنّه عبّر عن هذا الرفضِ بِبُرودةٍ شديدةٍ. ومن فرطِ قلّة مراعاته لِآدابِ اللّياقة، مازال هذا الأمر يُؤلِمُني حين تذكُّرِه. لم يكنْ يكبُرُني بسنواتٍ كثيرةٍ هذا الرئيسُ السّامي، بِبِذلته المثالية ذات التفصيلةِ الرّائعةِ، وعينيه الزرقاوين، وشعره الأشقر، ووجهه الصّارِم الذي لا ينِمُّ عن تأثُّرٍ. كان له مظهرُ وعاداتُ رئيسِ شبكةِ تجسُّسٍ نازيّةٍ، بالكاد صافحني، وبالكاد حيّاني، وبالكاد اكْتَرَثَ لِحُضوري. لا جُمَلٌ قصيرةٌ مُهذّبةٌ، ولا دُعاباتٌ، ولا أسئلةٌ. (لِنَرَ ما بحوزتكم)، قالها بنبرةٍ جافّةٍ. ثمّ أدخلتُ يدي في محفظتي، وأخرجت منها عُلبةَ السّيجار، فلمع في عينيه وميضُ ازْدراءٍ، كما لو انّي عرضتُ عليه فضَلاتِ كلْبٍ، وطلبت منه أنْ يشُمّها. أيقَنْتُ، في هذه اللحظةِ، أنّ الأملَ كلّه قد ضاع، وبأنّ الرجلَ توقّف من قبل عن إبداء الإهتمام. لكن ليس هناك شيءٌ يمكن القيامُ به سوى المُضِيّ قُدُماً، والشروع في مزاولة اللُّعبةِ. خلطتُ الأوراقَ، وتحدّثت باختصارٍ عن طريقة قراءةِ مستويات المعلومات الثلاثة التي توجد فيها، ثمّ انطلقت إلى الضّارب الأول أو الثاني في الشّطر الأول من الشّوط الأول. نهض ومدّ يدَه لي، وبما أنّه لم ينْبِس ببنت شفةٍ، فلم أكن أدري أيّ شيءٍ عن السّبب الذي جعله يرغب في مُصافحتي. واصلتُ الكشفَ عن الأوراق وأنا أصِف العمليّةَ مثلما كانت تتجلّى: كرةٌ، إمساكٌ، سوينغ. (شكراً)، قالها النّازي وهو يشُدّ

على يدي في آخر المطاف، وكنت ما أزال أجهل ما الذي كان يحدث. سألته: (تقصدون إنّكم لا تُريدون معرفةَ المزيد ؟ فأنا لم أكن أتوفر حتى على الوقت الكافي لِأشرح لكم طريقةَ اشتغالِ هذه اللّعبةِ)، ردّد: (شكراً، بإمكانكم أنْ تنصرِفوا). أشاح بوجهه عنّي من دون أنْ يُضيفَ كلمةً أخرى، وتركني مع أوراقي التي مازالت منثورةً على الطاولة، واحتجتُ إلى دقيقةٍ أو دقيقتين لِأضعَ جميعَ الأوراقِ في علبة السّيجار. وفي هذه اللحظة بالضبط، وخلال هذه الثواني السّتّين، أو الرابعة والتسعين، ضعفتُ وتلاشيتُ، وبلغتُ الدّرَكَةَ التي ما أزال أعُدُّها أسفلَ الدّركات في حياتي .

إستطعتُ أنْ أتماسكَ بصورة أو بأخرى. خَصَصتُ نفسي بِوجبة فطورٍ، وقَوّمت الموقفَ الذي ألْحقَ الأذى بي، ثمّ عُدت إلى المعرض أُنفِقُ فيه بقيّةَ اليوم. قصدتُ صانعي الألعابِ، الواحد تلو الآخر، الذين استطعت العثورَ عليهم. صافحتُ أياديَ، وابتسمتُ، وطرقتُ أبواباً، وشرحتُ عجائبَ لُعبةِ *عملية البيسبول* لِكلّ أولئك الذين كانوا يرغبون حقّاً في منْحي عشرَ أو خمس عشرة دقيقةً. وكانت النتيجةُ مُخيبةً بالإجماع. كان أغلبُ الشركات الضخمةِ قد أوقفت تعامُلَها مع مُبتكرين مُستقلّين (إجراءاتٌ كثيرة)، أمّا بالنسبة للشركات الصغيرة، فهي إمّا أنّها كانت ترغب في لُعَب الجيب الإلكترونية (بيبْ – بيبْ)، وإمّا أنّها كانت تصرِف النّظرَ عن كلّ ما له علاقةٌ بالرّياضة (مبيعاتٌ سيّئةٌ). كان هؤلاء الأشخاصُ مُهذّبين على الأقلّ. لقد وجدتُ عندهم بعضَ العزاء بعد المعاملةِ السّادية التي تعرّضتُ لها في الصّباح .

في لحظة ما بعد الظهيرة، وقد أنهكتني ساعاتٌ أنفقتُها في بذْلِ جهودٍ عقيمةٍ، عثرتُ على شركةٍ متخصّصةٍ في ألعاب الورق. كانتِ مشروعاً تجارياً صغيراً ذا ميزانيةٍ محدودةٍ، لم تكن تتوفّر على جهاز عُمّالي، أو على الحِيل التي تُنقّي المبيعات التي نجدها لدى الشركات الأخرى الحاضرة في المعرض.

إنها مؤسسةٌ عائليةٌ أنشأها شابّان من جولييت بولاية *إلينوي*، لم ينشرا بعدُ في السوق التجارية سوى لُعبةٍ واحدةٍ، إلّا أنّ هذه اللعبةَ لاقت نجاحاً سريعاً، وهما يبحثان، الآن، عن لعبةٍ ثانية. كانت إشارةُ يُمنٍ، والأفضل من ذلك أيضا إقرارُ الشريكين بأنهما من المُعجبين بالبيسبول. لم يكونا مُنشغلين في هذه الساعة إلّا بتزجيةِ الوقت في الثرثرة، وهما يجلسان في خيمتهما الصغيرة، وعندما حدّثتهما عن لُعبتي، سُرّا كثيراً بإلقاء نظرةٍ شاملةٍ عليها، لا نظرةٍ عابرةٍ ، ثمّ رغِبا في لَعِبِ لُعبةٍ كاملةٍ من تسعة أشواطٍ من بدايتها حتى نهايتها .

لو كنت لَفَقتُ الأوراقَ فإنّ نتيجةَ اللُّعبة التي لعبتُها معهما، ما كانت لِتكون مُثيرةً للإهتمامِ أكثر، ولا مُطابقة للواقع أكثر. لم تكن اللّعبةُ، من الأول إلى الآخر، إلّا شوطاً مُقابل شوطٍ. تزداد حِدّةُ التوتّرِ عند كلّ ضربةٍ، وبعد ثمانية استرجاعاتٍ ونصف استرجاعٍ، شكّلتْ جميعُها إنذاراتٍ وجهوداً من الطّاقةِ، وسَخبتين على إمساكات مع القواعد المُحتلّة. كانت النتيجةُ هي اثنان لواحد. كان الشابّان من جولييت هما الفريقَ المُستضيفَ، وعندما بلغا المِضْربَ من أجل دورهما النهائي، كانا يحتاجان إلى إنهاء دوْرٍ واحدٍ قصد التعادل، وإلى دورين قصد الفوزِ. لم يُثمِر الضاربان الأولان عن شيءٍ، وإنّما أثْمرا سريعاً عن سحبهما النهائيّ من دون راكضين على القواعد. نجح الضّاربُ المُوالي في تحقيقِ هدفٍ واحدٍ، وهو هدفٌ حافَظَ، مع ذلك، على استمراره في اللّعبِ. ثم ها هي المفاجأة العامّة تحصل، فبينما كان مجموعُ الرصيدِ هو كُرتين وإمساكين، فإنّ الضّاربَ الرّابع أفلحَ في تحقيق ضربة الدوران التي نجم عنها الفوزُ باللُّعبة. وما كنت أطلب أفضلَ من هذا، ضربة الدوران ذات نقطتين عند نهاية الشوط التاسع تختطف الفوزَ في الدقيقة الأخيرة. كان هذا تشويقاً كلاسيكياً في البيسبول. و تألّقَ وجهُ الشابّ بدلائل فرح صريحٍ، لا مكتومٍ،

حين أعاد هذه الورقةَ الأخيرةَ .

قالا لي إنّهما يودّان التفكيرَ في هذا الأمر، وتقليبه على وجوهه حيناً من الوقت قبل أنْ يرُدّا عليَ. إنّهما يحتاجان، بالطّبع، إلى لُعبةٍ يدرسانها عن كثبٍ، لذا تعهّدتُ بأنْ أبعثَ إليهما بنسخة مُلوّنةٍ في أسرع وقتٍ. على هذا النحو افترقنا ونحن نشدّ على أيادينا، ونتبادل عُنوانينا، ونتواعد على التواصل بيننا. بعد تجاربي الحزينةِ لهذا اليوم المُخبِطِ، ها هو، فجأةً، سببٌ يدعو إلى الأملِ، وغادرت المعرضَ مُقتنعاً بأنّني يمكن أن أبلُغَ، في الواقع، شيئا ما بواسطة فكرتي الواهمةِ .

كان النّسخُ بالألوان شأناً طارئاً في تلك الفترة، وقد كلّفني القيامُ به بعضَ المالِ. لا أتذكّر المبلغَ بالضبط، لكنّه كان قد نَيّفَ على مئة دولار على ما أظنّ، بل ربما بلغ مائتين. بعثتُ بالعُلبة إلى الشّابين وأنا أرجوهما أنْ يكتبا إليّ سريعاً. كانت الأسابيعُ تمضي، وبينما كنت أجْهِدُ نفسي في الإنكبابِ على الأعمال الأخرى التي كنت بصددِ القيامِ بها، إذا بالفكرة التي حاصلُها أنّ عليّ أنْ أتوقّعَ خيبةً جديدةً تفرضُ نفسَها عليّ شيئاً فشيئاً. تعني الحماسةُ الإسراعَ، ويعني التردُّدُ المُهلة، وكلّما طالت المُهلةُ، تضاءلتِ الحظوظُ. لقد انتظرا شهرين تقريباً لِكي يرُدّا عليّ، وفي هذه اللحظة بالذّات لم أغدُ في حاجة حتى لِقراءة رسالتهما قصد معرفةِ ما تحويه، وقد راعني قِصَرُها، وافتقارُها التامُّ لِلدّفء الإنسانيّ. لقد أنفقتُ زُهاء ساعةٍ برُفقتهم، وكنت أحسَبُ أنّي جعلتهما يتسلّيان، وأثرْتُ انتباهَهما، غير أنّهما عبّرا عن رفضِهما بفقرةٍ واحدةٍ جافّةٍ، صيغت بطريقةٍ خاطئةٍ، فَنِصفُ الكلمات كان ضبطُها الإملائيُّ سيئاً، وكانت كلُّ جملة تحوي تقريباً خطأً نحوياً. لقد كانت وثيقةً مُزرِيةً، لقد كانت رسالةً حرّرها كسولان. وعندما طفقت سوْرَةُ الخيبةِ تخِفُّ عندي، شعُرْتُ بالخجلِ لكوني أسأتُ أيضاً الحُكمَ عليهما كلّية، والحاصِلُ أنّ

مَنْ يضع ثقته في الحمقى، فإنّه يتصرّف كما لو كان أحمقَ مثلهم .

ومع ذلك لم أكنْ مُستعِداً بعدُ لِصَرْفِ النّظر عن هذا الأمر. لقد أمعَنْتُ في المُضِيِ قُدُماً حتى لا يهزِمني الفشلُ ويُطيح بي. حَنَيْتُ رأسي، وبالغتُ في الغَوْصِ حتى استنفذتُ كلَّ الاحتمالات، وبدا لي أنّ من واجبي أنْ أواصِلَ، وأنْ ألاحِقَ هذا المشروعَ حتى النّهاية. رَتَّبَ لي صِهرايَ لِقاءً برجلٍ كان يعمل لدى رودر *آند* فين، وهو مكتبٌ للعلاقات العُمومية بنيويورك، مُهمٌ للغاية. لقد نالت اللُعبةُ إعجابَه كثيراً، وبدا، في الواقع، مُتحمّساً عندما عرضْتُها عليه، ولمْ يَألُ جُهداً في مُساعدتي. كان هذا جانباً من القضية، وكان جميعُ الناس يُحبّون *عمليّة البيسبول* ، و على كلِّ حالٍ كانت الكثرة الكاثرةُ من الناس تأبَى عليّ التخلّي عنها، وسيكون من العبثِ هَجْرُها مع إنسانٍ كهذا، طيّبٍ، وودودٍ، يُؤازِرُني، ويُؤهّلُني تأهيلاً جيّداً. كان حليفي الجديدُ يُدعى جورج، وصَدَفَ أنْ كان مُكلّفاً بحساب جنرال *فودز*، واحدة من أهمّ زبناء رودر *آند* فين. كان مُخطّطُه يبدو لي بارعاً، يتحدّد في إقناع جنرال *فودز* بوضْعِ *عملية البيسبول* على بعض عُلَبِ الرُّزوع، وأنْ يكونَ هذا الوضعُ بمثابة عرْضٍ خاصّ. (« أيها الأولاد ! إبعثوا بِغطاءين لِعلبتي Wheaties، وشيكاً أوْ حَوالةً من 98,3 د، وستحصلون على هذه اللعبة العجيبة «). ترك جورج مشروعَه لهم، وظننّا خلال حينٍ من الوقت أنّ المشروعَ قد ينجح. كانت Wheaties تبحث عن أفكارٍ بُغية حملةٍ جديدةٍ لِتَنمِيةِ المبيعات، وكان جورج يعتقد أنّ بِوُسْع مشروعه هذا تحقيق هذه المهمّة، وما كان الأمرُ كذلك. لقد آثَروا البطلَ الأولمبي لِلألعابِ العُشارية، ولسنين عديدةٍ لا أعلم عددَها، كان وجهُ بروس جينير المبتسِمُ يُزيّن جميعَ عُلَبِ Wheaties. وفي الحقّ لا يُمكننا أنْ نُؤاخذهم على هذا. كانت هذه، في نهاية المطاف، وجبةَ إفطارٍ لِلأبطالِ، وكانت لهم سُنّةٌ معيّنةٌ يُحافظون عليها. لم أستطع أبداً معرفةَ إذا ما كان

جورج قد وُفِّقَ إلى تبليغ فكرته عن كتبٍ، غير أنّ من واجبي الإعترافُ، وهو اعترافٌ لا يخلو من تحفُّظٍ، بأنّني أجد دائما صعوبةً في رؤية عُلبةِ Wheaties من دون أن أشعرَ بِأذىً خفيفٍ .

يكاد يكون جورج قد أصيبَ مثلي بِخيبة أملٍ، لكنّه وقد أدركته هذه العدوى، فإنّه لن يستسلِم. كان يعرف شخصاً *بإنديانا بوليس*، كانت له علاقةٌ *بعُصبة بيب روث* (لا أعرف أبداً بأيّ صفة). وكان يعتقد أنّ خيراً ما سيحصل إذا ما وصلني بهذا الشخص. أرسلتُ اللُّعبةَ حسب الأصول إلى *الميديل ويست*، ثم أعقبها صمتٌ آخرُ أطولُ مِمّا ينبغي. على هذا النحو، شرح لي هذا الشخصُ عندما كتب لي في آخر المطاف بأنّه لم يكن مسؤولاً تماما عن مدّة التأخير: (أتأسّف لِكوني قد تباطأت أيضا في الإفادة باستلامِ رسالتكم المؤرّخةِ ب 22 يونيو، وبِلُعبتكم عملية *البيسبول*. لقد توصّلتُ بهما متأخرتيْن جرّاء إعصارٍ دمّرَ مكاتبَنا، فمنذ ذلك الحين وأنا أزاوِلُ عملي في منزلي، ولم أتوصلْ بِبريدي إلّا خلال عشرةِ أيّامٍ). كان حظّي التعيسُ يأخذ أبعاداً تكاد تكون تؤراتيّة. وعندما كتب لي من جديد، بعد عدّة أسابيع، يُخبرني بأنّه لن يحتفظ بلُعبتي، كنت بالكاد أقاوِم، (وقد عبّر عن ذلك بِحزنٍ، وأبدى أسفَه البالغَ بواسطة تعابير أكثر لُطفاً، وأدباً). (لا جِدال في أنّ لُعبتكم فريدةٌ، مُبتكَرة ومُهِمّة، وقد يوجد بالفعل سوقٌ من أجلها، وذلك لكونها لُعبةَ بيسبول الطاولة الوحيدة التي ليست مُختَشِدَةً باللّواحق والمُكمّلات، وهو ما يجعل منها لعبةً أكثر سرعةً. غير أنّ الإجماعَ الموجودَ هنا، ينصُّ على أنّ في غياب لاعبين ينتمون إلى دَوْرِيّ كبيرٍ، وفي غياب إحصائياتهم، فإنّ المنافسةَ الموجودة هنا شرِسةٌ يصعب تجاوزها). هاتفت جورج لِأنقل إليه الخبرَ، وأشكُرَه على مساعدته لي، بيد أنّ الكيلَ قد طَفَحَ، وعليه ألّا يُضيّع وقتَه أبداً من أجلي .

ظلّ الوضعُ قائماً خلال بضعة أشهرٍ، ثمّ ها هو مخرَجٌ آخرُ يلوح. حملت ثانية رُمحي، وامتطيتُ حصاني، ومادام ثقة طاحونةُ هواءٍ تتراءى لي في مكان مَا، فإنّي كنت مُستعِدا لِمُحاربتها. لم يكن لديّ أذنى بصيصٍ من الأمَل، غير أنّي لن أتخلّى تماما عن هذا الشيء الأحمق الذي شرعت فيه. كان الأخ الأصغرُ لِنَسيبي يعرف شخصاً كان قد ابتكر لعبة، وبما أنّ هذه اللُّعبةَ جعلته يجني ثروةً، كان يبدو من الطبيعيّ أنْ أتّصِلَ به كي ألتمس النّصيحةَ منه. التقينا في بهو فندق *روزفلت*، غير بعيدٍ من المحطّة المركزية الكبرى، كان صاحبَ أعمالٍ كثيرةٍ، ذَلِقِ اللّسان، يُناهز الأربعين عاماً، شخصاً سَمِجاً كلّ السّماجةِ، سيّءَ النيّة، وميّالاً إلى الإيذاءِ.لكن يجب أن أعترفَ بأنّ ثرثرتَه لا تُغوِزها الحيويّةُ .

- قال: البيعُ بواسطة المُراسلة وسيلةُ نجاحٍ، إتّصِلْ ببطلٍ ينتمي إلى دوريٍّ كبيرٍ، وأقْنِعْه بِأنْ يُساند اللُّعبةَ مُقابل نسبةٍ مِئويّةٍ على الأرباح، ثمّ قُمْ بإعلانات في مجلّات البيسبول، وإذا ما حصلتَ على عدد كافٍ من الطّلبات، استعملْ المالَ قصد إنتاج اللّعبة، وإلّا أرجِع المالَ، وتخَلّ عن الأمر .

- سألته: كم تُكلّف عمليّةٌ كهذه ؟

- عشرون، أو خمسةٌ وعشرون ألف دولار على الأقلّ .

- قلت: لا يمكنني أبداً العثورُ على مبلغٍ كهذا، حتى لو كانت حياتي تُرتَهن به .

- إذاً، ليس بمقدورك فعلُ هذا ؟

- لا، لا أستطيع، كلُّ ما أبغي هو أنْ أبيعَ اللّعبةَ إلى شركةٍ. لم يكن في ذهني أيُّ شيءٍ آخر أبداً. أرغب في الحصول على مبلغٍ عن النّسخِ المبيعةِ. ولست قادراً على القيامِ بهذا شخصياً .

- أدرك أخيراً أنه كان على صلةٍ بحمار، فاستخلص قائلاً: بعبارةٍ أخرى، لقد وضعتَ غائطاً، والآن تريد أنْ يُنظّفه، ويُزيلَه شخص عِوَضك.

أزبَأ بنفسي عن التعبير عن رأيي على هذا النحو، غير أنّي لن أعترضَ عليه، إذ من الواضح أنّ معرفته بالأمر أفضلُ من معرفتي به. ثمّ عندما أشار عليّ بإيجاد «وسيطِ ألعابٍ»، سيتوجّه باسمي إلى الشركات، أيقنْتُ أنّه يَدُلُّني على الوِجهة السّليمةِ. لم أكن، إلى هذه اللحظة، عارفاً حتى بوجود هؤلاء الأشخاص. أعطاني اسمَ امرأةٍ كان من المُفترض أن تكون فعّالةً بشكل خاصٍّ، فهاتفتها في اليوم التالي. سوف تكون هذه المحاولةُ هي الأخيرةَ، الفصلَ الأخيرَ في كلّ هذه الحكاية المُعقّدةِ. أنشأتِ هذه المرأةُ المِهذارَةُ تُحصي لي الشُّروطَ، والبنودَ، والنّسبَ المِئويّةَ، ما ينبغي، وما لا ينبغي القيامُ به، ما بِوُسعنا تأميلُه، وما ينبغي اجتنابُه. يجعلك هذا الأمرُ تشعُرُ بغرابة أطوارها المُعتادَة، وأنها تَراكُمُ غاضبٍ لِسنواتٍ من الحوادث المؤلِمة، والخداع، ولبضع دقائق لم أستطعْ أنْ أنْبِس بكلمةٍ. ثمّ توقفتْ أخيراً لِتلتقِطَ أنفاسها، وعندئذٍ سألتني عن لُعبتي :

- قلت لها: إنّها تُدعى *عملية البيسبول* .

- قالت: قُلْتَ بيسبول ؟

- نعم، بيسبول. تُلقى الأوراقُ، هذا أمر طبيعيٌ جدا، وبمقدورنا لَعِبُ الأشواط التّسعة لمباراة كاملة في رُبع ساعة تقريباً .

- قالت: أنا آسِفة، لُعَبُ الرّياضة مرفوضةٌ .

- ماذا تعنين ؟

- القضية خاسرةٌ سلفاً. هذا النوع لا يُباع، ولا أحدَ يرغب فيه. لن أمُدّ يدَ

العونِ إلى لُعبتكم .

أجهَزَ عليّ قرارُ المرأةِ هذا، الصّادمُ الذي ما انفكّ يتردّدُ في مسمعي. وضعتُ سمّاعةَ الهاتفِ، وتركتُ الأوراقَ جانباً، وتوقّفتُ عن التفكير فيها إلى الأبد .

شيئاً فشيئاً بلغتُ الحدّ الذي نفدت فيه جميع وسائلي. وبعد نكبَةِ الرسالة المُلَهْوَجَةِ(71) من *جوليت*، كنت قد أدركْت أنّ *عمليّة* البيسبول كانت طلقةً قلّما كان حظُّ النجاحِ يُواتيها، وما كان التّعويلُ عليها، بوصفها مؤرداً للدّخل، إلّا لِيَخدعني. ما كانت إلّا خطأً يبعث على السّخرية. إسْتَمَتُّ خلال بضعة شهورٍ أخرى، غير أنّ هذه الجهودَ الأخيرةَ لم تكن تشغل سوى حيّزٍ ضئيلٍ من وقتي. كنت، من قبل، قد رضيتُ في قرارة نفسي بالهزيمةِ، ليست هزيمةَ اللّعبةِ فقط، وليست هزيمةَ تَطَفُّلي الأخرق على عالم الأعمال، بل هزيمة مبادئي جميعِها، والمواقف التي كانت لي خلال حياتي كلِّها، سواء أتعلّق الأمر بالعمل، أم بالمال، أم باقتفاء أثَرِ الزّمن. لم يعُد للزّمن أيُّ أهميّةٍ. كنت في حاجة إليه من أجل الكتابة، ولكن الآن بعد أنْ كنتُ كاتبا سابقا، كاتباً لم يكن يكتب إلّا لِدَغْكِ الورقِ، وإلقائه في سلّة المُهملات، فإنّي أشعُر باستعدادي لِهَجْرِ الكفاح، والعيشِ كباقي الناس. لقد أضْنتْني تسعُ سنواتٍ من العَوَزِ أنفقتُها في إنجاز أعمالٍ مستقلّةٍ. لقد سعيتُ إلى إنقاذ نفسي وأنا أخترع اللعبةَ، لكن لم يكن أيُّ أحدٍ يَأْبَه لِلُّعبة. وها أنا الآن أعود من جديد إلى نقطة البداية، إلّا أنّها كانت أسوأ، وجدتُ نفسي من جديد أكثر إزهاقاً من أيّ وقتٍ مضى. كانت اللعبةُ تُجسّد رأياً على الأقلّ، أُفُقاً لِلأملِ العابر، غير أنّ أفكاري كانت قد أغيثني أيضاً منذ الآن فصاعداً. والحقّ أنّي كنت غارقاً في جُبٍّ مُظلِمٍ لا قرار له، وكانت الوسيلةُ الوحيدةُ للخروج منه هي أن أعثُرَ على عملٍ .

Telegram:@mbooks90

قُمتُ بائصالاتٍ هاتفيةٍ، وحرّرتُ رسائلَ، وذهبتُ لإجراء مُقابلاتٍ في المدينة بحثاً عن عمل، لا يهُمّني إنْ كان في التّعليم، أو في الصّحافة، أو في النشر. ومادام عملٌ ما يقترن بحَوالة أسبوعية، فإنه يغنيني. كادت تنجح فُرصتان أو ثلاثٌ، ثمّ أغقبَها الإخفاق. لن أدخلَ، الآن، في التفاصيل المُخيّبة، إلّا أنّ شهوراً عديدةً قد انصرمت بلا نتيجةٍ ملموسة. وَجِلْتُ في الإضطراب والتّيه، يكاد القلق والجزع يشُلّان دماغي. واستسلفتُ تمام الإستسلام. تراجعتُ عن كلّ المواقف التي دافعتُ عنها منذ سنوات، وبالرغم من كلّ هذا، لم أبلُغْ أيّ شيءٍ، بل تقهقرتُ عند كلّ خُطوة أخطوها. وإذا بِمنحةٍ تصل، فجأة، في الوقت المناسب، قدرُها ثلاثة آلاف وخمس مائة دولار، أجرَاها لي مجلسُ الفنون بولاية نيويورك، زوّدَتْني براحةٍ غيرِ مُؤَمّلةٍ. لم تدُمْ هذه الرّاحةُ طويلا، غير أنّها كانت شأناً كافياً لإزجاءِ اللحظة المشؤومة لبُرهةٍ وجيزةٍ .

ذات ليلةٍ، بعد أنْ مضى وقتٌ قليلٌ، وبينما كنت في السّرير أُصارِع السُّهادَ، إذا بفكرة جديدةٍ تخطُرُ عليّ، أقلّ من فكرة، بل قد تكون تأمّلاً، فكرة صغيرة. قرأت هذه السّنةَ الكثيرَ من الرّوايات البوليسيّة، خصوصا تلك الروايات القاسيةُ التي تنتمي إلى المدرسة الأمريكية، وعِلاوة على أنّي كنت أعتبرها علاجاً ناجعاً، وبَلْسَماً ضدّ الضّغط، والهمّ المُزمن، فإنّي كنت أشعُر بالتّقدير نحو بعضِ المُتمرّسين بهذا الجنس. كان خيرةُ هؤلاء كُتّاباً مُتواضعين ذوي ضميرٍ حيّ، ليسوا فقط لأنّهم حكوا في رواياتهم عن الحياة الأمريكية أكثر من المؤلّفين الذين يُقالُ عنهم إنهم جادّون أكثر، بل لأنّهم أيضاً كانوا يَبدون لي أنهم يكتبون، في الغالب، جُمَلاً أفضلَ صياغةً، وأكثرَ انفعالا. إنّ واحدةً من الحِيَلِ التقليدية في حبكات هذه الروايات، هي الإنتحارُ الظّاهرُ الذي ينكشِف عن كونه كان اغتيالاً. في كلّ مرّةٍ تقتل شخصيةٌ نفسَها جِهاراً، ثمّ، في نهاية القصة، عندما تنحلُّ في آخر المطاف جميعُ خيوطِ الحبكة التي كانت مُعَقّدةً،

نكتشف بأنّ الشخصيةَ السيئةَ هي المسؤولةُ، فعلاً، عن هذا الموت. تساءلت: لماذا لا نُغيّر هذه الطريقةَ رأسا على عقب ؟ لماذا لا نبتكر قصّةً ينكشف فيها أنّ الموت الظاهرَ كان انتحاراً ؟ ففي حدود عِلمي، لم يسبق أنْ حدث هذا الأمر .

لم يكن هذا سوى تأمّلٍ اعتباطيّ، وإشراقةٍ تأتي في السّاعة الثانية صباحا. لكن وبما أنّ النوم كان يُجافيني، والقلب خفقانُه في ازْدياد، واختلاجُه يُسرعُ في صدري، فإنّي واصلت قليلاً متابعة فكرتي آملاً أنْ تُهدّئني وأنا أُعِدُّ قصّةً على قاعدة إشراقة عبقريتي. لم أكن أنتظر شيئاً من نتيجة هذا الأمر، بل كلُّ ما كنت أسعى إليه هو مُسَكِّنٌ قمينٌ بتهدئة أعصابي. ومع ذلك، فإنّ قِطَعَ اللعبة المُعقّدةِ ما لبثت أنْ عثرتْ على مكانها، الواحدة بجوار الأخرى. وعندما هدأتُ في آخر المطاف، كنت قد رسمت عَزْمَ روايةٍ بوليسية في خطوطٍ كبرى .

عَنَّ لي، في صباح الغد، أنّ الجلوسَ إلى طاولةٍ، والخوضَ في كتابة هذا العمل، قد لا يكون فكرةً بالغةَ السّوء. وما كان الأمرُ يعني كما لو كنت بصدد القيام بشيء مهمّ وأولَى. كانت قد مرّتْ عليّ شهورٌ لم أكتب فيها جملةً متماسكةً، لم أوَفّقْ إلى العثور على عملٍ، ويكاد رصيدي في البنك ينفد. وإذا ما أفلختُ في اصطناع روايةٍ بوليسية جيّدة كما ينبغي، فلا بُدّ أنْ أجنيَ بضعةَ دولاراتٍ تُحسّنُ وضعيتي. ما عُدْت أحلُم أبداً بأكياسٍ من ذهب، إنّما أحلم براتبٍ مُناسبٍ فقط من أجل عملٍ ملائمٍ، أحلم بفرصة للبقاءِ .

أنشأتُ أكتبُ في بداية يونيو، وكنت قد أتممتُ في نهاية غشت مخطوطاً من ثلاثمائة صفحةٍ ونيّف. كان تمريناً في المُحاكاة الصّرف، ومحاولةً واعيةً لكتابة كتابٍ يشبه كُتُباً أخرى، لكنّ أمرَ كتابته من أجل المال لا يعني أنّي لم أشعُر باللّذة خلال كتابته. ما كان يبدو لي، من حيث جنسُه، أسوأ من العديد

من الروايات البوليسية التي قرأتها، بل كنتُ ألفيه أفضلَ من بعضِها. وعلى أيّ حال كان على قدرٍ من الجودة تجعله قابلاً للنشر، وهذا ما كنت أبتغيه. كانت مُنيَتي الوحيدةُ بالنسبة لهذه الرواية، تتحدّدُ في أنْ أجعلَ منها مورِداً للمال، كيْ أسَوّيَ جميعَ فواتيري المُحتملة .

مرّة أخرى تطَوّخت في العُسر حتى القرار، فأجّزتُ قلمي ما وَسِعَني التأجيرُ، كنت أغرِضُ بضاعتي بأبخس الأثمان، ومع ذلك لم يرغبْ فيها أيُّ أحدٍ. لم يكن المُشكل، في هذه الحالة، يتعلّق بما كنت أسعى لبيعه (شأنه شأن مسألة اللّعبة)، بقدر ما كان يتعلّق بانعدام كفاءتي العجيبة في البيع. كان الناشرون الوحيدون الذين كنت أعرفهم، هم أولئك الذين كانوا يُشَغّلونني قصد ترجمة الكتب، وما كانوا مُؤَهّلين تأهيلاً جيّداً لإصدارِ أحكامٍ على الأدب الشّعبيّ. كانت التجربةُ تُعوِزُهم، ولم يقرؤوا، أو ينشروا أبداً كُتباً تنتمي إلى الجنس الأدبي الذي ينْضَوي فيه كتابي. إنهم، على الأكثر، يعلمون بوجود رواياتٍ بوليسية، أمّا علمُهم بأنواعها الفرعية فقليلٌ أيضاً، نحو: قصص المُخبِرين والإجراءات البوليسية وهلم جرّا. أرسلْتُ مخطوطي إلى واحدٍ من هؤلاء النّاشرين، وعندما عَزَمَ أخيراً على قراءته، كان ردُّ فعله ذا حماسةٍ غير مُتوقّعةٍ .

- قال لي: إنه عملٌ جيدٌ، بل جيّد جدّاً، خلّصه فقط من الطّابع البوليسيّ، وسيصير روايةً سيكولوجيةً ممتازةً .

- قلت مُحتجّاً: إنها بالضبط روايةٌ بوليسية .

- أجاب: من المحتمل، غير أننا لا ننشر رواياتٍ بوليسيةً، مع ذلك أعِد كتابتها، وأعاهِدُك أنّنا سنُوليها عنايتنا .

ربما يغنيه أمرُ تغييرِ الكتاب، أمّا أنا فلا يغنيني. لقد كتبته بطريقة ما في

إطار هدفٍ محدّدٍ، أمّا الشروعُ، الآن، في تفكيكه فسيكون غيرَ معقولٍ. اقتنعتُ بأنّي كنت في حاجة إلى وكيل، إلى شخصٍ يقوم من أجلي بِعَقْد صفقة الكتاب التجارية، بينما أتفرّد أنا لأعمالٍ مُلِحّةٍ أكثر. وكان المشكلُ يكمن في أنه لم يكن لي أدنى عِلْمٍ بالطريقة التي أعثر بواسطتها على أحدِ الوُكلاء. لم يكن للشُّعراء في نهاية المطاف وكيلٌ، وكذلك الشأن بالنسبة للمُترجمين، كما أنّ نُقّادَ الكتبِ الذين يربحون مائتي أو ثلاثمائة دولار لقاء مقالةٍ، لم يكن لهم وكيلٌ. لقد صَرَفْتُ حياتي في أقاليم عالم الأدبِ المُنزوية، والنّائية عن المركز التجاريّ حيث للكُتبِ، والمال أمورٌ يدّعِيانِها. والأشخاص الوحيدون الذين كنت أعرفهم، كانوا شعراء شباباً نُشِرتْ أعمالُهم الشعريةُ في مجلّات صغيرة، أو ناشرين يعملون في دورِ نشرٍ صغيرةٍ لا تجني أرباحاً، وآخرين مُختلفين غريبي الأطوارِ، هامشيين ومنفيين. لم يكنْ ثمّة شخصٌ أيَمِّمُ شَطْري نحوه طلباً للمعونة، ولم يتهيأْ لي، لا شيءٌ من التجربة، أو الإعلام. وإذا كان ثمّة وكلاءُ، فإنّي كنت أغْفَلَ من أنْ أعرِفَ أين أعثُر عليهم. أنبأني، عن طريقِ المُصادفة، صديقٌ قديم من أيّام الدراسةِ، أنّ زوجتَه السابقةَ كانت تديرُ وكالةً أدبيةً، وعندما حدّثته عن مخطوطي شجّعني على إرساله إليها، وهذا ما قُمتُ به. وبعد أن انتظرتُ رَدَّها قرابة شهرين، جاء رفضُها لِلمخطوط. قالت لي: إنّ هذا النوع ليس مُربحاً بما فيه الكفاية، إنّه لا يُساوي الجهودَ التي أُنفِقتْ في سبيله، لم يعُدْ أحدٌ يقرأ قصصَ المُخبرين، هذا نوعٌ مهجورٌ، رديءٌ، وبلا قيمةٍ، خاسِرٌ دائماً. كانتْ كلُّ كلمةٍ في خطابها، تُطابِق كلَّ كلمةٍ في ذلك الخطابِ الذي ألقتْه عليّ وسيطةُ الألعابِ، قبل أقلّ من عشرة أيام .

تمّ نشرُ الكتابِ في النهاية، غير أنّ هذا لم يحصلْ إلّا بعد مرور أربعة أعوامٍ، وفي غضون ذلك تكالبتْ عليّ جميعُ الخُطوبِ، وتوالتِ الإضطراباتُ. وهذا الكتابُ المكتوبُ باسمٍ مُستعارٍ، بغيةَ تأمين الكَفافِ من الرّزق، أضحى أقلَّ

اهتماماتي، وأبعدَ شيءٍ من ذهني، وانهارَ زواجي في نوفمبر 1978. وضاع المخطوطُ المرقونُ لهذه الرواية الغذائية داخل كيسٍ بلاستيكي شبه منسيّ، جرّاء الإنتقالات المُتتابعة، ومات أبي شهرين بعد هذا الحادث بالضبط، مات بطريقة مفاجئةٍ غير مُتوقّعَةٍ، إذ لم يسبق له أنْ كان مريضاً، ولو يوماً واحداً في حياته. وأنفقتُ أغلبَ وقتي، مُدّة أسابيع عديدة، في الإهتمام بالعَقّارِ وتسويةِ شؤونه، وإصلاح الأمورِ. كان موته، عندي، صدمةً قاسيةً جدّاً، وكانت السّببَ في كآبة داخلية عظيمةٍ، وبذلتُ في الكتابة عنه كلّ الطّاقةِ التي أملِكُها من أجل الكتابة(72). كانت السخريةُ المُريعةُ هي أنّه كان قد أوصى لي بشيءٍ ما، لم يكن الأمرُ يتعلّق بمبلغٍ كبير على أساس المواريثِ، بل إنّه فَضْلٌ من المالِ لم يسبقْ لي أبداً أن امتلكته، وقد ساعدني هذا المال على الإنتقال من عِيشةٍ إلى أخرى. أقمتُ من جديد في نيويوك، وواصلتُ الكتابةَ. ذات يومٍ عشِقتُ فتزوّجتُ ثانية(73)، وفي أثناء هذه الأعوام الأربعةِ، تغيّر كلُّ شيءٍ بالنسبة إليّ .

عند منتصَف هذه الفترة، نهاية 1980 أو بداية 1981، توصّلتُ بمكالمة هاتفية من صديق كنت قد لقيته مرّة من قبل. كان صديقاً لِصديقٍ لي، وبما أنّ لقاءنا قد جرى قبل ثمانية أو تسعة أعوامٍ، فإنني كنت بالكاد أتذكّر مَن يكون. أخبرني بِعَزْمه على إنشاء دارٍ للنّشر، وسألني إذا ما كان بحوزتي، على سبيل المُصادفة، مخطوطٌ يُلقي نظرةً عليه، ثمّ شرح لي مُضيفاً بأنّ هذه الدّارَ لن تكون، ببساطةٍ، دارَ نشرٍ صغيرةٍ، بل ستكون مؤسسةً حقيقيةً، مؤسسة تجارية. أطلقتُ صوتاً يَشِي بالشّك وأنا أتذكّر كيسَ البلاستيك، داخل خزانة الملابس، بغرفة نومي. في هذه الحالة قد يكون بحوزتي شيءٌ من أجلكم. حدّثته عن الرواية البوليسية، ولمّا أخبرني بأنّ أمرَ قراءتها يعنيه، نسَخْتُ نُسخةً منها، وبعثتُها إليه خلال ذلك الأسبوع. وعلى غيرِ ما كان يُتوقّعُ، فإنّ

الرّواية أعجبته، وأعجبُ من هذا أيضاً، قولُه بأنّه يرغب في نشرِها .

لقد كنت مسروراً بالطّبع، سُرِرتُ واستفتغتُ، غير أنّ قليلاً من الجزع قد غراني أيضا. لقد بدا لي هذا الأمرُ مستحيلاً. إنّ مسألةَ نشرِ كتابٍ لن تكون كذلك أمراً هَيّناً، وتساءلت إذا لم يكن هناك شيءٌ ما خفِيّ. لحظتُ أنّ هذا الشخصَ يُديرُ مؤسسته من شقّته الكائنة بالمنطقة العليا الغربية، بيد أنّ العقد الذي توصلت به، عبر البريد، كان عقدا حقيقيا. وبعد أنْ تفحّصْتُه، واستخلصتُ بأنّ البُنودَ كانت مقبولةً، لم أرَ أيّ مانعٍ من التّوقيع عليه. لم يكن يتضمّن دُفعةً، ولا الحصولَ على مالٍ بعد نهاية عمليّة الطّبعِ، بل إنّ مُستحقّات التأليفِ لا تُصرَف إلّا بعد بيعِ أوّلِ نُسخةٍ. ورأيت أنّ هذا الأمرَ كان طبيعياً بالنسبة لِناشرٍ جديدٍ يكاد ينطلق، ناشرٍ يفتقِرُ إلى مُساهمين، ويُفوِزُه سَنَدٌ ماليّ مُهمّ، لا يستطيع أبداً صرفَ مبالغَ لم يكن يملكها. وغنيٌّ عن البيان أنّ مشروعَه لا يمكن اعتبارُه، بحقّ، *مؤسسة تجارية*، غير أنّه يأمَلُ أنْ يتحقّق هذا في المستقبل، ومَنْ أنا لِأُعيبَ عليه آمالَه ؟

بعد تسعة أشهر تدبّر أمرَ طبعِ كتابٍ (إعادة نشرٍ في طبعة الجيب)، غير أنّ إصدار روايتي تأخّر مدّة ما يقرُب من العامين، وعندما طُبِعَ في آخر المطاف كان الناشرُ قد فقد مُوزِّعَه، ولم يعُد يملك أيّ مالٍ، وصار مشروعُه للنّشرِ آفِلاً من جميع النّواحي، أمّا بعضُ النُّسخِ التي سلّمها بنفسه من مكتبة إلى أخرى، فقد وُفِّقَتْ للوصول إلى بعض المكتبات بنيويورك، وظلّ ما تبقّى من النُّسَخ المطبوعة داخل عُلَبِ الكرتون يتكدّسُ الغبارُ عليها أسفلَ مُستودعٍ بِناحيةٍ ما من *بروكلين*، وبحسب علمي فإنّها ما زالت تقبَعُ هناك .

وبعد الذّهاب بهذه القضية إلى هذا الحدّ، بدا لي أنْ أبذُلَ آخر جهدٍ لِأرى إذا ما كنت أستطيع إتمامها مرّة وإلى الأبد. فبما أنّ الكتابَ كان قد « نُشِر»، فلا يمكننا أنْ نتوخّى أبداً طبعةً مُجلّدةً، لكنّ نُسخَ الجيب كانت موجودةً،

وأنا لم أكن أرغب في التخلّي عن الكتاب من دون إغطائه إمكانيةَ الرّفض هناك أيضاً. طفِقْتُ أبحث عن وكيلٍ، وكنت قد وجدتُ، هذه المرّةَ، الشخصيةَ المُناسبةَ. لقد بعثتُ الكتابَ إلى أحدِ المُدراء الأدبيين لِأفون بوكس، وما هي إلّا ثلاثة أيامٍ حتى تَمّ قَبولُه. هكذا، بكلّ بساطة، ومن دون تأخيرٍ، مُنِحتُ دفعةً قذرُها ألفا دولارٍ، فأغطَيتُ مُوافقتي بِلا مُساومةٍ، وبلا اعتراضٍ، وبلا مُفاوضاتٍ ماكرة. إنتابَني الإحساسُ بأنّني أنصِفتُ في آخر المطاف، ولم أعُذ آبَه للتّفاصيل. وبعد أن اقتسمتُ الدّفعةَ مع النّاشر الأوّلِ (كما كان العقدُ ينُصّ على ذلك)، تبقّى لي ألفُ دولارٍ، وبعد أن طَرَحتُ نسبةَ عشرة في المائة لِقاءَ عُمولةِ الوكيلِ، ألفيتُني أملكُ مبلغاً كبيراً من تسعمائة دولارٍ.

ها هي الكيفيةُ التي نُؤَلِّفُ بها الكُتبَ من أجل الحصولِ على المال. ها هي الطريقةُ التي نُبَاعُ بها.

1996.

Telegram:@mbooks90

هوامش من وضع المترجم :

(1) – **وليم كارلوس وليم** (1883-1963) شاعر وروائي أمريكي .

(2) – **لوي فرديناند سيلين** (1894 – 1961) من كبار مجدّدي الرّواية الفرنسية في القرن العشرين. من أشهر أعماله الروائية: *رحلة في أقاصي الليل* .

(3) – **والاس ستيفنس** (1879 – 1955) رائد كبير من رواد الشعر الأمريكي الحديث .

(4) – **جاك دوبان** (1927 – 2012)، شاعر فرنسي، عمل في أروقة الفنّ الحديث، يُعدُّ خبيراً في المُنجز الفنّي للرسام *خوان ميرو*، نقل **بول أوستر** أشعاره إلى الإنجليزية .

(5) – **وليام برونك** (1918 – 1999)، شاعر أمريكي .

(6) – **دون دو ليلو** (1936 ...) كاتب أمريكي، كتب القصّة القصيرة والمسرحية والسيناريو والمقالة، واشتهر بكتابته للرواية .

(7) – **بيتر كاري** (1943 ...)، كاتب أوسترالي، حصل على جائزة ***البوكر*** مرّتين عن روايتيه: *أوسكار ولوسيندا* (1988)، و *التاريخ الحقيقي لعصابة كيلي*، يعيش في نيويورك ويُدرّس بها .

(8) – **إلمور ليونار** (1925 – 2013)، روائي وسيناريست أمريكي .

(9) – يُطلَق اسم ***الثيران***، في عالم البورصة الأمريكي، على المُضاربين على ارتفاع، ويُطلَق اسم ***الدببة*** على المُضاربين على انخفاض. هامش من وضع *كريستين لوبوف* مترجمة النص إلى الفرنسية .

(10) – تلميح إلى الإشهار المتلفز الذي كان يُعرض طيلة سنوات في تلك الفترة من قبل وكالة للسّمسرة في البورصة. (المترجمة) .

(12) – ***البارميتسفا***: طقس سِنّ البلوغ في الديانة اليهودية، يجري هذا الطقس عندما يبلغ الصبيّ سنّ الثالثة عشرة .

(13) – (برج ***مارسيلو*** الواقع قبالة البحر، أصبح مزاراً يقصده الناس والسياح، لأنّ جيمس جويس كان يُقيم به مع نفر من الكتاب عام 1904، وهو المكان الذي يجري فيه المشهدُ الأول من رواية ***يوليسيس***. أضحى البرجُ معلمةً سياحيةً، ومتحفا يحمل اسمَ الكاتب، لأنّه يحتضن ذكراه) من تقديم لترجمة لنا بعنوان (الكاتب ومدينته) منشورٍ بمجلة *نزوى* ع 67 – 2011 .

(14) – ***حيّ واتس***: من أفقر الأحياء السّكنية *بلوس أنجاس*، غالبية سكّانه من السّود الأفروأمريكيين. كان في عام 1965 مسرحاً لتظاهرات منددة بالتمييز العنصري، نجم عنها مقتلُ أربعة وثلاثين شخصاً.

(15) – **بوستر كيتن** :(1966 – 1895) ممثل ومخرج ومنتج وسيناريست أمريكيّ، فكاهيّ مشهور، كان يُلقب ب « الرجل الذي لا يضحك أبدا».

(16) – ***كلاكيت***: (أسلوبٌ في الرّقص نشأ بالولايات المتحدة الأمريكية في القرن 19، وظهر بمصر في الأربعينيات من القرن 20. من روّاده نعيمة عاكف وإبراهيم عاكف .. وهو أداءٌ حركيّ واستعراضٌ يعتمد اللياقةَ البدنية، وهو أقربُ إلى الرياضة منه إلى الرقص، ويُنظرُ إليه على أنه فلسفة وفنّ ورياضة في آنٍ واحد .) من حوار مع إبراهيم عاكف .

(17) – داء الشيلان: مرض جنسي .

(18) – Weather Underground: جماعة أمريكية تمثل اليسار الراديكالي، تناهض الإمبريالية والعنصرية، تأسست عام 1969 بشيكاغو، اعتبرها مكتبُ التحقيقات الفيدرالي (إف بي آي) منظمة إرهابية .

(19) – S .D.S (طلبة من أجل تنظيم ديموقراطي): تنظيمٌ طلابيٌ أمريكيٌ انخرط في الحركة الطلابية الرّافضة خلال الستينيات، كان يرفض الخضوعَ لكتلة الشرق، ويُناهض الشيوعيةَ التي مثلها اليسارُ الليبراليّ الأمريكي، إنحلّ عام 1969، عارض

الأمريكية على الفيتنام، وأثر تأثيراً عميقاً في الحركات الطلابية الأمريكية التي أعقبته .

(20) - **أربو ماركس**: (1888 - 1964) ممثل كوميدي يهودي أمريكي .

(21) - **كريستوفر سمارت**: (1722 - 1771)، شاعر إنجليزي، كتب أشهر قصائده في المصح النفسي بلندن، حيث كان مسجونا بسبب اضطرابات عقلية ناجمة عن إدمانه الكحول. كتب قصيدةً شعرية Jubilate Agno من مئات الصفحات كلّها في تمجيد الرّب، لم يُنشر هذا النص إلّا عام 1939، وصار الشاعر مذّاك مشهوراً في إنجلترا. كان أنجليكانيا وَرِعا .

(22) - **سيرجيو ليوني**: (1929 - 1989)، مخرج وسيناريست إيطالي، صاحب الفيلم الشهير (*ويسترن سباغيتي*)، أخرج أفلاماً كبيرة أتاحت للعالَم اكتشافَ الممثل *كلين إيستود* .

(23) - سترينغ: (مايو)، سروال داخلي .

(24) - **جين كروبس**: (1909 - 1973)، طَبّالٌ ورئيسُ فرقةٍ للجاز الأمريكي .

(25) - (1926 - 1992) **H.L.Humes**، صاحب مجلة *باريس* (مجلة أدبية)، ألّف روايتين في الخمسينيات، تناول عام 1966 كميات كبيرة من حبوب L S D فأصبح مُصابا بالبارانويا والهذيان، ولم يكتب أيّ شيءٍ بعد هذا.عاد عام 1969 إلى أمريكا، وابتكر لنفسه صورةَ مُعلّمٍ روحيّ، فقضى زهاء عشرين سنة يتسكّع في الحرم الجامعي لكولومبيا وبرينستون وهارفارد، وهو يسحر الطلبة مازجاً بين سَعَةِ معرفته ومرضه العقلي .

(26) - **يوليسيس جرانت** (1822 - 1885)، رئيس الولايات المتحدة الثامن عشر .

(27) - **تريستان تزارا** (1896 - 1963): شاعر طليعي، وكاتب، وناقد فنّي وأدبي، مؤسس الحركة الدّادائية، من أصل روماني .

(28) - **جان جوني**: (1910 - 1986)، كاتب فرنسي مشهور، ناصر القضايا الإنسانية العادلة، ومنها القضية الفلسطينية. قضى أكثر من شهرين بالولايات المتحدة

المناضلين الثوريين المنتمين لمنظمة ***الفهود السود***، يقول عنهم: (إنّ ما جعلني أحسّ بأنّي قريبٌ منهم قُرباً مباشراً، هو ذلك الحقد الذي يُكِنّونه لعالم البيض، هو انشغالهم وهمّهم من أجل تدمير مُجتمعٍ، وهو انشغالٌ انتابني في شرخ الشباب، غير أنّي لا أستطيعُ تغييرَ العالَمِ بمفردي ..). من حوار أجرته معه مجلة النوفيل أوبسرفاتور .

(29) – *التشيكانو*: أمريكيون من أصول مكسيكية .

(30) – *الكَوثَل*: مُؤخّر السفينة .

(31) – خطّ *ماسون* – ديكسون: خطّ أنشأه الفلكيان الإنجليزيان تشارلز ماسون وجرمايا ديكسون، بين عامي 1763 – 1767، بطول 375 كلم، يفصل بين ماريلاند وبنسلفانيا .

(32) *الدّحداح*: القصير كبير البطن .

(33) – **ف .س. فيلدس**: (1880 – 1946)، حاوٍ وفُكاهي وممثل أمريكيّ .

(34) – **رالف ريتشاردسون**: (1902 – 1983)، ممثل بريطانيّ .

(35) – نسبة إلى **شارل ديكنز** (1812 – 1870)، الروائيّ الكبير الذي يمثل الحقبة الفيكتورية في الأدب الإنجليزيّ .

(36) – **خوان ميرو**: (1893 – 1983)، رسام ونحات إسبانيّ، من كبار الفنّانين المنتمين إلى الحركة السّوريالية .

(37) – **ألبرتو جياكوميتي**: (1901 – 1966)، نحّات ورسام سويسريّ، كان قريبا من السورياليين، إنخرط رسميا في حركتهم عام 1931 .

(38) – **مارك هاغال** :(1887 – 1985)، ينحدر من بيلاروسيا، من أشهر الرّسّامين الذين أقاموا بفرنسا في القرن العشرين إلى جانب *بابلو بيكاسو* .

(39) – **ألكسندر كالدر** (1898 – 1976)، نحّات ورسّام أمريكيّ.

(40) – **أندري سينيافسكي:** (1925 – 1997)، كاتب روسي منشق، وأحد الناجين من جحيم معسكرات الكولاك .

(41) – *يَخْنَة*: طعامٌ من اللّحم والخضروات .

(42) – **أندريه دو بوشيه:** (1924 – 2001)، شاعر فرنسي .

(43) – **ماري ماكارثي:** (1912 – 1989)، روائية، وصحافية أمريكية، وناقدة أدبية، ومناضلة سياسية، ربطتها بالفيلسوفة الألمانية *حنة أرندت* صداقة طويلة، نُشِرت مراسلتهما .

(44) – *كيم فان كيو*: قصيدة فيتنامية كتبها أوائل القرن 19 *نكويين* دو (1765 – 1820)، غدّت عملا أدبيا فيتناميا نسيجَ وحده .

(45) – *المِعطال* من النساء: المُعتادة ترك الحَلْي استغناءً عنه بجمالها .

(46) – **هوشي منه:** (1890 – 1969)، مؤسّس الدولة الفيتنامية الشمالية.

(47) – **بن هور** Ben – Hur، شريط أمريكي من إخراج *وليام وايلز* عام 1959، مقتبس من رواية (*بن هور: حكاية عن المسيح*) *للويس والاس*، ظهرت عام 1880. يُعدّ الفيلم تُحفةً سينمائية، حصل على إحدى عشرةَ جائزةَ أوسكار.

(48) – **Z**: فيلم من إخراج *كوستا غافراس*، ظهر عام 1969، مقتبس من رواية بنفس العنوان للروائي اليوناني *فاسيليس فاسيليكوس*. حصل الفيلم على جائزة الأوسكار عام 1970، تتناول الرواية والفيلم قضية اغتيال غريغوريس *لامبراكيس* (1912ـ 1963)، وهو طبيبٌ، وبطلٌ رياضيٌ، ورجل سياسي، ومقاومٌ يوناني .

(49) – **ديفيد لين:** (1908 – 1991)، مخرج ومنتج وسيناريست بريطاني، اشتهر بإخراجه لأعمالٍ سينمائية كبيرةٍ، نحو: *لورنس العرب* (1962)، و *الدكتور جيفاغو* (1965)، و *جسرٌ على نهر كواي* (1957) .

(50) - **مالكوم لاوري**: (1909 - 1957)، شاعر وروائي بريطاني، ظهرت روايته (*تحت البركان*) عام 1947، وتُعدُّ عملَه البارزَ والأهمَّ، كما تُعدّ أيضاً من أهمّ الأعمال الأدبية في القرن العشرين .

(51) - *باوهاوس* (بالألمانية: Bauhaus)، مدرسة فنية نشأت في ألمانيا، كانت مهمتُها الدمجَ بين الحِرفة والفنون الجميلة (الرسم والتلوين والنحت والعمارة). جاءت تسمية *باوهاوس* من الإسم الألماني Bau والذي يعني **بناء** وHaus الذي يعني **بيت** .

(52) - **ألفرد ستيجلز**: (1864 - 1946)، مُصوّر أمريكي، وتاجرُ فنٍّ .

(53) - **أوفيد**: شاعر لاتيني عاش خلال نشوء الإمبراطورية الرومانية، أشهر مؤلفاته هي: (فنُّ الحُبّ) و (التحوّلات) .

(54) - **مارسيل دو شامب** (1887 - 1968)، رسّام وأديب فرنسيّ من كبار الفنّانين في القرن العشرين، وصفه *أندري بروتون* بقوله: (أذكى رجلٍ في القرن) .

(55) - **شتاين جرترود**: (1874 - 1946)، شاعرة، وكاتبة، ومؤلفة مسرحية، وناشطة نسوية أمريكية، أنفقت مُعظمَ حياتها في فرنسا، ولعبت دور الوسيط، والمُحفِّز على تطوّر الأدب والفنّ المعاصرين .هي صاحبة التسمية الشهيرة (الجيل الضائع) التي أطلقتها على مجموعة من الأدباء الأمريكيين المُغتربين في فرنسا خلال فترة ما بين الحربين (همنغواي، فيتجيرالد، شتاينبك، دوس باسوس، إزرا باوند، سيلفيا بيتش ..إلخ) .

(56) - **أليس. ب. توكلاس** (1877 - 1967)، أديبة أمريكية، كانت رفيقةَ جرترود *شتاين*، وسكرتيرتَها، وعشيقتَها، عاشت في الظِّلّ إلى أنْ نشرتْ جرترود *شتاين* مُذكراتها الشخصية عام 1933، تحت عنوانٍ مثير :(*السيرة الذاتية لأليس. ب. توكلاس*).

(57) - **Transition**: مجلّة أدبية أمريكية مقرّها باريس (1927 - 1938)، لعبت دوراً كبيراً في نشر الحداثة، والأفكار الطليعيّة، أدباً، وفكراً، وسياسةً، ظهرتْ أواخر عشرينيات القرن الماضي حتى عقد الثلاثينيات منه .

(58) – **ماريا جولاص**: (1893 – 1987)، مؤسسة مجلة Transition في باريس بمعية زوجها **أوجين جولاص**، لَفَع اسمها خلال مُعارضة الحرب على الفيتنام، ترجمت العديد من الكتب الفرنسية إلى الإنجليزية، منها كتاب (*شعرية الفضاء*) لغاستون باشلار .

(59) – Noa Noa: معناها « *مُعَطَر* » بلغة تاهيتي، هي مُذكّرات كتبها الرسّام الفرنسي *بول غوغان* (1848 – 1903) أثناء إقامته الأولى بتاهيتي، تكشف عن الإنبهار أمام طبيعة هذا البلد، وعشقِ حضارةِ *الماورس* المُهدّدة. إنها نصّ يَشِي بالإكتشاف العاشقِ لبلدٍ، ولِساكنته، ولِثقافته .

(60) – **راي مان**: (1890 – 1976)، رسّام، ومُصوّر، ومخرجُ سينمائيّ.

(61) – **كوسينسكي**: (1933 – 1991)، كاتب أمريكيّ من أصل يهودي بولوني، إشتهر شهرة عالميةً بروايته (*الطائر الأزرَق*، 1965)، ساهم مُحرّرون عدّة في كتابتها، لأنّ كويسنسكي لم يكن يُجيدُ اللغةَ الإنجليزيةَ حقَّ الإجادة في هذه الفترة .

(62) – **جون لينون**: (1940 – 1980)، موسيقيّ، ومؤلف، ومُلحن، وعازف على الغيتار، ومُغنّ، وكاتب بريطانيّ، مُؤسس المجموعة الموسيقية العالميّة (البيتلز) .

(63) – **روبير موثورويل** (1915 – 1991)، رسّام أمريكيّ انتمى إلى المدرسة التعبيرية التجريدية .

(64) – **ليديا ديفيس** (... 1947) :Lydia Davis قاصّة، وروائية، وأستاذة جامعية، ومترجمة أمريكية، نقلت أعمالَ *فلوبير* و *بروست* و *فوكو* و *بلانشو* إلى الإنجليزية، تميّزت بأسلوبها في كتابة القصّة القصيرة، حصلت على جائزة ***البوكر*** عام 2013، تزوجت **بيول أوستر** (1974 – 1978)، وأنجبت منه طفلا (*دانييل*)، وبعد طلاقها منه، تزوجت بالرسّام *ألان كوت* .

(65) – **جون بيرنارد ميرز**: تاجر فنّ، وكاتب أمريكيّ، قدّم ونشر أعمالَ العديد من فنّاني وشعراء نيويورك، كما ساهم في التعريف بعددٍ من الكتاب الناشئين الذين أطلق عليهم اسم « *شعراء مدرسة نيويورك* » ومنهم جون *أشبري* و *باربارا كيشت* ..

(66) - **جيمس ميريل** (1926 – 1995)، شاعر أمريكي أساسي، وابن مُمَوِّل كبير، حاز على عدة جوائز أدبية، منها جائزة *البوليتزر* عام 1977 عن ديوانه (*كوميديات الهبة*).

(67) - **جون واين**: (1907 – 1979)، ممثل ومخرج ومنتج أمريكي .

(68) - **لاورا ريدينغ جاكسن**: (1901 – 1991)، شاعرة وناقدة وروائية أمريكية .

(69) - *قانون مورفي*: هو مجموعة من الأمثال الشعبية معظمها كوميدية وخيالية .. نسبة إلى المهندس *إدوارد مورفي* .. .

(70) - **مارك روثكو**: (1903 – 1970)، رسام أمريكي .

(71) - *لَهْوَجَ* عملَه: فعلَه على عجلٍ وبلا إحكامٍ، لم يُتقنه ولم يُحكِمه، **لَهْوَجَ الطَّعامَ**: لم يُنضِجه .

(72) - أوحى له رحيلُ أبيه المباغث بكتابة (*ابتكار العزلة*)، وهو أوّل كتاب سرديّ سيصنع شهرتَه، وسيشكل قاعدة راسخة تنبثق منها أعماله الروائية الأخرى. يتكون الكتاب من قسمين: 1) **صورة رجل لامرئي**، وفيه يقدم صورةً عن أبٍ غامضٍ، وكتومٍ، وجافٍّ، لا يذيع أسراره، كما يصف علاقاتهما النادرة والصعبة. 2) **كتاب الذاكرة**، في هذا القسم الثاني يستعيد السارد (الكاتب) حياته في باريس .. تكمن المفارقة في أنّ موت أبيه سينقذه من ورطتين: ينتشله من براثن العوز، والضَّنك، بما أوصى له من ميراث، و يُلهمه هذا الكتاب الذي سيُرسّخ اسمه في دنيا الأدب، فيصير كاتباً شائعا ومعروفا، تُتَداوَلُ كتبه على نطاقٍ واسعٍ، وتُترجم إلى لغاتٍ شتى ..

(73) - يشير الكاتب، ههنا، إلى زواجه الثاني من **سيري هوستفيد** وهي روائية، وشاعرة، وكاتبة مقالات أمريكية (1955 ...)، تزوّج بها عام 1982 بعد أنْ ضمّهما لقاءٌ شعريٌ جرى يوم 23 فبراير 1981 بنيويورك، وأنجبت له طفلة (صوفي)، يتحدث **بول أوستر** عن زوجته الثانية بكلمات عذبة، ورقيقة، و وجدانية، يقول: (« سيري» هي قوامُ حياتي وقدازها، إنها هي التي أنقذتْ حياتي، غيّرتْ « سيري» رؤيتي إلى العالَم. كنت

لكانت هذه السنواتُ الثلاثون مغايرةً كلَّ المغايرةِ . كنت أتصرّفُ مع النساء بغباءٍ ،ما كنتُ أدري ماذا أفعل ،كنت أتخِذُ قرارات بلهاء على الدوام . إنّ قارئتي الأولى ،اليوم ،هي « سيري» .) من حوار مع الكاتب منشورٍ بصحيفة الإكسبرس الفرنسية ،01 – 03 – 2013 .